تامر إبراهيم

الذي فعلته!!

رواية

سبارك للنشر والتوزيع

أنا الآن أعمل كمجهول ... أعيش كجهول ... أتواجد كمجهول ...
أنا الآن لا وجود لي إلا في ذاكرة أقل القليل، وعليّ في الفترة القادمة أن أعتاد هذا النمط الجديد والعجيب من الحياة ...
لا أحد يعرفني، ولا يشعر بي مخلوق ..
لماذا اخترت هذا الإختيار؟!
لأنني تفوقت على من لا يوجد لديهم شيء يخسرونه، فأنا لم يعد لدي شيء أملكه!!
انا الآن بلا شيء على الإطلاق .. أي شيء .. حتى هوية لأعيش بها..
ثمة أشياء سيكون عليّ تعلمها الفترة القادمة..
فالمرحلة الجديدة من حياتي لها متطلبات خاصة، وإمكانيات خاصة..
المرحلة القادمة من حياتي تعتمد على ألا أتواجد إلا على هذه الأوراق التي أخطها الآن، لتكون الشاهد الوحيد على قصتي...
هذه الأوراق التي ستمنحك الحقيقة كاملة.. حقيقة..
الذي فعلته..



الذي فعلته!!

رواية

الذي فعلته!!
رواية

بقلم
د. تامر إبراهيم

إن جميع ما تقدمه (سبارك) هو مصنفات عربية مائة في المائة لا تشوبه شبه الترجمة أو الاقتباس أو النقل من أي قصص أوربية أو أمريكية.

إشراف
محمد جاسم
د. سند راشد

تصميم الغلاف والإخراج الفني
أحمد عاطف مجاهد

مراجعة لغوية
محمد عبد الرحمن فرج

سبارك للنشر والتوزيع



spark-books.com

تامر إبراهيم

الذي فعلته!!

رواية

سبارك للنشر والتوزيع

الورقة الأولى

الذي فعلته!!

الأربعاء ١٥/٥ - الساعة ٦.٣٣
المكان: عيادة الدكتور (علي)..

"هل تؤمنان بالتنويم المغناطيسي؟؟!"

قالها صديقي الدكتور (مجدي) ، فأجبت بسرعة قبل أن يتمادى في هذا السخف:

- لا... ولا تحاول تغيير الموضوع من فضلك..

إلا أنه عاد يكرر:

- وماذا عنك يا (علي)؟؟

نظر (علي) إلى السقف لحظة مفكراً ثم قال:

- لا... أعتقد أن الأمر أسخف من أن يكون حقيقياً..

ثم أنه ابتسم بخبث ليقول:

- وأعتقد أن (سامي) محق.. أنت تريد تغيير الموضوع.. هل ستتزوج حقاً؟؟

أعقبت على كلامه:

- أعتقد أنه يخشى التحدث عنها... هيا أخبرنا، من هي تلك المعتوهة التي رضيت بك..

ابتسم (علي) بوقار، كعادته حين يمنع نفسه من قتلي، وأجاب:

- حسناً أيها الوغدان.. نعم سأتزوج، لكني لن أخبركما من هذه المعتوهة..

قلت محاولاً استفزازه:

- لماذا؟؟ هل أمرتك بعدم التحدث؟!

- مع الحمقى فحسب.. نعم أمرتني..

- هيا، لا تكن وغداً وأخبرنا من هي..

- سأفعل لو أجبت عن سؤالي هذا، لماذا لا تؤمن بالتنويم المغناطيسي؟!

- ها قد عدنا إلى ذات الهراء عن التنويم المغناطيسي ..

أجاب (علي) نيابة عني:

- لأنه لا يوجد ما يثبت هذا الهراء... والآن، دورك لتخبرنا من هي..

جلس (مجدي) على المقعد المواجه لنا، وفرك يديه كعادته حين يكون متوتراً، ليقول:

- حسناً.. لن أخفي عليكم أن هذا الموضوع يهمني بشدة هذه الفترة، أنا طبيب نفسي كما تعلمان، والتنويم المغناطيسي كان جزء من الدراسات التي قمت بها الفترة الماضية و... و...

وبالطبع لم أسمع باقي ما قاله، بل اتخذت سلاح الشرود الذي أجيد استخدامه كوسيلة لإضاعة الوقت، حتى ينتهي من كم الدراسات المعتاد الذي يلقيه على مسامعنا، كلما أردنا أن نحدثه في موضوع ما..

من حسن حظه حقاً أننا أصدقاء منذ الطفولة، وإلا لما كنت احتملته طيلة هذه الفترة... على الأقل كانت هناك فترات أخرى، كان

(مجدي) أكثر منه إلى آدمي منه إلى طبيب أمراض نفسية ..

وكانت هناك فترات أخرى لم أكن أنا فيها الفاشل الأوحد في هذه الصداقة الثلاثية..

دعني آخذ بعض الوقت لأعرفك بنا جيداً، قبل أن تمضي بنا الأحداث ولا نجد وقتاً لهذا فيما بعد، حينها لن أكون أنا سوى مجرد (سامي) ولن يكونا هما سوى مجرد (مجدي) و(علي)..

ولنبدأ بـ (مجدي)...

منذ طفولته وهو النموذج المثالي للطالب الوغد الذي يستذكر دروسه جيداً، ويلتزم بالقوانين الخرقاء بإيمان عميق، وإن لم يجد قوانيناً يلتزم بها، صنع لنفسه القوانين اللازمة لجعل حياته جحيماً يعرف كل خطوة يخطوها فيه... دائماً ما كان يذكرني بتلك الصورة على كتب (سلاح التلميذ) لذلك الفتى الذي يقف مبتسماً وملوحاً بيده لمستقبل مشرق، لا مجال فيه للمتعة...

صدقوني لم أدهش على الإطلاق حين دخل كلية الطب ليتخرج منها وغداً ذو معطف أبيض، تمتلئ كلماته بالألفاظ اللاتينية القميئة..

والآن (علي)..

(علي) - ببساطة - هو الحظ - بدون حساب - يمشي على قدمين!!

ولد لأسرة ثرية، لم تعلمه سوى الكسل واللامبالاة التامة، فالمستقبل مجدد له منذ أن كان في المهد... سيمر بمراحل التعليم مرّ الكرام، ثم سيدير شركات والده، ويتحول إلى رجل أعمال..

ولأنه كان يملك وقته كله، ووسامة موروثة، فلك أن تتوقع أنه نموذج للوغد الوسيم المرفه الذي لا هم له سوى اصطياد الفتيات وإلقاء الدعابات هنا وهناك... وقد كان!

لكن شيئاً ما كان يجذبني إليه دوماً.. ربما جرأته اللامحدودة.. ربما لأنه لم يكن متكبراً كأمثاله من الأثرياء.. ربما لأنني حين أكون معه أدخل إلى عوالم ما كان لي أن أراها، وأنا الذي أعمل أثناء دراستي لتوفير نفقاتي..

أنا... الدور عليّ أنا..

حسناً.. لأنني أتحدث عن نفسي فلا تتوقع أن كل ما سأقوله هوحقيقي مائة في المائة، وهذه قاعدة عامة... أي شخص يتحدث عن نفسه لا يمنحك سوى انطباعاته الشخصية عمّا يود أن يكونه، لا حقيقته المجردة كما هي..

القاعدة الثانية، هي أن أي شخص يحدثك عن نفسه لا يبد أن يكون ثرثاراً وهذا ما لن أشذ أنا عنه..

ما أملكه وأستحقه عن جدارة حقيقية، هوجسد ممشوق القوام، تبرز عضلاته بتناسق ملفت للنظر، وقدر لا بأس به من الوسامة، مما يجعلني أن أكون نجماً سينمائياً أورجل شرطة محنك... ولأن الإحتمال الأول ليس متوافراً لمن هم من أسرة شبه معدمة، لذا فلا تستغرب لوعرفت أنني ضابط شرطة... وهاك نصيحة أخرى مجانية..

لوأردت أن تصبح أن تصبح ضابط شرطة فعليك أن تكون قاسياً، تتحلى بدرجة من الفظاظة التي ستكتسبها رغماً عنك سواء من تعاملك مع المجرمين أومع رجال الشرطة الأعلى رتبة!

أربعة سنوات قضيتها من عمري أطارد الأوغاد حتى ألفتهم... حتى أصبحت لا أطيق فراقهم... حتى أصبحت أتساءل حقاً، عن كنه كلمة (الوغد)؟؟!

أحد زملائي قال لي أن هذه مرحلة طبيعية يمر بها كل شرطي من

كثرة ما رآه، بعد هذا يتحول الشرطي إلى وغد آخر، لكنه هذه المرة يحمل شارة ومسدساً وراية القانون!

لست أهتم كثيراً بما قاله، لكني ألحظ التغيرات في شخصيتي كل يوم.. أصبحت أفضل العزلة، واكتسب صوتي تلك الخشونة المميزة لمن يقضون نصف نهارهم في الصياح، وأصبحت لا أستنكر العنف في حل الأزمات إلى هذه الدرجة..

وبالطبع لم يرق هذا كله لزوجتي... ولوأردنا مزيداً من الصراحة، فلا شيء مني سيروق زوجتي في الفترة القادمة، خاصة بعد أن أعلنت رفضي التام لإنجاب طفل، ونحن لم يمض على زواجنا أكثر من عام...

وأي متزوج – حقيقي – يدرك أن رفقة المجرمين أفضل من رفقة زوجة ثائرة، لذا انغمست في العمل في الآونة الأخيرة، ولم أخرج منه إلا اليوم لأعرف أن صديقنا الوغد (مجدي) قرر أخيراً الزواج بعد سنوات طالت من الدراسة.. وها نحن الآن نستمع لكل الهراء الذي حفظه على مر السنين..

"هه... هل توافق؟؟"

قالها (مجدي) للمرة الثانية وبصوت مرتفع جعلني أدرك أنها ليست المرة الأولى التي يسألني فيها هذا السؤال، فأجبت بصراحة:

– أوافق على ماذا؟؟

– ألم تصغ إلى شيء مما قلته؟؟

– ولا حرف..

– لا بأس.. كل ما أريده هوأن أجرب التنويم المغناطيسي عليكما..

– هل سنقضي ليلتنا كلها في هذا الهراء؟؟!

قلتها أنا بملل واضح، لكن (علي) هز كتفيه بأريحية، ليقول:

- ولم لا؟؟ لن نخسر شيئاً على كل حال..

لكني قلت بعناد ساخر:

- وهل ستستخدم معنا القلادة لتؤرجحها أمامنا كالمشعوذين أم ماذا؟؟

ابتسم (مجدي) بثقة وقال:

- في حالتك هذه لن تجدي الطرق التقليدية نفعاً.. ما سأفعله هوأنني سأحقنكما بمهديء خفيف ليساعدكما على الإسترخاء، ثم سأطلب منكما التحديق في شاشة الكمبيوتر، وسيقوم برنامج التنويم الذي صممته بالباقي..

لكم أكره هذا السخف!!

على كل حال ما الذي سأخسره؟؟

لنجرب إذا كان هذا سيثبت له أنه أحمق وأن كل السنوات التي قضاها في الدراسة، كانت مضيعة للوقت..

وهكذا.. ها أنا أستلقي على أحد الأسرة وعلى الفراش المجاور لي (علي) وقد حقنه (مجدي) بالمهدئ، ليبدو أشبه بالمدمنين بعينيه اللتين تساقط جفناهما... يبدو أنه لن يحتاج للتنويم المغناطيسي ليتصاعد شخيره في السماء!

انحنى (مجدي) علي وهو يعد المحقن الآخر، ثم كشف عن ذراعي قائلاً:

- على الأقل سيريحني المهدئ من سخريتك قليلاً..

أجبت:

- ستحتاج للسم كي تتخلص من سخريتي..

بدت لي ابتسامته غامضة، وهو يقول:

- من يدري؟؟!

ودفع بالمهدئ في عروقي بلا تردد...

شعرت على الفور باسترخاء عجيب يغزو عضلاتي، وبشعور أعجب بالسكينة... أياً كان ما سيفعله بي فلن أقاوم.. لن أقدر!

تحرك (مجدي) ليغلق النور فساد الظلام إلا من ضوء شاشة الكمبيوتر. فبدا أشبه بشبح، والضوء ينعكس عن معطفه الأبيض بينما يغلف الظلام ملامحه...

تحدث فجاء صوته من بعيد:

- الآن.. لا أريد منكما سوى أن تركزا فيما ستريانه على شاشة الكمبيوتر ولا شيء سواها..

قالها ونظر إلينا كأنما يستوثق من أننا فهمنا ما قالها... ثم... ثم..

ثم شغّل البرنامج...

***

لا.. لم أسبح في الظلام، ولم أشعر بأنني أطير، إذا كان هذا ما ظننته..

على العكس تماماً...

كنت أشعر أنني أهوي بسرعة مخيفة لم أستطع معها حتى الصراخ!

وكان الضوء يغمرني من كل اتجاه على نحو أفقدني الرؤية تماماً..

ودام هذا طويلاً... طويلاً...أطول مما قد تتخيل بكثير..

ثم رأيت تلك الأطياف أخيراً .. طيف لرجل ما ينحني على طيف رجل آخر استلقى على أرض - لا وجود لها - بلا حراك..

كيف عرفت أنهما رجلين... لا أعرف... لقد كنت في حالة أقرب إلى الإحساس منها إلى الرؤية..

ثم بدأت سرعة سقوطي تتناقص... وتتناقص... وتتناقص..

ثم توقفت عن السقوط بغته...

وفتحت عيناي...

وهالني ما رأيت..

***

الخميس ٥/٢٣ - الساعة ٩.٤٥

المكان: مركز الشرطة..

احتجت لخمس دقائق كاملة لأستوعب الموقف الذي وجدت نفسي فيه حين فتحت عيناي...

وكأي رجل شرطة يحترم نفسه، بدأت المعلومات تدفق إلى رأسي في نقاط منظمة، ولكن ببطء نوعاً ما، من شدة الذهول..

أولاً... لم أكن في عيادة صديقي الدكتور (مجدي) حيث كنت حين نومنا مغناطيسياً... (كيف؟؟!!! أين أنا؟!!!! هل نجح في تنويمنا مغناطيسياً حقا؟!!!!)..

ثانياً... كنت في مركز الشرطة حيث أعمل، ولا تسلني كيف انتقلت إلى هنا، فلقد فتحت عيناي للتو، وكنت أرتدي ملابس مدنية، لكني كنت أحمل بندقية في يدي...(ما الذي جاء بي إلى هنا؟!!!! ومتى؟!!!! ولماذا أحمل هذه البندقية؟!!!!)

ثالثاً... كنت في قاعة الاجتماعات، لكني لم أكن وحيداً، والأسوأ من هذا أنني لم أكن مع أي أحد من الزملاء، بل هناك بضعة أشخاص لا أعرفهم، يجلسون على الأرض وقد وضع كل منهم يديه خلف رأسه،

مسدداً إليّ نظرات عجيبة مزجت الخوف بالمقت بالرجاء... تماماً كما لو كانوا رهائن... (رهائن؟!!! كيف؟؟!!! ومن الذي أسرهم؟!! وأين ذهب الجميع؟؟ جميع من أعرفهم ويعملون معي في المركز منذ سنوات؟؟؟!!)..

رابعاً... كان هناك من يصيح من خارج غرفة الاجتماعات بكلمات لم أميزها أولاً، ثم ها هي تغزو أذناي كالسهام، بينما أنا أفغر فمي ذاهلاً عاجزاً عن التصديق..

"(ساااامييي)... لا داع لما تفعله... استسلم وسيكون موقفك أفضل"

ما الذي يقوله هذا الرجل؟؟!!!

أستسلم؟!!!

هل يقصد أنني... أنني... أنني من يحتجز هؤلاء الرهائن؟!!

مستحيل بالتأكيد هناك خطأ ما... لا بد أنني أحلم... المهدئ الذي حقنني به الوغد (مجدي) يجعلني أحلم... أحلم بكابوس!!

لكن أي كابوس هذا الذي تنزف فيه من جرح في ذراعك؟؟! جرح لم تصنعه إلا رصاصة؟!!

وحين استعدت القدرة – أخيراً – على التحكم في لساني، تمتمت:

- ما الذي أفعله هنا؟!!

أجابني أحد الرهائن بغل حقيقي:

- نعم.. تظاهر بالجنون... قد ينجيك هذا مما فعلته..

رددت من خلفه بذهول تام:

- الذي فعلته؟؟!!

أجابني هو بمقت لا حد له:

- ألا تعرف ما فعلته؟؟!! ادخل إلى الغرفة لترى بنفسك الذي فعلته، أيها.. أيها..

وبالطبع لم يكمل.. ما زلت أنا الذي يحمل البندقية رغم كل شيء..

وعاد الصوت من الخارج – ميّزته هذه المرة لأجده صوت زميلي في العمل (مدحت) – يهتف:

- ساااامي... أنت تعرف الإجراءات المتبعة... لن تخرج من هذا المكان إلا لو استسلمت... أكره أن أضطر إلى اتخاذ إجراء قد يؤذيك..

لكني لم أجبه... بل اتجهت مأخوذاً إلى الغرفة الملحقة بغرفة الاجتماعات لأرى ما الذي يزعم هذا الرجل أنني فعلته بالضبط..

وكتصرف منطقي كنت أسدد البندقية تجاه الرهائن طيلة الوقت، فلم أكن أريد أية مفاجآت وأنا لم أفهم موقفي بعد.. لذا تراجعت بظهري متجهاً للغرفة. حتى بلغتها لأفتح بابها بيدي الحرة... ثم استدرت ببطء لأنظر إلى الهول ذاته...

ورغم كوني رجل شرطة معتاد على رؤية العنف بكل صوره، إلا أن المشهد أمامي كان فوق قدرتي على الاحتمال، فلم أشعر بنفسي إلا وأنا أتقيأ على أرض الغرفة، ليتأوه أحد الرهائن باشمئزاز..!!

مستحيل أن أكون قد فعلت هذا... مستحيل... مستحيل..!!

تحدث ذات الرجل بسخرية مقيتة:

- هل رأيت ما فعلته أيها الوغد؟؟!

انقضضت عليه وأنا أقاوم بشدة أن أطلق النار على رأسه ليخرس نهائياً، وصرخت فيه على نحو تجمدت له عروق الجميع:

- أنا لم أفعل هذا أيها الحقير... أتفهم؟!... لم أفعله..

- أهذا ما استطعت قوله... سل الباقين وسيخبرونك من فعلها..لقد رأوك بأم أعينهم كما رأيتك أنا..

نظرت إلى باقي الرهائن، فجاوبتني نظراتهم الملتاعة بالإيجاب، لأنتفض ذاهلاً، قبل أن أتهاوى مستنداً على الجدار، وأنا أشعر برأسي يدور..

وكضرب المطارق أتاني صوت (مدحت) يهتف من الخارج:

- أمامك دقيقة واحدة وإما أن تخرج أو سندخل نحن...

استعدت في ذهني بسرعة، كل ما أعرفه عن (مدحت) وعن طباعه لأجد أنه سيدخل حقاً... (مدحت) لن تهمه كثيرا أرواح الضحايا، إذا وقفت هذه الأرواح في طريقه... وهذا يعني أن أمامي دقيقة واحدة للتحرك... لندع الفهم لما بعد، المهم الآن هو الخروج من هذا الموقف الذي لا يعني إلا سجني أو قتلي برصاصات زملائي...

سددت البندقية للجميع لأهتف بصرامة:

- لا أحب أن أتصرف بهذه الطريقة، لكني أريدكم أن تلزموا أماكنكم مهما حدث.. وإلا..

عاد ذلك الرجل من الرهائن يقول:

- وإلا فعلت معنا كما فعلت مع من هم في الغرفة ...أليس كذلك؟؟!

عظيم هذا ما أحتاج إليه تماماً...

وفقاً لما درسته... وفي أي حالة احتجاز رهائن، يكون هناك أحد الرهائن - من أمثال هذا الرجل - شديد العصبية على نحو يجعله يتصرف عكس الباقين، فبدلاً من الهلع والنحيب، يأخذ هذا الرجل في إلقاء تعليقات مخيفة أكثر مما يقوله المختطف ذاته، وهذا الرجل يساعد - دون أن يشعر - المختطف مساعدة عظيمة الفائدة...

نصيحة مجانية أخرى... لو قررت احتجاز رهائن ذات يوم، احرص على أن يكون هذا النموذج هو أحد رهائنك!!

تحركت بسرعة تليق بمحترف مثلي لأتصرف وفقاً للميزة التي أتمتع بها، وهي أنني أعرف تماماً ما سيفعلونه... ما زلت واحداً منهم... أوكنت!!

مبدئياً سيحاصرون المكان من الداخل، لكن – ونظراً لكونهم داخل مركز الشرطة – سيتجاهلون تأمين المكان من الخارج تماماً.. وهذا يعني أن المشكلة تكمن في الخروج من المركز فحسب، بعد ذلك سيغدو الهرب من المكان كله أشبه بنزهة طريفة...

أهرب إلى أين؟؟!

إلى أي مكان أستطيع فيه فهم ما يحدث بالضبط..

الآن ما أحتاج إليه هو سلك كهربي... بحثت بعيني لحظة لأجد ذلك السخان الكهربي الذي نستخدمه في إعداد المشروبات، فأخذته لأنتزع السلك منه بجذبة قوية... الآن ما أحتاج إليه هو مدخل للكهرباء والكثير جداً من الشجاعة.. ها هو القابس الكهربي خلف الأريكة..

فصلت سلكي السخان عن بعضهما البعض، ثم وضعت القابس في المدخل، وأخذت نفساً عميقاً، ثم أوصلت طرفي السلك بحركة سريعة...

تصاعد الشرر الكهربي بصورة أفزعتني وارتفع لها صراخ الرهائن، ودفعتني لإلقاء السلك، لكني ضغطت على الطرفين معاً بحذائي المطاطي، لتدوي تلك الفرقعة المكتومة... وليسود الظلام..

وبسرعة اتخذت أقرب الرهائن لي درعاً، واتجهت به للباب صارخاً:

– لا تطلقوا النار... معي أحد الرهائن..

وبركلة قوية فتحت الباب، لأجد كل من أعرفهم ومن لا أعرفهم من رجال الشرطة وقد حمل سلاحه مسدداً إلى صدري...

كان انقطاع التيار الكهربي المباغت عاملاً هاماً لإصابتهم بالارتباك، وحين أشعل أحدهم كشافه ليروا الرهينة معي، تبلبلوا أكثر وأكثر...

وعلى الفور صرخت أنا:

- ليتراجع الجميع... لا أريد أن أضطر لإيذاء أحد..

صرخ (مدحت) وقد أخفى الضوء القادم من خلفه ملامحه، فلم لأتبين مكانه بالضبط:

- كف عن الهراء يا (سامي) واستسلم.. أنت تعرف أنك لن تخرج من هنا بهذه الطريقة..

صحت فيه:

- وأنا أعرف أنك لن تطلق النار على الرهينة أمام الجميع..

- وهل تعتقد أنني سأتركك تحطم هيبة الشرطة في أحد مراكزها؟!

كنت في حالة من اللا وعي جعلتني أصرخ بجنون:

- ابتعدوا عن طريقي الآن وليخفض الكل سلاحه...

ودون أن أنتظر رد فعل أحد، سددت البندقية إلى الكشاف الذي يحمله أحدهم، وأطلقت عليه رصاصة صائبة نسفته، ودفعت بالرهينة عليهم لأتصرف آخر تصرف قد يخطر لهم ببال... عدت إلى غرفة الاجتماعات..

كنت أعتمد على ذاكرتي تماماً، وأنا أتحرك في هذا الظلام المطبق، لأتجه إلى مخرج الطوارئ ، خلف مائدة الاجتماعات، على الرغم من تأكدي أنني سأجد من ينتظرني في الأسفل. لكني كنت قد قررت أن

أستغل حالة الهرج هذه حتى النهاية ..

وما كد أبلغ الطابق السفلي حتى صحت محاولاً تغيير صوتي:

- اتجهوا للمدخل الأمامي بسرعة... (سامي) يحاول الهرب..

لم أكن أرى من أحدثه بالضبط، لكني سمعت صوت أقدام تعدو مبتعدة، فأدركت أن خدعتي قد انطلت عليهم... لا يمكنني أن أتهمهم بالغباء، فلم يحاول أحد الهرب من مركز شرطة من قبل بهذه الطريقة!!

وبخطوات أقرب إلى العدو أخذت أتحسس طريقي إلى المدخل الخلفي حيث موقف السيارات...لأجد المكان خالياً... بالطبع لم يتصور (مدحت) بغروره أنني سأبلغ هذا الحد.. لكني بلغته.. وفجأة صرخ أحدهم:

- ها هو..

لكني لم أتوقف لأرى مصدر الصوت، بل قفزت إلى سيارتي لأقودها مبتعداً بسرعة جنونية...

إلى أين؟؟!!

إلى أي مكان بعيد عن هنا... حيث يمكنني أن أفكر و- ربما - أفهم..!!

***

الخميس ٥/٢٣ - الساعة ١١.٢٣
المكان: هضبة المقطم..

كنت بحاجة لبعض الوقت لأعرف حدود الأرض التي أصبحت أقف عليها...

وكنت بحاجة إلى كل ذرة عقل تبقت لي...

في لحظة كنت ممداً على السرير في عيادة (مجدي)، ليجري علي تلك التجربة – اللعينة – عن التنويم المغناطيسي، وفي اللحظة التالية أجد نفسي وقد أصبحت قاتلاً ومحتجز رهائن ثم هارب من العدالة..

بالطبع قاتل... وما الذي تظن أنني رأيته في تلك الغرفة؟؟!!

لقد رأيت (الذي فعلته)!!!!...

حسناً... الموقف الآن هو أنني مطارد من الشرطة بعد أن كنت شرطي... ولا أعرف حتى كيف حدث هذا ولماذا.. إذاً فأول ما عليّ فعله هو معرفة ما الذي حدث في تلك الفترة بين التنويم المغناطيسي وبين وجودي في مركز الشرطة ويجب أن أفعل هذا بسرعة، فـ (مدحت) لن يسعى خلفي لمجرد تلبية نداء الواجب، بل للانتقام مني، بعد أن هربت منه بهذه الصورة المحرجة.. وهذا يعني أنه يجب أن أتحرك أسرع منه...

وهذا يعني أن نقطة البدء ستكون من هناك...

من منزل صديقي (مجدي)... فهناك أشياء عديدة يجب أن يفسرها لي!!

***

طيلة الطريق إلى منزل (مجدي) كنت أردد في ذهني... لا وقت للفزع..لا وقت لفقدان الأعصاب.. لكن هذا لم يكف لتهدئة انفعالاتي ولا الأفكار التي أخذت تثور في رأسي...

على الأرض الواقع، وحين تتعرض إلى موقف غير معتاد، فإن أول ما تفعله هو أن تتجاهل كل الحلول المبتكرة والعجيبة التي تقرأ عنها في الروايات ، وتصدم نفسك بصخرة الواقع لتبدأ في البحث عن أكثر الحلول منطقية، وإن بدت لك ساذجة أو سخيفة..

لذا سجّل هذه النصيحة أيضاً.... الحلول السخيفة هي الحلول المنطقية دوماً... ما هي الحلول السخيفة التي نملكها ها هنا؟؟!

أنني لا زلت أحلم.... أسخف من أن يكون واقع... لا يوجد حلم يمتلئ بهذا الكم من التفاصيل، وما زلت قادراً على تحسس جرح كتفي، ومازالت دمائي الجافة تغطي ملابسي...

أن الأمر كله دعابة سخيفة!!.... حسناً، لو اجتمع (مجدي) و(سامي) وكل من هم في مركز الشرطة – بالاستعانة بأحد مخرجي أفلام الرعب، لينفذ المشهد الذي رأيته في الغرفة – في تنفيذ أسخف وأغبى دعابة في التاريخ الحديث، لكان هذا مبرراً كافياً لي كي أقتلهم جميعاً... على كل حال لا توجد دعابة تطول إلى هذا الحد...

أن (مجدي) نوّمني مغناطيسياً، وتحكم بي لأفعل كل هذا دون

أشعر... لكن لماذا يفعل (مجدي) هذا؟؟!! لا تقل لي أنه خطط لهذا كله لمجرد أن يثبت أن التنويم المغناطيسي حقيقة، ليس إلى درجة أن يدفعني للقتل... الفكرة من الأساس مرفوضة، فحتى تحت تأثير التنويم المغناطيسي لا يستطيع أحد دفعي لارتكاب مثل هذه الجريمة..

إذاً...

إذاً... فالحل المنطقي / السخيف الوحيد الذي أملكه هو أن أحدهم انتحل شخصيتي ليرتكب الجريمة، قبل أن أذهب أنا إلى مركز الشرطة، وبالنسبة للفترة بين تنويمي ووجودي في المركز فلقد كنت مصاباً بفقدان ذاكرة مؤقت نتيجة تجربة مجدي الخرقاء عليّ...

نعم... هذا الحل يبدو سخيفاً بما يكفي ليكون حقيقياً... المهم الآن هو أن أثبته وبسرعة...

والوحيد الذي قد يساعدني في إثبات هذا الحل هومن أقف الآن أمام منزله...

(مجدي)...

خرجت من السيارة، وصعدت الدرج بخطوات حذرة – فلا أريد أن ألفت الأنظار – حتى بلغت شقته، وقرعت الجرس...

وبالطبع – وكما توقعت – لم يجب أحد... وبالطبع الجرس مرة ثانية وثالثة ورابعة... وانتظرت حتى تأكدت من أن انتظاري سيكون بلا جدوى..

أين ذهب هذا الأحمق في الثانية عشر ليلاً؟؟!

إنه يغلق عيادته في العاشرة مساءاً، ويعود لمنزله لينام كالأطفال ليستيقظ في التاسعة صباحاً... أأكون سيء الحظ، ليقرر (مجدي) تغيير نظام حياته في هذه الليلة بالذات؟؟

أم يكون قد تعمد هذا؟!

لن أحاول القفز إلى نتائج مسبقة الآن...

نظرت أسفل قدمي فوجدت صحيفة اليوم ملقاة أمام الباب، فالتقطها بلا اهتمام، حتى وقعت عيناي على التاريخ...

الخميس ٥/٢٣ ؟؟!

لقد كنت عند (مجدي) يوم الأربعاء ٥/١٥...أي من أسبوع كامل !!! كيف؟؟!

أسبوع كامل يمر عليّ دون أن أشعر به!

هل فقدت ذاكرتي طيلة هذه الفترة؟

ما الذي يحدث بالضبط؟؟؟!

وكيف ينتهي؟!

***

الجمعة ٥/٢٤ - الساعة ٤٢.١صباحاً

المكان: المعادي..

كان يجب أن أتجه إلى منزلي، لأقابل زوجتي علّها تخبرني بما حدث خلال الأسبوع الماضي... ربما كانت تعرف أي شيء... أي شيء يساعدني على الفهم..

ولن أدعي أنني أهيم حباً بزوجتي ، لكني كنت أشعر بقلق بالغ عليها...

ترى هل عرفت بما حدث الليلة؟؟!... مؤكد... (مدحت) سيفعلها دونما تردد...

على كل حال، ما يقلقني حقاً، هوما قد أكون فعلته خلال الأسبوع الماضي...

يجب أن أطمئن عليها... يجب...

لكن القاعدة العامة تقول أن أول مكان قد يلجأ إليه أي هارب، هو منزله، لذا فلي أن أتوقع أن أجد المكان مراقباً من قبل الزملاء، ينتظرون ظهوري ليحرزوا مجداً في القبض على مجرم خطير، وليقدموني لأيدي العدالة..

ولأن الشيء بالشيء يذكر، فلابد أنهم يراقبون هاتف منزلي، مما يفقدني مزية الاتصال بزوجتي وتجنب مخاطرة الذهاب إليها...

أعرف أنك تفكر الآن في أنني أحمق كي أخاطر بذهابي لأن الهاتف مراقب، لكن الموقف أكثر تعقيداً مما يبدو...

زوجتي لن تستمع إليّ عبر الهاتف... قبل أن يحدث ما حدث لم تكن الأمور بيننا على ما يرام، ولن أدعي أنني أثق كثيراً في رد فعلها إزاء كل ما يحدث..

يجب أن أراها بنفسي وأحدثها، ولكن كيف؟؟!

ما أريده الآن هو وسيلة لدخول منزلي دون أن يشعر بي أحد، مع الوضع في الاعتبار أن كل ما تراه في الأفلام في المواقف المشابهة هو هراء محض...

لوكان الأمر بسهولة أن أدعي أنني بائع اللبن، لما تجشمت عناء دخول كلية الشرطة منذ البداية..!!

والآن هل تستطيع أن تخبرني، كيف أدخل إلى منزلي تحت أعين الجميع، ودون أن ينتبهوا إلى هويتي؟؟!!

أنا سأخبرك...

ما ستفعله هو....

***

في جراج المبنى المجاور للمبنى الذي أعيش فيه، كنت أتحرك في الظلام بحذر بالغ رغم تأكدي أن البواب يغط في نوم عميق في الأعلى... أعتقد أن ما سأفعله لن يروق له على الإطلاق..

أخذت أبحث على ضوء كشاف أحمله معي عن سيارة تقف بعيداً عن

السيارات الأخرى، حتى عثرت على واحدة في أحد الأركان، فاتجهت إليها حاملاً دلوا لبنزين الذي كنت أحتفظ به في حقيبة سيارتي للطوارئ... لن يسامحني صاحب هذه السيارة أبداً لكني مضطر..

أغرقت السيارة بالنزين الذي أحمله ثم ابتعدت عنها نسبياً لأشعل النار بقداحتي في قطعة ورق، وانتظرت حتى أصبحت الشعلة كافية ثم ألقيت بها على السيارة، قبل أن أبتعد عن المكان بسرعة، ومن خلفي بدأ الحريق..

لو صح تصوري، ستنفجر السيارة بعد لحظات بدوي هائل، يكفي لتشغيل أجهزة إنذار السيارات الأخرى ولجذب انتباه الجميع إلى هنا.. الجميع بما فيهم (مدحت) ومن معه..

انتظرت في الخارج قرب المبنى خلف الشجيرات، حتى بدأ المهرجان... لقد فاق الأمر توقعاتي حقاً... السيارة انفجرت بدوي هائل، ثم انتشرت النيران لتجد طرقها للسيارات الأخرى، ولن يمضي وقت طويل حتى تنفجر هي الأخرى...

وكما توقعت ساد هرج ومرج وتصاعدت بضعة صرخات، من هنا وهناك وأضيئت النوافذ في المبنى الذي تحول جراجه إلى جحيم وفي المبنى الذي أعيش فيه، واندفع بضعة رجال بملابسهم المدنية، من خلف أحد الأسوار إلى الحريق، ميزت من بينهم (مدحت)...

لم أنتظر أنا لأرى ما سيحدث بل اندفعت أعدو إلى مدخل عمارتي الخلفي ومنه إلى سلم الطوارئ حتى بلغت الطابق الذي أعيش فيه ثم اقتحمت شقتي اقتحاماً، وأغلقت الباب خلفي..

أخيراً أنا في منزلي!!

كانت الأنوار مضاءة، وكنت أسمع حركة في غرفة النوم، وسمعت زوجتي تهتف من الخارج:

- من؟؟!!

أسرعت أدخل إليها قبل أن يجذب صوتها الجميع إلى هنا، ولم تكد تراني حتى شحب وجهها كأنها رأت شبحاً، ثم حدث أغرب شيء من الممكن أن يحدث...

انقلبت ملامحها بغتة لتعكس بغضاً لا حد له، وخرج صوتها تتنازع فيه نبرات الغضب بالمقت، وهي تقول:

- أنت؟؟!

كنت قد جئت إلى هنا للاطمئنان عليها في المقام الأول، ولأعرف ما الذي يحدث من حولي، لكن النبرة التي تحدثت بها شلّت تفكيري تماماً وجعلتني أقول:

- (نجوى)... ما الذي حدث؟؟

تابعت هي بصوت مختنق:

- وتجرؤ على المجيء إلى هنا ثانيةً؟؟! يا لك من صفيق!!

اندفعت دماء الغضب في عروقي، ونسيت كل ما جئت من أجله، لأهتف:

- (نجوى).. كيف تجرؤين على التحدث إليّ هكذا؟!!

- بل كيف جرؤت أنت على القدوم إلى هنا

- إذا كنت تتحدثين عمّا حدث اليوم.. فلم أكن أنا القاتل صدقيني هناك خطأ ما و..

صرخت مذهولة:

- قاتل؟!! ألم يكفك ما فعلته؟!!

شعرت بذلك الشعور الغريب حين تتحدث إلى شخص ما لتدرك أن كل منكما يتحدث عن شيء مختلف، فسألتها:

- عن ماذا تتحدثين بالظبط ؟!

استردت نبرة الغضب وهي تجيب:

- عن طلاقي أيها النذل... طلاقي بعد كل ما فعلته من أجلك!!

جاء دوري لأهتف بذهول انتفض جسدي كله له:

- أنا طلّقتك؟؟!!

- هل ستتظاهر بالعته أيها النذل؟؟ نعم طلّقتني... اختفيت طيلة الأسبوع الماضي لترسل لي ورقة طلاقي... أيها الصفيق..

حسنا... هاك أول شيء أعرفه عمّا فعلته الأسبوع الماضي... طلّقت زوجتي..!!

واصلت هي الصراخ:

- اخرج من هنا... لم يعد لك الحق في التواجد في الشقة..

قاومت الدوار الذي أصابني من فرط المفاجأة، لأقول:

- اصغ لي جيداً... ثمة شيء يصعب عليّ شرحه الآن، أنا لا أعرف أي شيء عمّا فعلته في الأسبوع الماضي... لقد فقدت ذاكرتي تقريباً في تلك الفترة، وأعدك أنني سأصحح هذا الخطأ، لكني الآن أحتاج لمساعدتك...إنهم يعتقدون أنني قتلت البعض في مركز الشرطة، ويجب أن أثبت براءتي..

قتلت البعض!!!

لقد ارتكبت مذبحة في مركز الشرطة كما يعتقدون، لكن لا يجب أن تعرف هي هذه التفاصيل..!!

صمتت هي لحظة لتستوعب ما قلته، وقد جمدت ملامحها على الدهشة وعدم التصديق..

وحين تحدثت أخيراً قالت:

- لن أسمح بوجود قاتل في منزلي..

هل جرّبت من قبل أن تكتشف المرأة التي تزوجتها لأول مرة؟!! أنا فعلت!!

بدهشة حملت لا قدراً لا بأس به من المرارة قلت:

- (نجوى)...أنت زوجتي!!

- لم أعد زوجتك أيها القاتل.. اخرج من هنا فوراً..

- لكني أحتاج إليك..

لكنها واصلت غرز السكاكين في صدري، قائلة:

- لا يهمني تفسيرك لما حدث... لقد رفضت الإنجاب مني ثم طلقتني.. والآن أنت قاتل، ولن أستغرب لو كنت أنت من حرق السيارات في جرج المبنى المجاور... والآن أنا لم أعد أريدك... أخرج من هنا، أو أتصل بزملائك ليقبضوا عليك...

هل جرّبت من قبل أن تكتشف المرأة التي تزوجتها لأول مرة؟!! أرجوك لا تفعل!!!

الآن أنا بمفردي تماماً..

الآن لم يعد لوجودي هنا مبرر...

وبكل ما تعتمل به نفسي من غضب ومرارة، قلت:

- أيا كان ما حدث لي طيلة الأسبوع الماضي... لقد أحسنت صنعاً بتطليقك... لن أندم على هذا أبداً..

واتجهت لأغادر المنزل ناسياً تماماً ما ينتظرني في الخارج، أو أنني لم أعد أهتم... لست أدري!

كل ما أذكره هو أن ما كدت أمد يدي لأفتح الباب مغادراً، حتى هوت عليه تلك الطرقات الهادرة من الخارج أعقبها صوت(مدحت) يقول:

- إفتح يا (سامي)... أنا أعرف أنك بالداخل..

***

الجمعة ٥/٢٤ - الساعة ٢.٢٢صباحاً

المكان: المعادي..

ها أنا الآن أقدم لكم بثاً مباشرا من أمام باب منزلي، حيث تقف زوجتي خلفي مذهولة، بينما (مدحت) على وشك اقتحام الباب ليلقي القبض عليّ ما لم يقتلني أولاً..

حسناً... هل يمكنك أن تخبرني كيف أتصرف، ما دمت تهوى قراءة الروايات البوليسية؟؟!

لا يوجد هنا سلم طوارئ ولن أقفز من النافذة – أنا أعيش في الطابق الخامس – ولا يمكنني أن أخرج لأطلق النار على الجميع... كيف أتصرف إذاً؟؟!!

ربما يمكنني شراء بعض الوقت لو...

لكن زوجتي – العزيزة – صرخت فجأة:

- إنه هنااا... أنقذوني منه...!!

ثم إنها نظرت لي مبتسمة بتشف... ألم أقل لك أن رفقة المجرمين أهون من رفقة زوجة ثائرة؟!!

التفت إليها لأهمس بغضب :

- لوكنت أملك الوقت لقتلتك بيدي..

وهكذا لم يعد أمامي سوى حل واحد..

التقط نفساً عميقاً، وشددت قامتي بحزم، و.. و..

وفتحت الباب..

كان (مدحت) يتخذ ذلك الوضع البوليسي الأحمق الذي تراه في الأفلام، ومن حوله ثلاثة أو أربعة من الزملاء، وقد سددوا مسدساتهم بتوتر بالغ، و هتف (مدحت) بلهجة سينمائية بحتة:

- إرفع يديك واستدر..

لوكنا في ظروف أفضل لانفجرت ضحكاً، لكني هذه المرة لم أملك إلا أن أقول بملل:

- (مدحت).. كف عن هذا الهراء.. لن أقاومك..

- قلت لك ارفع ذراعيك في الهواء واستدر..

ودعني أعرفك – لن يأخذ الأمر أكثر من لحظة – بزميلي العزيز (مدحت) وإلا أصبح بالنسبة لك مجرد (مدحت)..

أسمر.. وغد.. قصير... قبيح.. غبي.. شجاع.. لم يدخل كلية الشرطة إلا ليجد مبرراً لحمل السلاح وإشهاره في وجوه الناس بتلك الصورة السينمائية التي يتقنها، والتي جعلته دوماً موضع سخرية مني..!!

هذا هو (مدحت) بلا تقصير أو اختصار..

ولا بد أن اليوم هو أسعد يوم في حياته المهنية على الإطلاق..!

استدرت ببطء فانقض عليّ ليحيط معصميّ بالأغلال، وهو يردد:

- كنت تظن أنك ستهرب.. هه؟!

قلت رغم تأكدي أن ما سأقوله بلا جدوى:

- أنا لم أقتلهم يا (مدحت)..

- قل هذا لكل من رأوك تفعلها..

- لكنك تعرفني..

- بالطبع أعرفك.. وكنت أنتظر هذا اليوم على أحر من الجمر..

وأمام أعين الجميع – بما فيهم زملائي وزوجتي وبعض الجيران الفضوليين - أخذوني إلى الأسفل ليضعوني في سيارة (مدحت) ولينطلق الموكب كله إلى مركز الشرطة...

وعلى الرغم من أنني كنت ذاهباً لألقى أسوأ مصير ينتظرني كقاتل. إلا أنني لم أشعر إلا بالمهانة والمرارة..

لو كانوا رحيمين بي، سيقدمونني للمحاكمة، حيث سأقف أمام القاضي لأقول "معذرة يا سيدي القاضي.. لكنني لا أذكر أي شيء حدث لي في الأسبوع الماضي... نعم الكل رآني أقتل ولا أعرف كيف وبصماتي على السلاح واحتجزت رهائن وفجّرت جراج سيارات .. لكني آسف ولن افعل هذا ثانية"!!!

بالتأكيد سيضحك القاضي ملء شدقيه قبل أن يحكم عليّ بالإعدام!!

أين أنت يا (مجدي)؟؟! أين؟؟!!

أنت الأمل الوحيد الذي أملكه...

يجب أن أهرب.. يجب.. ولكن كيف؟!!

(مدحت) يجلس جواري متأهبا، والأغلال تحيط بمعصمي، وهناك سيارة شرطة أخرى تتبعنا وأخرى أمامنا..

أين الحلول البوليسية يا قارئ الروايات؟!!

هل تعرف كيف تتصرف في موقف مشابه؟؟!

حسناً أنا سأخبرك.. ما ستفعله هو..

***

الجمعة ٥/٢٤ - الساعة ٢.٤٥ صباحاً

المكان: سيارة (مدحت)..

سيارة الشرطة – وكما يعرف الجميع – ينفصل القسم الأمامي داخلها عن القعد الخلفي بحاجز زجاجي مضاد للكسر، والأبواب الخلفية غير مزودة برتاج من الداخل بحيث يصبح من المقعد الخلفي معزولاً تماماً وعاجزاً عن الخروج من السيارة...

لكن ماذا عن الزجاج الخلفي للسيارة؟؟!...

لنتخلص أولاً من الأغلال... لن أحتاج لمهارات خاصة، فأنا رجل شرطة ومدرب على التصرف في مثل هذه المواقف وهذا ما يبدو أن (مدحت) قد نسيه لفرط غروره أو لحسن حظي...

بالطبع لن أخبرك كيف تتخلص من الأغلال على هذه الصفحات، لكن يكفي أن تعرف أن الأمر استغرق مني وقتاً لا بأس به، وحذراً شديداً مع نظرات (مدحت) المتشككة التي أخذ يلسعني بها يبن الحين والآخر..

حين تخلصت من الأغلال أخيراً، التفت لـ (مدحت) لأقول:

– أنت تعرف جيداً أنني لا أقتل..

زمجر هو قائلاً:

- وأنت تعرف أن هذا لا يهمني في شيء..

- إذاً... أنت لم تترك لي الخيار..

وقبل أن يفهم ما أعنيه، كنت قد انتزعت مسدسه من حزامه، لأهوي بمقبضه على وجهه... شهق هو بعنف ثم فقد الوعي، بينما هتف السائق الذي رآنا عبر المرآة الأمامية:

- ما الذي تفعله؟!!

هتفت أنا:

- واصل القيادة وإلا أطلقت النار..

- الزجاج بيننا مضاد للرصاص وأنت تعرف هذا..

- سأطلق النار إذاً على (مدحت)... لا أظنه مضاد للرصاصات هو الآخر..

غمغم السائق بشيء لن أتبينه، فتجاهلته وأخذت أركز عيني على الطريق... من الواضح أن من في السيارتين الثانيتين لم يشعروا بما حدث..ويجب أن أستغل هذا جيداً...

أسرعت أحيط معصمي (مدحت) الفاقد الوعي بالأغلال تحسباً لأن يستيقظ بغتة، ثم قلت للسائق:

- أهرب..

- ماذا؟!!

- قلت لك اهرب... ابتعد عن السيارتين الأخريتين..

- لكنهم سيطاردونني لو فعلت..

- أعرف... لكن سأقتل (مدحت) لو أمسكوا بنا...

- لن تفعلها..

- لم لا؟؟! إنني قاتل على كل حال.. أليس كذلك؟!

تردد السائق لحظة، لكني جذبت زناد المسدس مهدداً فانحرف بالسيارة بغتة لينطلق في الاتجاه المعاكس...

وعلى الفور هتف أحد من في السيارتين عبر جهاز الإرسال:

- (هشام).. ما الذي تفعله؟؟!!

هتفت بالسائق:

- لا تجب... انطلق فحسب..

نفذ السائق ما قلته على مضض، ولم تجد السيارتين الثانيتين بداً، إلا أن تبدأ في مطاردة سيارتنا..

اطمئن.. لن أضيع الوقت في وصف المطاردة، لكني أعترف بأن قائد سيارتنا كان بارع حقاً، ومن المؤسف أنني لم أتعرف عليه في ظروف أخرى..

وحين انتهت المطاردة، وابتعدنا ما فيه الكفاية، قال السائق بغيظ:

- إلى أين سنذهب؟!!

أجبته:

- إلى أي مكان معزول... أريد أن أخرج من هنا..

- لن تتمكن من الهرب...

- هذه مشكلتي..

اتجه بي إلى أحد الأحياء السكنية الخالية قرب زهراء المعادي، فطلبت منه التوقف والخروج ليفتح لي باب السيارة... ورغم شعوري بالضيق الشديد لما سأفعله إلا أنني أحطت معصميه بالأغلال، مستغلاً (مدحت) كرهينة معي...

وقبل أن أبتعد عن المكان التفت للسائق لأقول:

- أعرف أنك لن تصدقني، لكني آسف حقاً لما فعلت... ربما جاء يوم أستطيع أن أشرح لك فيه ما يحدث..

لكن السائق لم يجبني... اكتفى بأن سدد إليّ نظرات صامتة تحمل ألف معنى، فتركته وابتعدت سيراً على الأقدام – لم يكن من الممكن أن آخذ السيارة، لكني تأكدت من إتلاف الإطارات الأربعة - دون وجهة محددة...

وهكذا عدت هارباً مرة أخرى من أيدي العدالة...

وهكذا بدأت رحلتي الطويلة...

***

السبت - ٥/٢٦ - الساعة السابعة صباحاً

المكان: شقة في المهندسين..

حين استيقظت كنت لا زلت أشعر بدوار عنيف يكتنفني، وبرغبة عارمة في العودة إلى النوم مجدداً، لكني لم أفعل... لا أملك وقتي إلى هذه الدرجة لأضيعه في النوم...

وكان ذلك الحلم الذي حلمت به ماثلاً أمامي بصورة عجيبة حقاً...

كنت أحلم أنني أسقط بسرعة مخيفة والضوء يغمرني من كل اتجاه على نحو منعني من الرؤية تماماً... تماماً كما حدث حين نوّمني (مجدي) مغناطيسياً...

ثم رأيت تلك القاعة مجدداً، وذلك الطيف لرجل ينحني على طيف رجل آخر ممدد على الأرض بلا حراك...

كأنه.. كأنه ميت!!

ثم أخذت سرعة سقوطي تتناقص وتتناقص، حتى فتحت عيني بغتة لأجد نفسي ممدداً على أرض تلك شقة صديقي (سليمان) التي اقتحمتها ليلة أمس... حمداً لله أنه مسافر!!

كان جرح ذراعي قد بدأ يلتئم – لم يكن سوى جرح سطحي – لكنني كنت أشعر بإنهاك عجيب مع كل ما حدث أمس...

أنا بحاجة إلى حمام ساخن وثياب نظيفة... وأعتقد أنهما متاحان هنا، صحيح أن ملابس (سليمان) ستبدو واسعة عليّ بعض الشيء، لكن من يبحث عن الأناقة في مثل هذه الظروف؟!

وهكذا اتجهت إلى الحمام لأتخلص من ملابسي الملوثة بالدماء ولم أخرج إلا وقد استعدت بعض حيوتي...

الخبر المؤسف أنني لم أجد أي طعام في الثلاجة، لذا يمكنني أن أؤجل هذا الموضوع – مضطراً – إلى وقت آخر..

والآن.. ما هي الخطوة القادمة؟؟.. بالطبع لن أنتظر هنا، حتى يأتي الفرج، ولكن يجب أن أتصرف بحذر بالغ فالكل يسعى خلفي الآن، ولن أستغرب لو وجدت صورتي تحتل صفحات الجرائد اليوم مع مكافأة لمن يرشد عنّي، لذا يجب البحث عن وسيلة تتيح لي حرية الحركة..

التنكر؟؟!

أعرف أنني لا أمتلك حلاً سواه، لكن كيف؟؟!!

لست رجل مخابرات مدرب على هذه الأفعال، ولا تتوقع مني أن أسير في الشارع مرتدياً ثلاث أقنعة مختلفة لا تمت لوجهي لصلة...

دعك من القصص التي تقرأها، وأخبرني بالله عليك كيف يتنكر رجل ذو وجه طويل عظام وجنتيه بارزة، برجل مستدير الوجه ذو أنف أفطس وملامح دقيقة دون أن يبدو هذا مضحكاً؟؟!

على كل حال لست مطالباً بالتنكر بملامح (رشدي أباظة) كل ما أحتاجه هو أن أتخلص من ذقني وشاربي وأرتدي منظار أسود، وأصبغ شعري باللون الأشقر، وسأبدو كسائح أجنبي، خاصةً وأنني ورثت الملامح الأجنبية من جدتي اليونانية..

وبالطبع يفضل أن أبتعد عن العامة وألا أتعمل مع أحدهم بصورة مباشرة إلا للضرورة القصوى..

عظيم... خطوتي التالية إذا هي الذهاب إلى عيادة (مجدي).. ذلك الرجل مدين لي ببعض التفسيرات.. وربما بخلاصي من الموقف الذي أنا فيه الآن...

كنت أفكر في هذا كله حين سمعت طرقاً قوياً على الباب وصوتاً أجش يهتف:

- إفتح... أعرف أنك بالداخل..

!!!!!!!!!!!

***

لم يكن أمامي خيار آخر...

نظرت عبر عدسة الباب فرأيت رجلاً بديناً يلهث من صعود السلم، وتبدو على ملامحه إمارات البلاهة كأوضح ما يكون..

أسرعت لأحضر المنشفة لألفها حول رأسي بحيث تخفي وجهي نوعاً ما، ثم فتحت الباب متظاهراً بالنعاس، لينظر لي ذلك الرجل الأبله ببلاهة، قبل أن يقول:

- عذراً... لكن أليست هذه شقة الأستاذ (سليمان حربي)؟؟!

أجبته بلا تردد:

- نعم.. لكنه مسافر وأنا قريبه، واستعرت منه الشقة لحين عودته..

هزّ الأبله رأسه متفهماً وقال:

- عذراً.. لكني رأيت حركة عبر النافذة فظننته هو... أنا جاره في المبنى المقابل (علوي).. أرجو ألا أكون قد أزعجتك..

- لا عليك..

وبالطبع لم أطلب منه الدخول، فوقف متردداً لحظة قبل أن يقول:

- حسناً... سأنصرف الآن وأرجو أن تبلغه سلامي لو اتصلت به..

- بالتأكيد سأفعل..

وقبل أن يقول المزيد كنت قد أغلقت الباب في وجهه، بقلة تهذيب لا تنكر... لم أكن مخيراً في هذا..!

إنذار كاذب كما يقولون ... لكني كنت أشعر كفريسة كانت على وشك السقوط في الشرك...

يا إلهي... متى ينتهي هذا كله؟؟!!

متى؟؟!!

***

السبت - ٥/٢٦ - الساعة التاسعة صباحاً

عيادة الدكتور (مجدي)..

استغرق الأمر مني ساعتين حتى أحلق ذقني وأصبغ شعري وأبدل ثيابي، قبل أن أقفز في أول سيارة أجرة قابلتها، لأتجه إلى عيادة (مجدي) في (مدينة نصر)..

كانت الساعة التاسعة صباحاً، ولم أكن أتوقع أن أجده في العيادة، لكني كنت أنوي انتظاره في الداخل... كما تعرف، الأبواب المغلقة لا تشكل عائقاً حقيقياً أمام أي شرطي، ثم إننا في مدينة نصر، حيث لا يمكنك أن تتوقع جيراناً متطفلين، فالقاعدة العامة هنا هي "لا شيء يحدث في الخارج طالما لا يحدث لي"... لهذا أمقت هذه الأحياء كالجحيم!!

صعدت الدرج إلى الطابق الثالث حيث عيادة (مجدي)، ووقفت لحظة لأتأكد من أنه لا يوجد أحد في الجوار، ثم عالجت القفل بسهولة لأجد نفسي داخل العيادة...

حيث بدأ كل شيء...

ها هو المكتب والأوراق المبعثرة على سطحه كما رأيته آخر مرة.. وها هو الفراش حيث كنت أتمدد جوار (علي) و...

بالمناسبة، أين (علي)؟؟!!

انتبهت في هذه اللحظة فقط أنني نسيت (علي) تماماً وأنه خاض ذات التجربة معي...

ترى أين هو الآن؟؟!!

والأهم... ما الذي قد يكون فعله؟؟!!!

سأترك هذه النقطة الآن على أن أعود إليها قريباً...

والآن ها هوا لكمبيوتر الذي شغّله (مجدي) لتنويمنا مغناطيسياً... وها هو الشعور بالحنق الممتزج بالمرارة لأنني رفضت أن أتعلم استخدام الكمبيوتر حين نصحني الجميع بذلك..

قد تحمل هذه العلبة المعدنية إجابات جميع أسئلتي بينما أنا عاجز عن مجرد تشغيلها...

وكالعادة ليس أمامي سوى الانتظار... انتظار أرجو ألا يطول..

أخذت أتجول في الغرفة من حولي، باحثاً عن لا شيء، محاولاً إضاعة الوقت حتى يأتي (مجدي) من المكان الذي اختفى فيه ليلة أمس..

وبالطبع لم أجد سوى زوجتي وما فعلته كوسيلة للانشغال حتى يأتي (مجدي)... أعتقد أنني في الظروف المثالية لأصاب بالرثاء على النفس..

لم تكن صدمتي في زوجتي صدمة عاطفية بقدر ما هي طعنة في رجولتي... نحن لم نتزوج بعد قصة حب ملتهبة إذا كان هذا ما ظننته. لكنه زواج (صالونات) كما يقولون، التزام متبادل مع وعود بنوع من العاطفة التي ستولد في وقت ما، نسميها نحن (العشرة) لا الحب...

صحيح أن ما فعلته يحمل جزءَ من المنطق، فلقد اختفيت أسبوع لتصلها ورقة طلاقها... ما الذي كنت أنتظره منها على كل حال؟!!

كنت ممدداً على الفراش أستعيد بعض الذكريات المضطربة، لمجرد إضاعة الوقت حتى شعرت بحركة خلفي، لأعتدل بسرعة لأواجه ذلك الشخص، متأهباً للأسوأ...

وكانت هذه هي أول مرة أرى فيها (مايا)...

***

لو أنصفنا لخصصنا باقي صفحات هذا الكتيب لوصف كل تفصيله صغيرة في (مايا)...

وقبل أن يبتسم أحد الخبثاء في سره ليقول "إذاً هذه هي قصة الحب المنتظرة" أقول... استمعوا إلى وصفها أولاً...

نحيفة هي (مايا) ذلك النحف الذي لا يحصل عليه سوى الأغنياء أومن يتضورون جوعاً... نحيفة إلى درجة بروز عظامها... نحيفة إلى درجة الهشاشة!

كانت ذات ملامح أنثوية هادئة، لا تحمل إثارة من أي نوع، حتى مع المكياج الذي لطخت به ملامحها دون تمييز، وكانت الهالات السوداء حول عينيها، تنبئ عن ليال طويلة من الأرق، وفوق رأسها الصغير شعر أسود قصير ، مما جعلها أشبه بدمية منها إلى آدمية...

كانت ترتدي ملابس لا تخلو من الأناقة لكنها تخلو تماماً من العناية مما أكد لي نظرية ليال الأرق هذه... من المؤكد أنها عانت من الأرق طويلاً حتى اختل توازنها العقلي، لتخرج من منزلها بهذه الصورة..

وكانت تدخن..!!

حين التفت إليها أطلقت حلقات الدخان من فمها مع السؤال المتوقع:

- من أنت؟!

اتخذت على الفور شخصية رجل الشرطة اليقظ، لأرد على سؤالها بسؤال:

- بل من أنت وكيف دخلت إلى هنا؟؟؟

منحتني الإجابة مغلفة بدخان سيجارتها:

- أنا ممرضة وأعمل هنا... والدكتور (مجدي) منحني نسخة من المفتاح لأدخل في غيابه.. ماذا عنك؟؟

أجبت:

- أنا صديقه..

- وكيف دخلت إلى هنا؟!

- أنا أيضاً أحمل نسخة من المفتاح..

نظرت إلي نظرة عميقة بعينيها الرماديتين، شعرت معها وكأنني أنظر إلى المجهول ذاته... أستطيع أن أقضي نصف عمري أحدق في هاتين العيني دون أشعر بالملل...

ثم إنها قالت أخيراً:

- أنت تكذب..

شعرت بدهشة ممتزجة بالحنق الموروث من العزة بالإثم، فهتفت:

- كيف تجرؤين؟؟!

هزت كتفيها ببساطة، وقالت:

- إنني أعمل مع دكتور نفسي منذ سنوات، ولا تريدني أن أميّز من يكذب حين أراه؟!! لا بد أنك تمزح!

قلت منتبهاً:

- تعملين عنده منذ سنوات؟؟!.. لكني لم أرك هنا من قبل!!

أجابت ببرود:

- إنني أعمل في الدوام الصباحي، وأنت لم تأت إلى هنا من قبل في الصباح... هذا لوكنت صديقه حقاً..

- وما الذي تعتقدينه إذن أيتها الخبيرة النفسية؟؟!

قلتها بالسخرية الكافية لمداراة توتري، فألقت بقنبلتها في وجهي:

- أنت هارب..

انتفضت مذهولاً كأبلغ ما يكون الاعتراف، وهتفت:

- ماذا تقولين؟!!

ألقت بجسدها على المقعد المواجه لي، كأننا صديقين حميمين يتبادلان الذكريات، وقالت:

- لا بأس... فأنا أيضاً هاربة..

هتفت ودهشتي تتعاظم:

- هاربة من ماذا؟؟!

- ليس قبل أن تخبرني أنت أولاً..

عدت أغرق بلا أمل في العودة في عينيها الرماديتين، ثم انتزعت نفسي منهما بصعوبة لأقول:

- كفى سخفاً... متى سيأتي الدكتور (مجدي)؟؟

ابتسمت مدركة محاولتي الناجحة لتغيير الموضوع، وأجابت:

- إنه لن يأتي..

- ماذا؟؟

دائماً ما أكره دور الأبله الذي لا يردد سوى كلمة (ماذا؟) لكن هذه الامرأة لا تكف عن إلقاء الألغاز والمفاجآت في وجهي، كأنها عرّافة في سيرك الأحداث التي تحدث لي..

أطفأت هي سيجارتها لتشعل أخرى، مجيبة:

- إنه لن يأتي... لقد سافر... هذا ما يفعله دوماً بعد أن ينفذ تجربته.. فوووم... يختفي...

- أي تجربة؟؟!

- التنويم المغناطيسي... ألم يجربها معك؟!!

- ما الذي تعرفينه عن هذه التجربة؟!!

قطبت (مايا) حاجبيها بضيق، وقالت:

- أنا أخبرك بما تريده طيلة الوقت... لماذا لا تخبرني أنت

صرخت منفعلاً:

- لا وقت لهذا العبث أجيبني، ما الذي تعرفينه عن هذه التجربة..

منحتني (مايا) نظرة طويلة متفحصة، ثم لم تلبث عيناها أن التمعت ببريق ظافر، قبل أن تقول:

- إنه أنت... أنت ذلك الرجل الذي ارتكب المذبحة في مركز الشرطة ليلة أمس... إنهم يعرضون صورتك في التلفاز طيلة الوقت..

نصيحة مجانية... أياً كانت جودة تنكرك، لا تجعل أحدهم يحدق في وجهك طويلاً..

لم يعد هناك مجال للإنكار... لذا قلت:

- نعم أنا هو... وأريد أن أفهم ما الذي يحدث حولي بالضبط...

استغرقت (مايا) في التدخين برهة، ثم تحدثت أخيراً لتقول:

- سأساعدك بشرط واحد..

- أي شرط؟!

- أنت تساعدني أنا أيضاً أن أعرف..

- تعرف ماذا؟؟!

- الذي فعلته أنا أيضاً... لقد خضعت للتجربة أنا الأخرى..

***

السبت - ٥/٢٦ - الساعة ١.٢٢ ظهراً

أحد المطاعم في (مدينة نصر)..

دعني أحدثك مجدداً عن (مايا)... في الواقع لولا أن هذه قصة ما حدث لي أنا، لإستغرقت باقي الصفحات في الحديث عن (مايا) محاولاً أن أنقل لك صورة ذلك المخلوق الذي أجلس معه الآن في المطعم، أشاهده يلتهم الطعام بشهية من لم يأكل من سنوات... لا بد أن هذا هو سبب نحافتها ... عدم الانتظام في تناول الطعام..

أوهي المخدرات!!!

لم لا؟!... أمامي الآن نموذج مثالي لمدمني المخدرات بتلك الهالات السوداء حول عينيها، ولو كنت أملك وقتي لسعيت إلى إثبات هذا، لكن في ظروفي هذه، فلتكن ما تكون.. المهم هو أن أفهم...

انتظرتها حتى أنهت كل ما يصلح للأكل أمامها ثم قلت:

- والآن؟!!

أجابتني بفم يمضغ آخر ما تبقى من الطعام:

- والآن أريد بعض القهوة وعلبة سجائر، فسجائري أوشكت أن تنفذ..

قلت بغيظ لم أستطع إخفاءه:

- أرجو أن يتوقف الأمر عند هذا الحد، أو سأجدني أقضي معك إجازة ترفيهية في أوروبا قبل أن تتمكني من الكلام..

بجرأة لا حد لها أجابت:

- ظريف!!

ثم أنها تجشأت بلا خجل، وأشعلت سيجارة لتغمرني بالدخان، قبل أن تقول:

- والآن اصغ لي جيداً، فأنا أكره أن أكرر ما أقوله... لا تقاطعني مهما كان السبب واحتفظ بأسئلتك في عقلك حتى أنتهي... هل هذا مفهوم؟؟!

هززت رأسي إيجاباً، فأطلقت هي دفعة أخرى من الدخان في وجهي ثم بدأت تحكي:

- بدأت العمل مع الدكتور (مجدي) منذ سنتين... لم تكن لي خبرة في التمريض ولم يطلب هو واحدة ذات خبرة، كل ما كان يطلبه هو الالتزام بمواعيد العيادة، وكل ما كنت أطلبه أنا هو المال، وهكذا كانت الصفقة عادلة... والتزم كلانا بهذه الصفقة لفترة طويلة حتى جاء ذلك اليوم الذي قرر فيه أن يشركني في تجاربه...

وصلت القهوة في تلك اللحظة فتوقفت عن السرد لحظة لترشف من قدحها، ثم تابعت:

- بالطبع حاول أن يقتعني بأهمية تلك التجارب، والفائدة التي ستعود على الطب النفسي من نتائجها، إلى آخر هذا الهراء، لكني أوضحت له أنني سأوافق إن عرض عليّ المبلغ المناسب، فلم يتردد في أن يمنحني ما أريده.. بل ربما أكثر مما أحتاجه مما أثار قلقي في البداية،

لكن حين بدأ تجاربه أدركت بأنه مخبول يملك نقوداً يحب إضاعتها على تجارب بلا طائل... أو هذا ما ظننته في البداية!!... لم أكن لأفهم فائدة تلك الأقطاب التي يوصلها برأسي، أو التمارين العجيبة التي كنا نمارسها سوياً، ولم أكن أهتم لأفهم... إنه محافظ في تعاملاته وملتزم في الأمور المالية، فلم أجد غضاضة في المواصلة، حتى قرر هو أن يجرب معي التنويم المغناطيسي..

شردت عيناها الرماديتين طويلاً تسترجعان ذكرى ذلك اليوم، فانتظرت حتى تنهدت لتقول:

- حين طلب مني هذا الطلب شعرت بقلق غامض لست أدري له سببا... وحين ضاعف لي المبغ الذي يمنحني إياه مقابل تجاربه، تضاعف قلقي، لكني لم أرفض... حين تقضي نصف عمرك تبحث عن أرض جافة لتنام عليها دون أن تضطر أن تقدم تضحيات خاصة، ستدرك أنك لا تملك أحقية القبول والرفض إلا في بضعة أشياء... أنت تفهمني، أليس كذلك؟!!

بالطبع كنت أفهمها وأنا الذي عملت ساعياً في فترة من الفترات لأتم دراستي... لكني هززت رأسي إيجاباً دون أن أخبرها هذا، فواصلت:

- كل ما طلبه مني هو الاسترخاء على الفراش، والتحديق في شاشة الكمبيوتر... فقط.. وهذا ما فعلته بالضبط... أنت مررت بالتجربة وتذكر ما حدث... السقوط.... الضوء الذي يغمرك من كل صوب... ثم الاستيقاظ في مكان وزمن آخر لتكتشف أن هناك شيء ما (فعلته)... شيء لا تعرف كيف ومتى فعلته... والأسوأ من هذا كله أنك لا تعرف هذا الشيء...

حدقت فيها بذهول حمل كل تساؤلاتي، فابتسمت بمرارة قائلة:

- نعم... أنا لا أعرف ما الذي فعلته بالضبط... لقد استيقظت في منزلي لأجدني أرتدي ملابس غريبة... ملابس لا أحلم بابتياعها في هذه الحياة، والأسوأ من هذا كله أنني عثرت في ملابسي على هذا الكارت...

وأخرجت من حقيبتها كارت أسود شديد اللمعان ناولتني إياه فأخذت أتفحصه بدهشة بالغة...

فالكارت لم يكن يحمل أي شيء على سطحيه!!..

لا أسماء... لا رسوم... لا نقوش... لا شيء على الإطلاق!!

أخذت أتحسس ملمسه العجيب، وقلت:

- ما هذا؟!!

أجابتني ساخرة:

- لوكنت أعرف لما كنا نجلس هنا الآن..

أعدت إليها الكارت، فقالت:

- حسناً... إنه وقت الأسئلة...

أخذت أشحذ ذهني لأحدد أسئلتي، وجاء سؤالي الأول ليكون:

- لماذا لم تسألي الدكتور (مجدي) عمّا حدث؟؟!

- لأنه اختفى تماماً بعدها..

- لكنك تحملين مفتاح العيادة وتدخلين في أي وقت... لا بد أنك قابلتيه صدفة بعد ما حدث..

- لم يكن ليخبرني بما حدث... لذا فضّلت أن أتجسس عليه دون أن يعلم..

- وهل وصلت إلى شيء بهذا التجسس؟؟!

- لا شيء عن التجربة... لست خبيرة في الطب النفسي أو الكمبيوتر،

ولكني قرأت مرة عن التنويم المغناطيسي وعرفت شيئاً... أنه لا يمكن لأحدهم أن يدفعك تحت تأثير التنويم المغناطيسي لفعل شيء ترفض أن تفعله وأنت مستيقظ، ويبدو أن الدكتور (مجدي) حطم هذه النظرية تماماً... المهم.... لقد حاولت على الأقل أن أعرف ما حدث لي، إذ أن الدكتور يدوّن كل ما يفعله في وريقات صغيرة، ثم ينسخها في دفتر خاص يحمله معه دوماً، وفي إحدى المرات التي فتشت فيها العيادة في غيابه، عثرت على وريقة تحمل اسمي واسم (مراد البحيري)..

هتفت بدهشة:

- (مراد البحيري)... الوزيـ..

قاطعتني (مايا):

- ربما كان هو أو أي (مراد بحيري) آخر... الذي يهمني الآن هو من هو هذا الرجل وما الذي فعلته ليربط اسمي باسمه..

أجبتها:

- وكيف تتوقعين مني أن أساعدك وأنا مطارد من قبل الجميع؟؟!

أشعلت (مايا) سيجارتها الخامسة أو العاشرة.. لا أذكر، ثم قالت:

- بإمكانك أن تحاول البحث عن الدكتور (مجدي) بلا أمل وبتنكرك البائس هذا، حتى يلقوا القبض عليك، أو أن تساعدني لأفهم ما هي علاقتي بـ (مراد البحيري)، وبالتالي علاقته بالدكتور (مجدي) وبالتالي أين هو، وما علاقتك بهذا كله... الخيار لك على كل حال..

هذه الوغدة أجادت إلقاء الكرة في ملعبي !!

المشكلة أن كلامها يبدو منطقياً وخطيراً...!!

ماذا لو كانت هناك علاقة بما فعلته أنا بالذي فعلته هي مع ذلك الـ (مراد البحيري)؟؟!

ماذا لو كان هناك آخرون... (علي) مثلاً؟؟؟!!

ترى أي لعبة تلك التي يدير خيوطها (مجدي) من خلف الستار؟؟

ولصالح من؟؟!!

وأين هو الآن؟!!

لماذا فعل بي هذا وأنا صديقه؟!!!

خرج جوابي أخيراً، ليبث الحيوية في العينين الرماديتين أمامي:

- لنتحرك بسرعة إذن..

ولست أدري هل كان هذا امتناناً الذي سمعته في صوت (مايا) إذ قالت:

- أشكرك..

***

السبت - ٥/٢٦

الساعة ٣.٤٢ عصراً - منزل (مايا)..

أكره أن أكون بهذه السخافة، لكن لا بد لنا أن نتوقف مرة أخرى لنصف منزل (مايا)...

أو فلنقل ذلك الجحر الذي تسكن فيه...

غرفة صغيرة تحت الأرض، لا تعرف للهواء أو الضوء مدخلاً سوى تلك النافذة الصغير في الأعلى. ولا تحمل أي لمسة أنثوية تذكر، بل تكاد تبدو مهجورة مع الكم الهائل من الأتربة التي تغطي كل شيء، حتى الأريكة التي يبدو أنها تقوم بوظيفة الفراش في هذا المكان البائس...

المثير للسخرية حقاً ذلك الأصيص من الورود الذابلة التي تعلن عن محاولة خرقاء لإضافة بعض البهجة على ذلك المكان الشبيه بالقبر...

لقد عانيت من الفقر في صغري، لكن ما أراه هنا الآن هو الإهمال مجسماً في كل قطعة أثاث ملقاة في هذه المساحة الضيقة!!

وكانت أعقاب السجائر في كل مكان، لتمتزج رائحة الرطوبة برائحة الرماد، فلم أملك نفسي من أن أقول:

- اسمحي لي... لكن، كيف تحتملين العيش هنا؟!!

أجابتني ساخرة:

- حاولت الحصول على غرفة في الشيراتون، لكن جميع الغرف محجوزة هذه الفترة.. آسفة

أجبت:

- لم أعرف امرأة من قبل تطيق العيش في مثل هذه الفوضى..

قالت بحزم لا مبرر له:

- إن كنت تتوقع أنني سأرتب لك هذا المكان، أو أن أعد لك طعام العشاء كل ليلة، فاسمح لي أن أحطم أحلامك هذه... أنت هنا للاختباء مؤقتاً، لا للحصول على زوجة بديلة..

- إذاً فأنا أفضل النوم في الزنزانة..

ثم تنبهت إلى نقطة هامة، فقلت:

- ثم كيف ستحتوينا هذه الغرفة نحن الإثنين؟؟!... أعني... أعتقد..

منحتني نظرة قاتلة، مجيبة:

- أتظن أننا سنعيش سوياً هنا؟؟... أنت ستقيم هنا... أنا سأقضي الليل في عيادة الدكتور (مجدي) كما اعتدت أن أفعل.. وبالمناسبة، هذه القصة لن تنتهي إلا بموتنا أو بانتهاء المشكلة... لا مجال للقصص الرومانسية أو النهايات الخرقاء بأن نتزوج أن نقع في غرام بعضنا البعض... هل هذا مفهوم؟!!

كدت أصارحها برأيي عن فرص أن نقع بغرام بعضنا البعض وكيف أنها ذات فرص أن تعلن إسرائيل عن أسفها العميق لما حدث قبل أن تقرر مغادرة فلسطين بلا رجعة، لكني - وبدلاً من هذا - قلت:

- أعتقد أن أول ما علينا فعله هو التحقق من شخصية (مراد البحيري) ..

- هل تشك في أنه الوزير السابق؟؟!

أجبتها مفكراً:

- لا يمكنني الجزم بشيء... إننا غارقين في الحيرة تماماً... أعتقد أن السؤال لحقيقي هو هدف (مجدي) من هذا كله..

بالطبع أشعلت (مايا) سيجارة أخرى كأنها تحارب من أجل حقها الطبيعي للإصابة بالسرطان، قبل أن تقول:

- أعتقد أنه أنت من يستطيع إجابة هذا السؤال..

- كيف؟؟!

- لا بد أن ما يحدث له علاقة بمن قتلتهم في مركز الشرطة...ألم تعرف من هم؟؟!

ومضت صورة الجثث المكوّمة الغارقة في الدماء في رأسي، فداهمني ذلك الشعور بالرغبة في التقيؤ مجدداً، إلا أنني تماسكت محاولاً تذكر أي شيء...

ما تقوله (مايا) منطقي تماماً...

بالتأكيد هناك علاقة بين من قتلتهم – لو كنت أنا من فعلها حقاً، فما زال لدي أمل أنه ليس أنا!! – وبين ما يحدث الآن...

وهذا يعني – وببساطة – أن (مجدي) يتبع مخططاً خاصاً لا يعرف أحد تفاصيله سواه، وهذا هو آخر ما يمكن أن أتوقعه من آلة تنفيذ القوانين (مجدي)...

هل جربت أن تكتشف أصدقاءك لأول مرة؟؟!... من الأفضل ألا تفعل!!!

استغرقت في التفكير، فاستغرقت (مايا) في التدخين، ثم جاء صوتي أخيراً مختنقاً من كثرة الدخان:

- يجب ألا نضيع لوقت في التفكير... سنتحرك بضع حركات عشوائية في الأول، حتى نتعرف على حدود الأرض التي نقف عليها... ولتوفير الوقت سيتحرك كل منا في اتجاه..أنت ستذهبين إلى منزل الوزير السابق (مراد البحيري)، وستطلبين مقابلته لتعرضي عليه ذلك الكارت الأسود، ولو كان هو صاحب الاسم في الورقة سنعرف... على الأقل سنستبعده لولم يكن هو... أما أنا سأسعى لمعرفة من قتلتهم في مركز الشرطة، المهم أن نتقابل هنا مجدداً السابعة مساءاً وأياً كانت الأسباب...

أطرقت (مايا) برهة لتفكر فيما قلته، ثم قالت أخيراً:

- لكني قد أعرض نفسي للمخاطرة بالذهاب إلى منزل (مراد البحيري) لوكان هو المقصود..

أجبتها:

- لا أعتقد هذا.. لو أرادوا بك السوء، لتخلصوا منك منذ زمن... كما أنه لن يحاول إيذائك في منزله... المهم أن تتمالكين نفسك وألا تخبريه عن شيء..

مطت شفتيها، وبدا من الواضح أن منطقي لم يقنعها، إلا أنها قالت في النهاية:

- حسناً... المهم ألا يلقوا القبض عليك أنت.. فما زلت بحاجة لمساعدتك..

بالطبع لم أشغل بالي بالتفكير بالطريقة التي تظن بها هذه المرأة أنني قادر بها على مساعدتها... الواقع أنني من يحتاج لمساعدتها الآن..

حملت حقيبتها فجأة، لتقول:

- حسناً... سأذهب الآن..

تذكرت شيئاً ما فجأة. فاستوقفتها هاتفاً:

- (مايا)... هل تزورك أحلام غريبة بعد التجربة؟!!

هاجت عواصف وماجت بحور في العينين الرماديتين، إلا أن صوتها خرج لا مبالياً كعادته:

- نعم... حاول أن تعتادها...

ودون أن تضيف غادرت المكان...

***

السبت - ٥/٢٦ - الساعة ٥.١٢ عصراً

آخر مكان من المفترض أن أذهب إليه!!!..

حدثتك كثيراً عن (مايا)، لذا لن يضيرك أن نتحدث قليلاً عن (مدحت)...

كنا قد اتفقنا منذ بضع صفحات على أنه (أسمر.. وغد.. قصير... قبيح.. غبي.. شجاع.. لم يدخل كلية الشرطة إلا ليجد مبرراً لحمل السلاح وإشهاره في أوجه الناس بتلك الصورة السينمائية التي يتقنها، والتي جعلته دوماً موضع سخرية مني..!!)...إلا أنه يتمتع بعيب آخر هام، وهو أنه نمطي إلى أقصى حد...

يستيقظ كل صباح في تمام الثامنة، ليبدأ في تصفح الجرائد، على أمل أن يرى صورته في الصفحة الأولى ذات يوم، ثم يتناول إفطاراً خفيفاً ليذهب إلى المركز، حيث يمكنه ممارسة هوايته في ركل مؤخرات الأوغاد، ليعود إلى منزله في الثالثة ليتناول غذاءه، ثم يسلم نفسه لنوم القيلولة، ليستيقظ ليعود للعمل.. للمنزل... للنوم... ليوم جديد يحمل ذات الرتابة..

لا عجب إذن أنه لم يتزوج... فمن هذه التي سترضى بآلة الروتين هذه؟؟!!

لماذا ذهبت إلى منزله إذن، رغم يقيني أنه لن يهدأ له بال حتى يلقي القبض عليّ؟؟!... ببساطة لأنه الوحيد الذي يمكنه أن يمدني بالمعلومات التي أحتاجها، حتى لو لم أحصل عليها بالطرق التقليدية..

لا أعني أنني سأستخدم معه نزع الأظافر، لكن التهديد النفسي أكثر فاعلية مع من هم مثل (مدحت)...

بلغت منزله بسيارة أجرة، ثم صعدت بثقة معتمداً على تنكري البائس كما تسميه (مايا)، ثم عالجت قفل شقته لأدخلها وهو أمر لا يحتاج لمهارات خاصة لا تتوافر لرجل شرطة مثلي... وهي تفاصيل سخيفة كما ترى لكن البعض يصر على معرفتها!!

المهم أنني أقف الآن أمام فراشه، أنصت إلى شخيره، مسدداً إليه مسدسي، لألتقط نفساً عميقاً، ثم...

"(مدحت)... هيا استيقظ... هيا لست والدتك"

تململ (مدحت) في فراشه، فهززته بيدي الحرة، ليفتح عينين ناعستين، أخذ يرمقني بهما بلا فهم، ثم لم يلبث أن اعتدل فجأة، ليطالعني بعينين محمرتين وشعر أشعث ونظرة بلهاء.... من حسن حظ النساء حقاً، أن إحداهن لم تتزوجه!!

وكان أول ما قاله:

- أنت... كيف؟؟!... أين؟!... ما؟!...

ثم لم يلبث أن استجمع أفكاره ليصرخ بمزيج من الدهشة والغضب:

- كيف دخلت إلى هنا؟؟!!

أجتبه ببساطة وأنا أجلس على الأريكة المجاورة لفراشه، مسدداً مسدسي لوجهه كإنذار صريح:

- تسللت بالطبع... وتكفل صوت شخيرك بالتغطية عليّ..

جاء سؤاله الثاني:

- ما الذي تفعله هنا؟؟!!

أجبته بصرامة لا تحتمل النقاش:

- جئت للحصول على بعض المعلومات...

هتف بوطنية لا مبرر لها:

- لن أنطق بحرف قد يهدد أمن مصر و..

قاطعته بملل:

- كف عن هذا السخف... لسنا في أحد أفلام المخابرات، كل ما أريد معرفته هو من الذين قتلتهم في المركز تلك الليلة؟؟

عاد يكرر بإصرار:

- لن أنطق بحرف... أنا أعرف أنك لن تطلق النار عليّ..

ثم انتبه إلى مغزى سؤالي، ليهتف:

- مهلاً... ألا تعرف من الذين قتلتهم في المركز؟؟!! أي سخف هذا؟؟!!

أجبته بنفاذ صبر:

- لو كنت أشك في وجود ذرة عقل لديك، لشرحت لك... لكن الأمر يفوق قدرتك على الفهم بمراحل... دعك بالطبع من رغبتك الدفينة للتخلص مني..

همهم بشيء ما لم أتبينه، فعدت أكرر سؤالي ملوحاً بالمسدس في وجهه:

- والآن... من هم الذين قتلتهم في مركز الشرطة؟؟ وما الذي حدث بالضبط في تلك الليلة؟؟

عقد (مدحت) ساعديه أمام صدره كالأطفال ليقول:

- لن تحصل مني على شيء... اقتلني لو أردت..

ابتسمت في جذل حقيقي، يكفي ليبث الرعب في قلبه، وقلت:

- من تحدث عن القتل؟؟... بإمكاني أن أطلق النار على ركبتيك لتمضي ما تبقى لك من حياتك الغبية مقعداً... أنت تفهمني أليس كذلك؟؟.. لن تكون هناك مطاردات ولا بطولات ولا شيء من هذا القبيل.. مجرد أيام بائسة تحدق فيها في وسام التقدير الذي سيمنحونك إياه قبل عزلك من عملك... ستكون بطولتك الوحيدة هي اعتياد الكرسي المتحرك..

لاح الهلع على وجهه، إلا أنه قرر أن يجرب حظه، فقال:

- إنك لن تفعلها... لن تجرؤ...

هززت رأسي بأسف مصطنع ثم قلت بصرامة:

- امنحني ظهرك لو سمحت...

صرخ:

- لماذا؟؟!!

- لن تحب مشهد ركبتيك المنسوفتين، لذا سأطلق النار عليك من الخلف.. هيا استدر.. لن أقضي يومي هنا..

ارتجف (مدحت) بحق، لينهار ذلك الغلاف الهش الذي يحيط به نفسه وليبدو على حقيقته تماماً... أعترف أنني لم أحب هذا المشهد ولا هذه السادية التي استخدمتها معه.. لكنها الضرورة..

وحين تحدث مجدداً، كان سيل المعلومات المنهمر من فمه يحتاج لجهاز تسجيل، لكني حاولت الاحتفاظ في ذاكرتي بالشق المهم...

كان يقول:

- لقد دخلت المركز تلك الليلة وأنت تقتاد أمامك الصحفي (باهر حسين) وزوجته وطفليه... لم يعترض أحد طريقك وأنت تسدد بندقية آلية إلى رؤوسهم.. حاولنا إيقافك بالحديث لكنك لم تصغ إلى أحد... بل لم يبدو أنك تسمع أساساً... اقتدهم إلى غرفة الاجتماعات ومنعت أحد من الدخول، ومنعت من كانوا في الداخل من الخروج.. لقد كنت تتصرف بجنون تام.. تماماً كما كنت أتوقع منك... وحين سمعنا صوت الطلقات وصراخ من كانوا معك أدركنا أنك فعلتها... لقد قتلت الصحفي وزوجته وطفليه بلا رحمة... لقد كانت مذبحة حقيقية حتى أن الطبيب الشرعي لم يستطع تمييز ملامح الـ..

قاطعته صارخاً بغثيان كدت أفرغ معه ما في معدتي في وجهه:

- كفى.... كفى...

مستحيل... مستحيل... مستحيل...

إذاً فأنا الذي فعلتها حقاً!!!

أنا قاتل... قاتل لا يعرف الرحمة..!!!

أنا... قتلت... طفلين... يا إلهي!!... أرجوك يا إلهي أمتني الآن، لم تعد لي رغبة في الحياة!!!

كنت مصدوماً... مصعوقاً.... مقتولاً بسكين غرزها (مدحت) بكلماته..

ما الفائدة إذن؟؟؟!!!

حتى لو استطعت أن أفهم ما الذي حدث بالضبط سأظل قاتلاً...

حتى لو أثبت براءتي... حتى لو تفهم الكل حقيقة ما يحدث وحدث وسيحدث... ستظل صورة لطفلين تطاردني ما بقيت حياً...

هل جربت يوماً أن تتمنى الموت فلا يأتي إليك؟؟!!... أنا جربت هذا الشعور كثيراً... أدمنته في الواقع!!

أول مرة قتلت فيها مجرماً في مطاردة، كدت أن أموت هلعاً... أنا انتزعت ذلك الرجل من سجل الأحياء بضغطة زناد واحدة!!... أنا أنقصت عدد البشرية واحداً...والآن أنا قاتل وحشي قتل عائلة كاملة!!

لكم أتمنى لو يفاجئني (مدحت) بانقضاضه موفقة عليّ، لينتزع المسدس من يدي ليفرغه في صدري وسأظل له مديناً ما بقيت في الجحيم!!

لكن (مدحت) الآن يبدو كطفل يكاد يبلل سرواله هلعاً، لا يكاد يجرؤ على النطق بحرف واحد..

وخرج صوتي بطيئاً ثقيلاً كالحشرجة يقول:

- سأخرج الآن وأغلق الباب خلفي... وسأنتظر قليلاً في الردهة، لو خرجت، سأقتلك بلا تفكير... أتفهم؟؟!!

هزّ رأسه إيجاباً وهو يكاد يبكي، فنهضت ببطء من مجلسي لأغادر المكان...

لن يسعى خلفي الآن... ليس وهو في هذه الحالة...

لذا غادرت المكان كله، وأنا عاجز عن التفكير...

الدافع الوحيد الذي يحركني الآن هو الانتقام...

الانتقام لي وللطفلين الذين لن أعرفهما أبداً!!!

سيدفع الجميع الثمن... أقسم على هذا...

السبت - ٥/٢٦ - الساعة ٥.٢٤ عصراً

حيث ذهبت (مايا) وكما عرفت فيما بعد!!!..

لخمس دقائق أو أكثر، أخذ مسئول الأمن في فيلا الوزير السابق (مراد البحيري) يحدق في (مايا)، كأنه يشاهد مخلوقاً فضائياً، تمتد الخراطيم من جسده!!

لا يمكننا أن نلومه كثيراً... فـ (مايا) جديرة بأن تمنحها ساعات طويلة من فضولك، وفي حياتي بعد هذا لم أجد من يشابهها إلا الممثلة الأمريكية العجيبة (جولييت لويس) التي يكفي أن تشاهد لها فيلم Natural Born Killer للمخرج العبقري (أوليفر ستون) لتفهم عن ماذا أتحدث بالضبط..

وبعد الذهول والاستغراب تساءل مسئول الأمن:

- ولماذا ترغبين في مقابلة السيد (مراد)؟؟!!

أجابته (مايا) ببساطة مدهشة:

- أخبره أنني أريده في أمر شخصي شديد الأهمية..

- وما هو هذا الأمر بالضبط؟؟!

أجابته (مايا) ببرود مستفز:

- قلت لك أنه أمر شخصي للغاية..

منحها مسئول الأمن نظرة متشككة ثم قال أخيراً:

- انتظري هنا..

وتركها في رفقة أحد رجال الأمن ليختفي داخل الفيلا، ليعود بعد عشر دقائق، قائلاً:

- اتبعيني من فضلك..

تبعته (مايا) إلى داخل الفيلا، وعيناها ترصدان كل تفصيله حولها، علّها تتذكر شيئاً، مقاومة ذلك الشعور بالازدراء من كل مظاهر البذخ المحيطة بها... أنت تفهم هذا الازدراء الذي يصيبنا تجاه أشياء ندرك استحالة الحصول عليها!!

بلغا غرفة مكتب الوزير، فتوقف مسئول الأمن عند هذا الحد ليقول:

- تفضلي بالدخول..

هزت (مايا) رأسها بأرستقراطية مضحكة، ثم دخلت غرفة المكتب، لتبدأ مواجهتها...

لقد كانت خائفة... خائفة لسبب مجهول... لكنها حاولت مداراة هذا الخوف بالتظاهر بالا مبالاة..

كهل هو (مراد البحيري)... وجه يكتظ بالتجاعيد وكل ندوب الزمن وخطاياه... ونظرة عميقة تجمع بين الهدوء والخبرة والسأم... وجسد كان رياضي في يوم ما، مما منحه طابعاً آدمياً لا بأس به...

وحين تحدث، خرج صوته هادئاً وقوراً يقول:

- تفضلي يا ابنتي... اجلسي...

جلست (مايا) أمامه كالمأخوذة، وهي تحدق في وجه الرجل محاولة

مطابقة صورته بجميع الصور التي تحتفظ بها في ذاكرتها البائسة...

هل هو (مراد البحيري) أم لا؟؟؟!!!... لا سبيل لمعرفة هذا...

والآن..

تحدث (مراد) ليقول:

- كيف يمكنني أن أخدمك؟؟!!

أخرجت (مايا) علبة سجائرها وهمّت بإشعال سيجارة لولا أن استوقفها (مراد) بإشارة من يده ليقول:

- ممنوع التدخين هنا يا آنستي..

أعادت (مايا) العلبة لحقيبتها بضيق واضح، ثم قالت:

- على كل حال لست هنا للتدخين... ما أريده الآن هو رد على سؤال واحد..

ثم إنها أخرجت البطاقة السوداء من حقيبتها لتناوله إياها، ثم سألت:

- هل رأيت هذه البطاقة من قبل؟؟!

تناول (مراد) البطاقة منها ببساطة، وقلّبها بين أصابعه لحظة، قبل أن يعيدها إليها مجيباً:

- لا... لماذا؟!!

- عثرت عليها ملقاة أمام باب منزلي مع ورقة تحمل اسمك..

كذبة ساذجة، لكن لا بأس بها!!

- أهذا ما جئت من أجله؟!!

سألها (مراد) في شك واضح، فأجابت محافظة على هدوئها:

- نعم... ظننت أنها تخصك..

تضاعف الشك في عيني (مراد)، لكنه لم يملك إلا أن يقول:

- ماذا تشربين؟؟

وصلتها رسالته التي تطالبها بالانصراف، فقالت وتقف:

- لا شيء.. أشكرك... يجب أن أنصرف الآن..

هزّ (مراد) رأسه بالإيجاب وصاحبها بنظراته المتشككة حتى غادرت الغرفة... انتظر لحظة، ثم رفع سماعة الهاتف على مكتبه وطلب رقماً محدداً...

ولم ينطق سوى بكلمة واحدة لمحدثه:

- نفذ...

!!!

***

السبت - ٥/٢٦ - الساعة ٥.٤٧ عصراً

كما ذكر في السجلات فيما بعد!!!..

تحرك ذلك الأنيق ذو الملابس السوداء والنظارة السوداء - كأي رجل يوّد أن يبدو غامضاً – بهدوء مستفز كأنه في يصور مشهداً في فيلم سينمائي...

توقف أمام أحد المباني ثم رفع عينيه كأنما يتأكد من أنه المبنى الصحيح ثم دخل... خطواته هادئة... ملامحه جامدة... الانتفاخ أسفل ملابسه يشي بمسدس ضخم، يبدو أنه يجيد استخدامه جيداً...

هذا الرجل لم يأتي إلى هنا لمجرد الزيارة، ويبدو أنه من النوعية التي تكره إضاعة الوقت، فهو لم يحاول فتح باب تلك الشقة بالطرق التقليدية أو الغير تقليدية، بل سدد لرتاجه ركلة محكمة جعلته ينفتح مرحباً..

المبنى مهجور تقريباً لذا لن يتوقع أن يزعجه أحد في الساعات القليلة القادمة..

الآن يضع الحقيبة التي يحملها، على منضدة احتشد على سطحها الغبار كدليل على عدم لمسها منذ زمن، ثم يفتحها ليخرج تلك البندقية...

لا... لم تكن بندقية قناصة عادية، بل تلك الحديثة القادرة على تقديم أداء يليق بمدفع رشاش مطوّر ومزودة بأداة توجيه بالليزر، وكاتم للصوت خاص...

تحفة فنية لو جاز لنا قول هذا... سلاح توّد تجربته ما لم تكن المستهدف به!!!

الآن نرى الرجل الأنيق الهادئ، يسدد مدفعه من النافذة، لينظر عبر العدسة المقربة إلى هدفه...

إلى تلك الشقة المتواضعة، التي تليق بوصفها جحر أكثر منها إلى شقة تصلح للعيش...

شقة نعرفها جيداً، لأننا كنّا داخلها منذ قليل...

شقة (مايا)!!!!

***

السبت - ٢٦/٥ - الساعة السابعة مساءً
شقة (مايا)..

الآن أعود لأستكمل معكم أحداث قصتي ولأخبركم كيف حدث ما حدث..

كانت الفكرة الوحيدة التي تسيطر عليّ طيلة الوقت هي الانتقام... الانتقام من الجميع، ولكن كيف؟؟!!

أنا لا أعرف مكان ذلك الوغد (مجدي)، ولا الهدف الذي استفادة من قتلي للصحفي (باهر حسين) وعائلته، ولا علاقة تلك المسكينة (مايا) بتلك المأساة التي ألعب دور البطولة فيها رغماً عني...

الشيء الوحيد الذي أشعر به يقيناً أن اللعبة أكبر مما تبدو بكثير...

ثمة تفسير لكل ما يحدث ولو صدق ظني فالتفسير أسوأ مما حدث حتى الآن بمراحل... لكني مستعد لتقبله على كل حال، فقط لو تكرّم أحدهم عليّ ليشرح لي ما يحدث!!

كنت قد وصلت للشقة للتو، ولم تكن (مايا) هنا لذا شعرت بالقلق...

لماذا تأخرت هذه الحمقاء؟؟!!

هل تحققت مخاوفها، واتضح أن للوزير السابق (مراد البحيري) علاقة بما يحدث؟؟!!

لوكان هذا صحيحاً لاتخذت الأحداث القادمة أبعاداً أشك في قدرتي على مواجهتها... (مراد البحيري) كان وزير الداخلية لو لم تكن تعرف، وهذا يعني أن الرجل لا يزال يملك نفوذاً لا داع لاستخدامه ضدي في هذه الظروف على الإطلاق!!

دخلت (مايا) فجأة والسيجارة الأثيرة تتدلى من بين شفتيها، وذلك الهدوء المستفز على ملامحها، فصرخت فيها لأفرغ جزءاً من انفعالي:

- لماذا تأخرت؟؟!

جاءني ردها منطقياً مستفزاً:

- المواصلات... لا أملك نقوداً لأذهب وأعود بسيارة أجرة..

كيف فاتني هذا؟؟... كان يجب أن أمنحها نقوداً... لكن يجب أن أفعل هذا دون أن أثير حفيظتها..

قلت مبرراً انفعالي:

- لقد قلقت كثيراً..

قلتها ثم ندمت خشية أن تسيء فهمي، لكنها أجابت:

- لا تقلق... على الأرجح أنه ليس هو المقصود..

- كيف عرفت؟؟!

- عرضت عليه البطاقة فلم يتعرف عليها ولم يحاول إيقافي..

- وتجدين هذا طبيعياً؟؟!

أجابتني ساخرة:

- وما الذي كنت تتوقعه؟!.. أن يسقط بذبحة صدرية ما إن يرى البطاقة؟؟!

- لا.. ولكن أن يمر الأمر بهذه البساطة؟؟!... ألم يحاول حتى التحقق من شخصيتك؟؟

أجابت:

- هل تقصد أنه أرسل من يراقبني؟؟... لا أعتقد هذا... لقد ظنني مخبولة على الأرجح..

وجدتها فرصة لرد سخريتها فقلت:

- لم يخطئ في هذا كثيراً..

لكنها لم تتوقف عند سخريتي، بل قالت:

- المشكلة أن أمامنا الآن آلاف (مراد البحيري) قد يكون أي واحد منهم هو المقصود... لا أخفي عليك، رغم خوفي من الاحتمال كنت أفضل أن يكون ذلك الوزير هو المقصود... على الأقل كنا سنعرف من.. على كل حال، ماذا عنك؟؟ هل عرفت من الذين قتلتهم؟؟!!

رويت لها ما حدث باختصار، فلم تبد تأثراً... قد أكون قد قتلت طفلين بالنسبة لها، لكنها قد تكون قد فعلت ما هو أسوأ لكنها لا تعرف..

وحين انتهيت منحتني ملاحظة ذكية لم أنتبه لها من قبل:

- لكن أن تقتل ذلك الصحفي وعائلته لم يستغرق سوى تلك الليلة، فماذا عن باقي الأسبوع إذن؟؟!!

هززت كتفي بمعنى أنني لا أعرف، فقالت:

- يجب أن تعرف... ربما كان هناك آخرون قتلتهم دون أن تعرف..

هالتني الفكرة إلى درجة الشحوب، فهتفت:

- وكيف لي أن أعرف؟؟!

أجابتني:

- بأن نجد وسيلة للعثور على الدكتور (مجدي)..

كررت سؤالي:

- كيف؟؟!

أطفأت سيجارتها لتشعل أخرى، وقالت:

- بأن ندفعه للظهور.. لا توجد وسيلة أخرى.. وأعتقد أن لدي اقتراح في هذا الصدد.. أنت تعرف بالتأكيد أنه سيضطر للعودة إلى عيادته.. شيء ما يجذبه إلى هناك، بدليل أنه عاد إليها بعد أن نفذ تجربته معي، دون أن أستطيع مفاجأته هناك للأسف.. السؤال الآن ما الذي سيحدث لو أننا قطعنا عليه خط الرجعة؟؟

قلت متشككاً:

- ما الذي تقصديه بالضبط؟؟!

- سنذهب إلى هناك لنسرق كل ما نجده أمامنا.. لكن يجب أن نفتش المكان أولا بحرص شديد، لربما كان الشيء الذي يعيده للعيادة مخفياً في مكان ما داخلها.. بالمناسبة.. هل تجيد استخدام الكمبيوتر؟؟

هززت رأسي نفياً، فقالت بأسف:

- خسارة... لا بد أنه يحتفظ ببياناته على هذا الجهاز.. على الأقل البرنامج الذي يستخدمه للتنويم.. لقد حاولت استخدامه ذات مرة لكنه يضع كلمة سر على الجهاز تمنع أي أحد من الاطلاع على ملفاته..

قطبت مفكراً في هذه المشكلة ثم جاء الحل في ذهني بغتة:

- لا بأس.. نستطيع أن نسرق القرص الصلب من الجهاز، ثم سأستعين بأحد أصدقائي الذي يجيدون القرصنة وهذه الأشياء التي لا أفهمها لاستخراج الملفات من عليه..

تحمست (مايا) لفكرتي، فهتفت:

- عظيم.. والآن هيا بنا لنتحرك..

لكني استوقفتها قائلاً:

- (مايا).. يجب ألا نسعى خلف هذا الأمل متجاهلين الخيط الحقيقي الذي نمسك به بين أصابعنا..

تساءلت (مايا):

- أي خيط؟؟

- (باهر حسين)... الصحفي الذي قتلته.. لا بد أن هناك سبباً ما ليدفعني (مجدي) لقتله... أعني فلنرتب الكروت التي حصلنا عليها حتى لآن.. لدينا صحفي قتيل وطبيب هارب ووزير سابق.. ما العلاقة التي قد تربط بين الثلاثة؟؟!

أجابت (مايا) بملل:

- هل تقصد تجارب سرية تتعلق بالوزير ويستعين بها بالدكتور وحين يكتشف ذلك الصحفي تجاربهما يسعيان للتخلص منه؟؟ يبدو أنك من هواة الأفلام البوليسية!!

ابتسمت لهذا التفسير الساذج وقلت:

- لو كانت هذه قصص الأفلام البوليسية، فأحمد الله أنني لا أهوى مشاهدتها.. على كل حال لا، لدي تفسير آخر.. تفسير أكثر واقعية.. أولاً لنستثني الوزير السابق فلا يوجد ما يؤكد صلته بالأحداث. أو أن هذا ما أتمناه... يتبقى لنا الطبيب والصحفي... هناك ثلاثة أسباب قد تجعل (مجدي) يدفعني لقتل الصحفي... الانتقام.. التخلص منّي بقتل أحد المشاهير بهذه الصورة وهذا يعني أن الغرض الحقيقي من تنويمي مغناطيسياً ليس قتل الصحفي... أو أنه - أقصد (مجدي) - يعمل

لجهة ما وهي التي كلفته بالتخلص من الصحفي باستخدامي...

انتهيت من طرح أفكاري فوقفت ألهث، بينما قلّبت (مايا) الأمر كله في ذهنها، ثم مطّت شفتيها بعدم رضا، لتقول:

- عظيم... إذن فلقد عقّدت الأمر أكثر مما كان... والآن كيف لنا أن نعرف أي هذه الاحتمالات هو الصحيح؟؟!

- احتمال الانتقام يبدو أسخف من أن يبذل له (مجدي) كل هذا المجهود، كما أنه لا يبرر تنويمك أنت أيضاً.. أعتقد أن أحد الاحتمالين الآخرين هو الصحيح.. وهذا يتوقف على أن أعرف ما الذي فعلته طيلة الأسبوع الذي نوّمني فيه (مجدي) مغناطيسياً...

تثاءبت (مايا) بإرهاق، وقالت:

- لا سبيل لتعرف ما الذي حدث لك طيلة هذا الأسبوع إلا من (مجدي) ذاته... وفكرة الجهة التي يعمل لحسابها أكثر سذاجة من اللازم.. ما الذي سنفعله إذن؟؟!!

أجبتها في غموض:

- هناك وسيلة واحدة لمعرفة ما الذي فعلته طيلة ذلك الأسبوع...

سألتني (مايا) بلهفة:

- ما هي؟؟!!

كدت أجيبها لولا أن انطلقت الرصاصات بغتة، لتهشم زجاج النافذة!!!

***

السبت - ٥/٢٦ - الساعة ٧,٤٩ مساءً

شقة (مايا) التي تحولت إلى جحيم!!

حين انطلقت الرصاصات لم أنتبه لكونها خرجت من مدفع كاتم للصوت أو، أو للغزارة الغير مسبوقة التي أخذت تنهال بها علينا.. كل ما فكّرت به هو إبعاد (مايا) من مرمى الرصاصات..

قفزت - كما درّبونا جيداً في كلية الشرطة - لأحيط (مايا) المذهولة بذراعي، ولألقي بها أرضاً بعيداً عن النافذة، التي انهمر منها سيل الموت بلا صوت..

وحين تمكنت أخيراً من الصراخ، صرخت (مايا):

- ما الذي يحدث؟؟!!

أجبتها وأنا أبقيها منبطحة:

- فرصتنا الوحيدة لنفهم..

وقبل أن تفهم ما أعنيه، كنت أصرخ فيها:

- لا تتحركي من مكانك هذه أياً كان السبب..

ثم تحركت فجأة مستعيداً كل ما درّبونا عليه للتصرف في مثل هذه المواقف.. حمداً لله أنني احتفظت بمسدس (مدحت) معي!!

أطلقت رصاصتين عشوائيتين على النافذ للتمويه، وأخرى على المصباح الوحيد فساد الظلام تصاحبه صرخات (مايا) المذعورة...

ولست أعرف كيف حدث ما حدث لكن لو قام كاتب سيناريو محترف بتحويل قصتي هذه إلى فيلم في يوم ما، أعتقد أن المشاهد التالية ستكون كالآتي..

ليل داخلي... أنا أقفز قفزة لو رآها مدربنا أيام كلية الشرطة لصرخ طرباً، قبل أن أسقط أمام الباب لأفتحه بحركة سريعة... قطع.

ليل داخلي... أنا أصعد الدرج الذي يقود لسطح الأرض عدواً، والرصاصات الكاتمة للصوت تحدث ثقوباً في الجدران من خلفي، لتتطاير الحجارة والرمال... بالطبع صراخ (مايا) هو الخلفية لهذا المشهد.. قطع...

ليل خارجي... أنا أعدو كالمجنون تجاه البناية التي تأتي منها الرصاصات، والرمال تتفجر تحت أقدامي من الرصاصات... أنا لا أشعر بشيء سوى بالرغبة في الوصول للبناية.. قطع.

ليل داخلي... أنا أقفز على الدرج داخل البناية جاذباً زناد مسدسي، متجهاً إلى الشقة التي يطلق منها القاتل رصاصاته... أنا ألهث بعنف، لكن لا أملك لحظة للتوقف واسترداد أنفاسي..

ليل داخلي.. أنا أركل باب تلك الشقة وأقفز إلى أحد الأركان مسدداً مسدسي في كل اتجاه... حسناً.. أياً كانت التمارين التي حظينا بها في كلية الشرطة، لكن اللياقة التي أتمتع بها الآن عجيبة حقاً... إما أنه الخطر، أو أن هناك الكثير حقاً مما فعلته ذلك الأسبوع دون أن أعرف.. لندع هذا في وقته... قطع..

ليل داخلي..

القاتل يلتفت لي بمدفعه فلا أنتظر شيئاً لأضغط الزناد... إنها تلك اللحظة الرهيبة التي تعني شيئاً من اثنين... حياتي أو حياته... صوت رصاصاتي يمتزج بصوت رصاصاته المكتوم، وأشياء تتهشم وأشياء تتناثر، ثم يسقط جسد القاتل، ليسود الصمت بغته... قطع!

الآن أنا ألهث بعنف، متحسساً جسدي بيد مرتعشة، بحثاً عن ثقوب غير موجودة!!

لقد نجوت!! فارق الثانية انتهى لصالحي!!

أقف بصعوبة لأنفض الغبار من على ملابسي، ثم أقترب ببطء حذر من جثة القاتل الذي سقط على وجهه دون حراك، وبركة من دماءه تتكون أسفله بثقة!!

بيمناي أسدد المسدس له، تحسباً لأي حركة مفاجأة، وبيسراي أمد يدي لأقلبه على ظهره بحركة سريعة...

لو ملكت أنفاسي الآن لصرخت... مستحيل!!

مستحيل... مستحيل... مستحيل!!!

ألف مستحيل!!

الرجل الأنيق الذي كان يطلق على الرصاصات من مدفع لا يعلم إلا الله من أين حصل عليه، كان... كان..

كان الحظ – بلا حساب – يمشي على قدمين!!

كان (علي)!!!

***

الأحد - ٥/٢٧ - الساعة ١١,٣٤ صباحاً
المكان: عيادة الدكتور (مجدي).. ذلك الوغد!!

مرحباً بكم مجدداً أيها السادة... ها نحن نواصل قصتي وهذه المرة من عيادة صديقي / السابق / الوغد (مجدي)...

هذه المرة انضم لنا ضيف جديد هو المهندس (عادل صدقي)... مهندس كمبيوتر شاب، هادئ الطباع وسيم نوعاً ما... اختطفته هذا الصباح ليحل لنا مشكلة كمبيوتر (مجدي)!!

لكن دعني أشرح لك أولاً كيف وصلنا إلى هذه اللحظة، ولنبدأ من ذلك المشهد حين كنت أنا أحدق ذاهلاً في جثة (علي) الذي قتلته بنفسي لأضمه إلى قائمة ضحاياي...

بالطبع كنت مذهولاً... ومصدوماً... وخائفاً...

فالموقف الآن أصبح يعني شيئاً خطيراً... بل عدة أشياء..

أولاً... أن سيطرة (مجدي) على من يجري عليهم تجربته بلا حدود..

ثانياً... أن وزير الداخلية السابق (مراد البحيري) متورط فيما يحدث، وإلا كيف عرف (علي) أو من أرسله هذا المكان؟!... دعك من

ذلك المدفع الذي يحمله والذي لا يمكن الحصول عليه إلا من جهات خاصة للغاية..

ثالثاُ... أنهم ينوون التخلص منا وبأي ثمن... الشرطة تطاردنا وهم يسعون خلفنا...

على كل حال لم أكن أملك رفاهية الذهول والتفكير بل كان يجب أن أتحرك بسرعة تحسباً لمجيء الشرطة أو لوجود آخرين... لذا أسرعت بالعودة للشقة. لألتقط (مايا) المرتجفة كطفل ضائع... ولنبتعد..

قضينا الليلة في أحد الفنادق الرخيصة في وسط البلد، حيث لا يطلبوا إثبات شخصية ولا يهمهم من سيسكن طالما يحمل الثمن... وكانت ليلة غابرة لم أستطع النوم فيها إلا في مطلع الفجر وقد أنهكت الأفكار رأسي...

وبالطبع زارني ذات الحلم العجيب... أنا أسقط في الضوء الباهر، لينتهي بي الأمر في تلك القاعة، وطيف رجل ما ينحني على جثة شخص ما...

وهذه المرة كنت أنا من ينحني على جثة ذلك الرجل الملقاة على الأرض !!

حتى في الحلم لا تنفك الأحلام تطاردني بشراسة!!

وكان أول ما فعلته في الصباح هو أن طلبت من (مايا) أن تسبقني لعيادة الوغد (مجدي)، بينما سأذهب أنا لأحضر من يستطيع تشغيل الكمبيوتر...

لست في حاجة لخبير من نوع خاص، لكني كنت أسمع عن ذلك الهاكر المحترف الذي يعيش في مصر الجديدة، والذي كنّا نعد عنه ملفاً تمهيداً للقبض عليه... أعتقد أنه يكفي..

ذهبت له في منزله في التاسعة والنصف صباحاً، لأقتاده بمنامته دون أن أمنحه فرصة للفهم أو التراجع... لم يكن ليعترض ومسدسي في وجهه طيلة الوقت...

وها نحن الآن نقف في العيادة، أنا أقف مدخناً – من الصعب أن تكون مع (مايا) دون أن تتعلم التدخين – والمهندس (عادل صدقي) يتعامل مع الكمبيوتر مستخدماً برامج وأجهزة لا أفقه فيها حرفاً، بينما انزوت (مايا) في الركن تدخن... لم تعد (مايا) كما كانت... الآن تحمل عيناها نظرة خوف مبهم تثير الإشفاق حقاً...

المسكينة.. رأت وعرفت أكثر مما ينبغي بكثير...!!

لكن لا بأس... لكل شيء نهاية... ولو كان إحساسي صحيحاً، فالنهاية أوشكت بالفعل..

تحدث (عادل) ليقول بهدوء:

- الأمر سيتسغرق وقتاً طويلاً... كلمة السر من تسعة حروف ويمكننا أن نقضي أياماً طويلة قبل أن نفك رموزها..

بهدوء أشد أجبت:

- ساعة واحدة..

صرخ (عادل) بعصبية:

- ماذا؟؟!!

كررت:

- أمامك ساعة واحدة... ولن أقبل النقاش..

فتح فمه ليصرخ بالمزيد لولا أنني جذبت زناد المسدس مهدداً، فابتلع اعتراضه مكتفياً بغمغمة غير مفهومة، وعاد يواصل عمله بسرعة أكبر نسبياً...

أعرف أن الأمر سيستغرق أكثر من ساعة، لكن لو تركت له الحبل على الغارب لاستغرقت القصة أياماً نقضيها هنا حتى ينتهي...

ذهبت لأطمئن على (مايا) فوجدتها في أسوأ حال ممكنة، لكني قلت مشجعاً:

- (مايا)... لقد مرّ الأسوأ بالفعل، وقريباً سينتهي هذا كله..

رفعت إليّ عيني دامعتين، ولأول مرة نطقت اسمي قائلة:

- (سامي)... أريدك أن تعدني شيئاً... لا تدعهم يقتلونني.. أرجوك..

يا للعينين الرماديتين!!!.... وكيف لي أن أرفض طلباً لصاحبتهما، حتى لو لم أكن واثقاً من قدرتي على تنفيذ هذا الطلب.. أجبتها:

- لن أدع أحدهم يلمسك..

وربّت على كتفها.. ثم تركتها لألقي بنفسي في عاصفة الأفكار والهواجس التي تزوم في رأسي..

يجب على أحدهم أن يدفع ثمن هذا كله... يجب..

كنت أشعر بالنعاس... بالإرهاق... بالغضب... بالحيرة...!!

كنت على وشك الانفجار... فقط أنتظر الهدف الصحيح الذي سأنفجر في وجهه..

وكانت عيناي معلقتين على عقارب الساعة، تنتظر أن ينتهي المهندس (عادل) من فك الشفرة.. بالطبع استغرق الأمر أكثر من ساعة... بل استغرق ثلاث ساعات كاملة، هتف بعده المهندس بانتصار:

- فعلتها..

أسرعت إليه بلهفة أخفيتها خلف قناع من الغضب وأنا أقول:

- لكنك تجاوزت وقتك بكثير..

أجابني بحماس:

- لقد فككت الشفرة في ثلاث ساعات فحسب... إنه إنجاز حقيقي.. والآن ما الذي تريدان معرفته بالضبط؟؟

أجبته باختصار:

- كل شيء...

أخذت أصابع المهندس (عادل) تعبث في لوحة المفاتيح بمهارة لا تنكر، بينما أخذ يتلو علينا ما يجد أولاً فأول:

- هناك العديد من الملفات معظمها أبحاث طبية تتعلق بعلم النفس والتنويم المغناطيسي... وهناك قسم خاص يتعلق بتجربة ما وقائمة بأسماء لا أفهم عن ماذا تتحدث... أياً كان من كتب هذه الملاحظات، فلقد كتبها بطريقة لا يفهمها سواه..

سألته (مايا):

- أريد كل المعلومات المذكورة عن التجربة..

أجابها (عادل):

- لست أفهم حرفاً مما أقرأه... لكن هناك برنامج ما يتعلق بهذه التجربة، هل تودان رؤيته؟؟

هتفت أنا و(مايا) بصوت واحد:

- نعم..

شغّل عادل البرنامج ببساطة، ثم قال:

- حسناً... إنه برنامج للتنويم المغناطيسي.. وهو مقسم في عمله وفقاً للشخص الذي ستجرى عليه التجربة... أمامي عدة أسماء، بمن سنبدأ؟؟!

تبادلت مع (مايا) نظرة سريعة، ثم قلت:

- ابحث عن اسم (مايا)..

ثم التفت إليها قائلاً:

- ربما كانت هذه فرصتك لتعرف ما الذي حدث..

هزّت (مايا) رأسها بمزيج من الرهبة والتفهم، ثم قالت:

- سأخوض التجربة مجدداً... لكن يجب أن تحقنني بالمهدئ أولاً..

سألتها:

- أين هو؟!

تركتني لتبحث في أحد الدواليب، ثم عادت بالمحقن وقد أعدته، وقالت:

- يجب أن نكرر الأمر تماماً كما فعله... لا صوت.. لا ضوء.. لا شيء سوى شاشة الكمبيوتر لأحدق فيها، لكن لا يجب أن يفوتك شيء مما سيحدث..

هززت رأسي بمعنى أنني أفهم، فكشفت لي عن ذراعها لأحقنها بالمهدي بينما لاذ المهندس (عادل) بالصمت التام..

تمددت (مايا) على الفراش الطبي أمام الكمبيوتر، بينما أسدلت أنا الستائر السوداء ليغرق المكان كله في الظلام، إلا من ضوء شاشة الكمبيوتر... نظر لي (عادل)، فهززت رأسي لأعطيه إشارة البدء..

وبضغطة زر شغّل (عادل) برنامج التنويم المغناطيسي الذي بدأ به كل شيء...

الآن أرى تلك الشاشة الرهيبة تبث لي ولـ (مايا) نقطة التحول في حياتنا سوياً...

المشكلة هي أن ما رأته الآن لا يمكن وصفه بأمانة!!... المشكلة أنه يجب أن ترى بنفسك ما أراه لتصدق...!!... المشكلة أن الذي أراه الآن عكس جميع كل توقعاتي..!!... لكني سأحاول..

في البداية كانت الشاشة البيضاء... النور الذي تحدق فيه ليغشي عينيك في لحظة... ثم بدأت الصور في التلاحق بتتابع غير طبيعي...

صور لـ (مايا)... صور لأسلحة... لقطات من حروب... صور لجثث... صور لأماكن... صور لانفجارات... صور لـ (مايا) مجدداً... صور لأشخاص لا أعرفهم...

صور تمتزج... صور تتلاشى... صور تولد وصور تختفي قبل أن تميز منها شيئاً...

صور... صور... صور...

ثم كلمات ترتسم وتختفي قبل أن تتمكن من قراءة حرف واحد منها...

ثم المزيد والمزيد من الصور!!!

وبانفعال جارف همست:

- ما هذا؟!؟!

أجابتني نظرة (عادل) المذهولة التي تحمل الحيرة كما يجب أن تكون..

ولم تتوقف الصور عن التلاحق بإيقاع مطرد..!!

ثم وقبل أن يتمكن أحدنا من الفهم كان باب العيادة يتهشم، ليدخل رجال الشرطة يترأسهم (مدحت) وقد سددوا مسدساتهم كلها نحونا، و(مدحت) يهتف بصرامة:

- لا تتحرك... ارفع ذراعيك في الهواء فوراً.. والق سلاحك..

***

يا إلهي... ليس الآن..!!

هتف المهندس (عادل) على الفور:

- لست معهما... لقد اختطفني هذا الرجل..

تجاهله (مدحت) تماماً، ليصرخ مجدداً:

- قلت لك ارم سلاحك وارفع ذراعيك في الهواء... هذه المرة لن أتردد في إطلاق النار عليك..

بحثت عن شيء لأقوله، لكن تلك الغصة في حلقي منعتني من الكلام، فألقيت سلاحي أرضاً وبدأت في رفع ذراعي ببطء...

حسناً.. إنها النهاية هذه المرة... لقد خسرت كل شيء بعد كل ما فعلته..

الآن عليّ أن أواجه المصير المظلم الذي ينتظرني...

تحرك اثنان من الرجال ليحيطا معصمي بالأغلال، بينما تساءل أحدهم:

- الفتاة على الفراش... إنها غائبة عن الوعي تماما، ما الذي أفعله؟؟!

أجابه (مدحت) بلا اكتراث:

- اعمل على إفاقتها، فربما كانت معه.. واغلق جهاز الكمبيوتر هذا حتى يأتي من يفحصه..

وهكذا أيها السادة كان عليّ أن أبتلع مرارة الفشل، بعد أن مدت أصل للنهاية... بعد أن كدت أفهم..

وهكذا أيها السادة كان الموت هو أمنيتي العزيزة في تلك اللحظة لولا... لولا أن تحركت (مايا) بغتته..

وهنا يجب أن نتوقف لحظة لأصف لكم كيف حدث ما حدث...

وهنا أكرر أنني عاجز تماماً عن نقل ما حدث بالضبط لكني سأحاول..!!

بغته فتحت (مايا) عيناها الرماديتين، وهذه المرة كانتا تحملان نظرة لم أرها من قبل..

وفي اللحظة التالية تحركت.. ولوكان هذا فيلماً لكان عليك عرض اللقطات التالية بالتصوير البطيء لتستوعب ما حدث..

مدت يدها لتقبض على معصم رجل الشرطة الذي انحنى عليها، وأدارته بصورة خاصة جعلته يطير ليسقط أرضاً..

ثم قفزت..

قفزت من على الفراش لتركل رجل آخر... ثم قفزت مرة أخرى لتنتزع مسدسه لتطلق بضعة رصاصات أطاحت بمسدسات الجميع... ثم قفزت لتهوي بالمسدس على رأس رجل آخر... ثم قفزت مجدداً...

ثم قفزت...

ثم قفزت...

الأمر كله بدا أشبه بالباليه، وهي تطير برشاقة لا معقولة، ليسقط أحدهم كل مرة، بينما اكتفيت أنا بالتجمد في مكاني ذاهلاً، عاجزاً عن التصديق...!!!!

وحين هبطت أخيراً، كان الكل ملقى على الأرض بلا حراك وقد فقد وعيه...

وبلهجة آمرة قالت:

- هيا بنا...

لم أستطع التحرك لفرط ذهولي، فجذبتني من يدي متابعة:

- هيا قبل أن يأتي آخرون..

تبعتها مأخوذاً، لنخرج من العيادة إلى سلم الطوارئ... لأسفل... للشارع... لأول سيارة أجرة صادفناها، لنبتعد عن المكان...

وحين تحرك لساني أخيراً، نطقت:

- كيف؟؟!!

أجابتني (مايا):

- لنبتعد ما فيه الكفاية ثم سأشرح لك كل شيء..

وشردت عيناها الرماديتين، مردفه:

- لقد عرفت الذي فعلته..

ولم تنطق بحرف آخر تاركةً إياي أبتلع ذهولي الذي لا حد له!!

***

الأحد - ٥/٢٧ - الساعة ٦,١٣ مساءاً

المكان: أمام ذلك المبنى في المقطم..!

الآن سأنقل لكم الأحداث الأخيرة لهذه الليلة، لكن قبل أن أبدأ، اسمح لي أن أسألك سؤالاً... هل تعرف نفسك حقاً؟؟!

أرجوك فكّر في هذا السؤال، قبل أن تقرأ الأحداث التالية.. أو اقرأ الأحداث أولاً، فربما فهمت ما أعنيه بالضبط..

الآن أنا أقف جوار (مايا) خلف تلك التبة الرملية... رياح المقطم الباردة تعبث بأجسادنا المنهكة.. وذكريات كل ما مررنا به تمنح الموقف كله رهبة لا تنكر..

الآن.. أفكر كثيراً قبل أن أنطق بسؤالي التالي، فيأتي:

- ولكن.. كيف؟؟!!

تجيبني هي باقتضاب:

- الإجابة هناك ..

وتشير بعينيها الرماديتين إلى ذلك المبنى المهجور أمامنا.. فأرمقه بلا فهم، لتواصل (مايا):

- إنه هناك.. في الداخل..

تقولها فيخفق قلبي بعنف... إنه هناك... (مجدي) هناك!!

أهمس بانفعال:

- وما الذي ننتظره؟؟!

يحمل وجه (مايا) تعبيراً غريباً، لا أستطيع الجزم بكنهه.. أهو الخوف؟؟.. أهو الغضب؟؟!... لن أعرف أبداً...!!

ترى ما الذي فعلته (مايا) بالضبط، بعد أن أجرى (مجدي) عليها التجربة؟؟؟!!

سألتها حين كنّا في سيارة الأجرة، فلم تجب... ولم أكرر سؤالي بعدها..

تنطق هي أخيراً، لتقول:

- هيا بنا..

وهكذا نتحرك سوياً ببطء لا يحمل رائحة الثقة، حتى نصل لمدخل ذلك المبنى المهجور...

نقف أمام البوابة المعدنية الضخمة، فتلتقط (مايا) نفساً طويلاً، ثم تقرع البوابة بنسق معيّن...

للحظة لم يتغير شيء... ثم بدأ صوت الأقدام من الداخل يتعالى.. صوت يد تعالج الرتاج... ثم البوابة الضخمة تفتح بصرير مخيف، كبوابات قلاع الأساطير..

ثم نغرق في الضوء المبهر...

***

فتحت عيني بصعوبة مع كل هذا الضوء الذي هبط عليّ كشلال، لينتفض جسدي ذهولاً!!

المبنى الذي يبدو مهجوراً تماماً من الخارج، لم يكن كذلك – أبداً – من الداخل..

الأضواء كانت تغمر المكان من السقف والجدران، لتضيء قاعة ضخمة بيضاء، استقرت على أرضيتها الرخامية عشرات المكاتب، وعلى كل مكتب كمبيوتر جلس أمامه رجل أو امرأة، أخذ يعمل عليه بصمت تام...

الذي فتح لنا البوابة كان ضخماً تحمل ملامحه مزيج من الجمود والندوب لتصنعان منه حارساً مثالياً لمنظمة إجرامية...

تقدمت منه (مايا) بثقة لتقول:

- أغلق الباب..

نفذّ الضخم أمرها بلا مناقشة ثم التفت لها ليقول بجمود تام:

- مرحباً بعودتك يا سيدتي..

ثم التفتت هي إليّ لتجدني أرمقها ذاهلاً، فقالت:

- ألم تتذكر بعد؟؟

صحت وقد أخذ مني الذهول مأخذه:

- أتذكر ماذا؟؟!!

ثم ولذهولي وجدتني أتذكر بالفعل!!

لست أعرف كيف أو لماذا أو متى.. لكن هذا المكان يبدو مألوفاً لي بالفعل... هذا المكان كنت فيه من قبل..!!

ولكن كيف؟؟... متى؟؟؟... لماذا؟؟؟؟

أتى الصوت المألوف من آخر القاعة يقول:

- عزيزي (سامي)... إذن فقد وصلت أخيراً..

التفت إليه لأصرخ بكل ما تموج به نفسي من انفعالات:

- (مجدي)؟؟!!

كان الوغد هناك... يتحرك بهدوء بالغ مرتدياً معطفه الأبيض، وعلى وجهه ابتسامة لا مبالية، وفي عينيه نظرة تحمل ألف معنى..

تعاظمت ابتسامته وهو يقول:

- أحضرت (مايا) معك؟؟... عظيم... لقد بدأنا نفتقدها حقاً هنا..

كنت أود أن أقتله... أن أمزقه... أن أسأله... أن أنتقم... أن أفهم.. لكن ذلك المزيج الرهيب من المشاعر شلّ حركتي تماماً، فلم أنطق حتى وقف أمامنا تماماً ليقول:

- كنت متأكداً من أنك ستأتي.. وأنت يا (مايا).. هل عرفت ما فعلته أخيراً؟

هزت رأسها إيجابا ببطء، فابتسم (مجدي) قائلاً:

- وتودين لو أنك لم تعرفي قط، أليس كذلك؟؟... على كل حال هذا هو ثمن المعرفة الذي يجب أن ندفعه... هناك مثل أمريكي شهير يقول (المجهول من الأفضل له أن يبقى مجهولاً)، وأحسبك تفهمين معنى ذلك المثل الآن..

انتزعت نفسي بصعوبة من حالة الذهول البلهاء هذه، وفتحت فمي لأسأل، لكن (مجدي) استوقفني بإشارة من يده ليقول:

- أعرف ما تريد قوله... تريد أن تفهم، لكن قبل أن أشرح لك كل شيء، هل أن مستعد حقاً لدفع ثمن المعرفة؟؟!

نظرت لـ (مايا) لأبحث في عينيها عن الإجابة، فنكست هي رأسها ببطء... لكن لا... يجب أن أفهم... يجب..

هززت رأسي إيجاباً فابتسم الوغد (مجدي) بركن فمه، كأنه يمنحنا عرضاً مجانياً لابتساماته وقال:

- حسناً... أنت اخترت.. لنجلس إذن..

قالها واقتادني أنا و(مايا) الصامتة إلى ركن القاعة، حيث جلسنا على مجموعة من القاعد المتراصة، كأننا مجموعة من الأصدقاء تستعد لتبادل الذكريات!

صمت (مجدي) برهة ليستجمع أفكاره ثم قال:

- من أين تحب أن أبدأ؟؟

أجبته بخفوت:

- منذ البداية... بداية كل شيء..

أجاب (مجدي):

- هذا ما توقعته... لا زالت غريزة رجل الشرطة داخلك تعمل بكفاءة.. لنبدأ إذن من ذلك اليوم الذي قررت أن أدرس فيه التنويم المغناطيسي.. ذلك الجزء المهمل من الطب النفسي والذي يمر عليه الجميع مرّ الكرام دون أن يتساءلوا لحظة عن حقيقته... لن أضيع الوقت بشرح أساسيات هذا العلم وتاريخه بل سأدخل على الفور إلى ذلك اليوم الذي قررت فيه تجربة التنويم المغناطيسي بنفسي... أجريت التجربة على إحدى السيدات اللاتي يأتين لي بانتظام ليشكين من حياتهن الزوجية.. أنت تعرف هذا الشق الممل في حياة أي طبيب نفسي، لكنه الشق المربح في الواقع.. المهم، لم أجد صعوبة بالغة، خاصةً وأنني استخدمت معها مهدئاً خفيفاً ليريحني من ثرثرتها قليلاً..وهكذا وجدتني ولأول مرة أمام العقل البشري بكل خباياه وأسراره وقد أصبح طوع يدي..أدق أسرارها... ذكرياتها المنسية.. مخاوفها.. عيوبها التي تداريها كل يوم.. شرورها التي تكبتها داخلها باستمرار... كل هذا أصبح ملكي... لكن واجهتني مشكلتين، ولهما أن هناك درجات من التنويم

المغناطيسي، ولأصبح المتحكم الأوحد لعقل هذه السيدة كان عليّ بلوغ درجة معينة من التنويم المغناطيسي لم يبلغها أحد... وهذا بالطبع لم يحدث في المرة الأولى أو الثانية أو حتى الثالثة... لكني فعلتها أخيراً..

وبرقت عيناه وهو يستعيد تلك الذكرى، ثم واصل:

- وصلت إلى أقصى درجة من درجات التنويم المغناطيسي. لتواجهني المشكلة الثانية... أنت لا تستطيع أن تجبر المنوّم مغناطيسياً على فعل أشياء يرفض فعلها في يقظته... لكن ماذا عن الأشياء التي يرغب في فعلها ويمنع نفسه عنها طيلة الوقت؟؟ ماذا عن النصف المظلم داخل كل آدمي، حيث يدفن شروره ونزواته وأسراره السوداء؟؟ والأهم من هذا كله، ما الذي قد يحدث لو أطلقنا هذا النصف المظلم من سجنه وفككنا قيوده؟؟؟ ما الذي قد نحصل عليه حينها؟؟

أصابني الخوف من تصور النتيجة فلذت بالصمت، بينما قالت (مايا) ببطء:

- سيخرج مستر (هايد)..

هتف (مجدي) طرباً:

- بالضبط... تماماً كما كان يحدث في رواية (دكتور جيكل ومستر هايد)... ما إن تطلق مارد الشر من عقاله داخل أي آدمي، ليتحول أي كائن آخر تماماً لا يمت بصلة لتلك الواجهة الاجتماعية التي يقدمها لنفسه وللناس كل يوم.. قد يكون الشخص الذي ستجري عليه التجربة هادئاً متحفظاً خجولاً نوعاً ما.. لكن ما إن تجري عليه التجربة حتى يتحول إلى شيطان حقيقي... شيطان قابل للترويض والتحكم..

بصدق وأمانة قلت:

- لم أفهم حرفاً..

ازداد حماس (مجدي) وهو يشرح مفسراً:

- ألم تسمع عبارة مخرج أفلام الرعب الشهير (أفريد هتشكوك)؟؟.. أي إنسان قد يقتل في لحظة.. هذا حقيقي.. هناك لحظات قد يفقد فيها المرء سيطرته على نصفه المظلم، ليقتل أو يسرق أو يفعل ما هو أسوأ.. يا عزيزي الشر موجود داخل كل آدمي، وكل ما أفعله أنا هو أن أطلق سراحه وأجعله المتحكم... كل ما عليك هو التحديق في برنامج التنويم المغناطيسي الذي صممته بعد أن تحقن نفسك بمزيج خاص من المهدئات وعقاقير الهلوسة، وستكشر شرورك عن أنيابها لتعلن وجودها للجميع..

سألته بحيرة:

- ولكن ما الذي تستفيده أنت من هذا كله؟؟!!... إنك تصنع وحوشاً غير قابلة للترويض...

قاطعني (مجدي):

- خطأ... بل قابلة للترويض... لا تنس أن كل شيء يتم تحت إطار من التنويم المغناطيسي.. الناتج الذي تحصل عليه هو مسخ يمكنك تدريبه واستخراج طاقات منه لم يحلم هو بوجودها داخله، ثم استغلالها لتحقيق أهدافك التي تعجز عن تحقيقها بمفردك..

تحدثت (مايا) مفسرة:

- أي أنك تستخدم شرور الناس لتحقيق شرورك الخاصة...

أجابها (مجدي) بغلظة:

- تفسير جاف ويحمل الكثير من الخطأ... أنا لا أملك شروركم، أو فالنقل أنني أجيد السيطرة عليها... ما أفعله هو أنني أستخدم هؤلاء في أغراض أسمى من أن تفهميها بكثير..

جاء دوري لأهتف بعصبية:

- كإرسالي لقتل ذلك الصحفي وعائلته.. وأين؟؟!!.. في مركز الشرطة حيث كنت أعمل!!

هزّ (مجدي) كتفيه ببساطة ليقول:

- قد تصدقني أولا... لكن قتلك لذلك الصحفي وعائلته لم يكن بأمر مني على الإطلاق... أنت نفذت هذه المهمة لأغراضك الشخصية..

صرخت بإستنكار:

- ماذا؟؟!!

فأجابني بهدوء مستفز:

- دعني أحكي لك أولاً عن ما حدث لك إن كان هذا يهمك... حين قمت بتنويمك أنت و(علي) ذلك اليوم، فعلت هذا بغرض التجربة البحت، دون أي نية لاستخدامكما في مخططي، لكن ما إن أصبحت عقولكما طوع يدي، حتى وجدت أن الإغراء أقوى بكثير من أن يقاوم.. فـ(علي) يملك بفضل ثراءه الفاحش، نفوذاً وسلطة قد يسهلا لي الكثير من الأعمال، أمّا أنت فلم أكن أتخيل أنك تحمل داخلك هذا القدر من العنف والجرأة... لذا أخذتكما معي إلى هذا المقر لتخضعا للتدريبات خاصة.. تدريبات جسدية وذهنية، ولن تصدقني أيضاً لو قلت لك أنك في أسبوع واحد حققت ما قد يحققه البعض في سنوات من التدريب المستمر... لا بد أنك شعرت بهذا.. لا بد أنك شعرت أن أقوى جسدياً على الأقل..

لم أجبه، لكني كنت متأكد أنه لا يكذب في هذه النقطة على الأقل... وتابع هو:

- وهكذا كان عليّ تغيير نسق حياتك ليتناسب مع المستقبل الذي

حددته لك، وكان أول ما قمت به هو أن أقنعتك بأن تطلق زوجتك... ولا أظن أنك نادم على هذا القرار الآن.. بل أعتقد أنك تسعر في قرارة نفسك أنني أسديت لك صنيعاً، أليس كذلك؟؟!

لثاني مرة أكاد أقسم أنه لا يكذب!!... وتابع (مجدي):

- في تلك الليلة أرسلتك لمركز الشرطة لتحضر لي بعض الملفات الخاصة... ملفات لا يجوز لأحد أن يطلع عليها لكنك لم تكن لتجادلني وأنت في هذه الحالة.. وكالعادة أرسلت من يراقبك للتأكد أن كل شيء سيتم على ما يرام.. وهاك ما أخبرني به مراقبك حين عاد.. في طريقك للمركز اصطدمت سيارتك بسيارة ذلك الصحفي (باهر). ورد فعل طبيعي خرج الصحفي من سيارته طالباً الشجار معك، أو تعويض لإصابة سيارته، لكنه لم يكن يتحدث لك حينها... بل كان يتحدث لنصفك المظلم المدرب جيداً على تخطي أي عقبة في سبيل تنفيذ المهمة... وهكذا قررت أنت ودون أي تدخل مني أن تقتل الرجل وعائلته الذين كانوا معه في سيارته، فأخذتهم معك تحت تهديد السلاح إلى المركز لتقتلهم بكل العنف الذي كان مكبوتاً داخلك والذي حررته أنا بتجربتي.. ولا بد أن هذا سبب لك صدمة عنيفة، جعلتك تفيق لتجد نفسك في هذا الموقف.. أنت قاتل ومحتجز لرهائن لا ذنب لهم سوى أنهم اقتربوا أكثر من اللازم من نصفك المظلم..

قال هذا كله، ثم لاذ بالصمت ليراقب رد فعلي...

أما أنا فكنت في حالة لا توصف من الذهول والمرارة وعدم التصديق..

إذاً فأنا قاتل في أعماقي دون أن أعرف!!

أنا من قرر ارتكاب هذه المذبحة، لمجرد أنني فقدت السيطرة على

نصفي المظلم... على شروري المدفونة...

على مستر (هايد)..!!

لكن مستحيل!!... لا يمكنني تقبل هذه الفكرة بأي ثمن..!!.. مستحيل!!

وبغضب متخاذل صحت:

- أنت تكذب... تحاول أن تهرب من مسئولية ما دفعتني لفعله..وحتى لو لم تكن تكذب، فأنت المسئول.. أنت من حولني إلى هذا المسخ..

هزّ (مجدي) رأسه موافقاً، وقال:

- في هذه النقطة أنت محق... لقد عجزت تماماً من السيطرة على كم العنف داخلك.. أنت أول حالة فشل للتجربة أواجهها، لكن لا بأس.. لا بد من بعض الخسائر المقبولة لتنفيذ مخططي..

سألته بعصبية:

- أي مخطط هذا الذي تتحدث عنه طيلة الوقت؟؟!!.. ما الذي يحدث هنا بالضبط؟؟!

عاد (مجدي) الوغد يبتسم ابتسامته الذئبية، مجيباً:

- ما تراه أمامك الآن هو ذروة نجاح تجاربي... كل من تراهم هنا من رجال ونساء يعملون بهمة ونشاط وصمت تام دون أن يعرفوا بهذا قط.. كلهم مرّوا بالتجربة في ظروف مختلفة، وفي كل ليلة يأتون إلى هنا، ثم يعودون إلى منازلهم مع مطلع الفجر ليتيقظوا دون أن يتذكروا شيئاً مما حدث.. قد يشعرون بنوع من الإرهاق صباحاً، لكن أحدهم لن يتخيل أن سبب هذا الإرهاق أنه كان يعمل بلا توقف طيلة الليل..

أدرت وجهي لأطالع وجوه هؤلاء الرجال والنساء الجامدة، وهم يعملون بتناسق وتنظيم من المستحيل أن يعملوا به لو كانوا مستيقظين حقاً!!

أياً كان ما أراه الآن، فهو مخطط مخيف... مخيف!!

سألت (مايا):

- وما الذي يفعلونه بالضبط؟؟!

أجابها (مجدي) وقد أخذ منه الحماس مبلغه:

- يكوّنون قاعد ضخمة من المعلومات... معلومات سياسية.. اقتصادية.. فنية.. عسكرية.. كل أنواع المعلومات المتاحة في كل مكان، ثم يقومون بفهرستها وتقسيمها في قاعدة معلومات خاصة صممها عباقرة كمبيوتر.. باختصار، كل ما يلزم لمنظمة الفوضى..

رددت من خلفه مستغرباً:

- الفوضى؟؟!!

أجاب (مجدي):

- نعم.. الفوضى... ألم تتساءل عن السبب الذي جعلك وجعل كل هؤلاء يحملون ذلك القدر من العنف داخلهم؟؟!.. إنها وليدة الأنظمة التي نحياها... الحياة المادية التي أصبحت تهيمن على أرواح العالم كله... الإنسان هو الكائن الوحيد الذي قضى مئات السنوات من التطور، لتقوده إلى قاع الهاوية الحضارية... انظر للعالم من حولك... حروب... دمار.. مجاعات... أكثر الدول غنى بالثروات الطبيعية هي أكثر الدول فقراً، وأكثر الدول ذات الواجهة الحضارية الأنيقة، هي أكثر دول ينتشر فيها العنف والشغب بكل صوره...النصف المظلم في أعماقك هو امتداد للنصف المظلم في المجتمع ذاته... وأنا قررت أن أحطم هذا النصف المظلم بأن أحطم الأنظمة ذاتها..

فكّرت لحظة في كل ما قاله، ثم قلت:

- حسناً.. أنت مجنون تماماً..

- ربما... لكن الأمر كله يحتاج لدرجة من الجنون ليصبح قابلاً للتنفيذ..

- وهل تعمل لوحدك في هذا كله أم أن هناك آخرون؟؟!

- بالطبع هناك آخرون... في كل مكان في العالم.. أكثر مما يمكن أن تتصور بكثير..

- وهل الوزير السابق (مراد البحيري) منهم؟؟!

لم يملك (مجدي) نفسه من الضحك، قبل أن يجيب:

- ذلك الوزير لا يعدو عن كونه وسيلة دفاعية.. هو أيضاً مرّ بالتجربة، وكل مهمته هي أنه لو رأى تلك البطاقة السوداء التي تحملها (مايا). فعليه أن يتصل بي ليخبرني بهذا، لأبدأ في إجراءات التخلص منها.. وهذا ما فعلته حين أرسلت (علي) للتخلص منها، للتخلص أنت منه..

كل شخص هنا يحمل وسيلة دفاعية خاصة بحيث لو اقترب من فهم كل ما يحدث تتم تصفيته بهدوء... وكما قلت مسبقاً.. خسائر مقبولة من أجل نجاح منظمة الفوضى..

هنا... وقد فهمت أخيراً كل شيء، أخرجت مسدسي لأسدده في وجه (مجدي) قائلاً بهدوء صارم لم يخل من مقت لا حد له:

- عزيزي (مجدي)... أنت وغد!!

ابتسم الوغد أمام فوهة مسدسي وقال:

- وأنت أحمق... أتظن أنني لم أضع هذا في حسباني؟!!

وقبل أن أفهم ما يعنيه هوت يد ضخمة على يدي لتطيح بالمسدس، فتحركت (مايا) بغريزية، لتنقض على ذلك الضخم الذي فتح لنا البوابة، فقمت أنا أيضاً مستعداً للمعركة..

أما (مجدي) فأخذ يرمق هذا كله بهدوء، وقال:

- هيا يا (سامي).. أرني إن كنت تتذكر تدريباتك... أنت من أحدثت هذه الندوب في وجه هذا الضخم في أحد هذه التدريبات..

صاح هاتف داخلي:

- أنا من أحدثت تلك الندوب في وجه هذا الدب؟؟.. إنني لن أستطع حتى أن أزحزحه من مكانه..!!

لكني تحركت بسرعة غير طبيعية لأتفادى لكمة سددها لي، وتحركت أطرافي لا شعوريا لأتخذ وضعاً قتالياً معقداً... ثم... ثم...

ثم تحرك مستر (هايد) داخلي من جديد..!!

لن أصف لكم المعركة، لكني سأقول أن فرص ذلك الضخم - البائس!! - كانت شبه معدومة أمامي أنا و(مايا) بكل تلك القدرات القتالية التي تفجرت داخلنا، وليدة تدريبات عشناها دون أن نذكر منها شيئاً...

وبعد خمس دقائق، كان الضخم قد سقط وقد فقد وجهه ملامحه، بينما وقفت أنا ألهث أمام (مجدي) البارد كالقطب الجنوبي، لأقول:

- والآن؟؟!

صفق (مجدي) بحبور، ثم قال:

- عظيم... عظيم.. مستواك تحسن بكثير، وأنت يا (مايا).. لم تفقدي مهارتك بعد كل هذه الفترة... رائع.. والآن يا عزيزي (سامي) هل ستقتلني هذه المرة بإرادتك الحرة، أم أنك ستلقي القبض عليّ لنذهب سوياً إلى مركز الشرطة لنرى قصة من سيصدقون هناك؟؟!

أجبته وأنا أنحني لألتقط المسدس:

- بل سأقتلك... أنا قاتل الآن على كل حال ولن يضيرني أن أضيف

ضحية جديدة لسجل ضحاياي..

وسددت المسدس لرأسه، لكن (مايا) أمسكت بيدي قائلة:

- لا داع لهذا... لقد انتهى أمره بالفعل..

ثم أنها أخرجت من جيبها جهاز اتصال لا سلكي كالذي كنت أحمله أيام كنت شرطياً، وقالت:

- لقد أخذت هذا من زميلك الذي جاء يقبض علينا في العيادة... لا بد أنهم سمعوا كل شيء الآن، وفي طريقهم لهنا..

التفت لها لأهتف بدهشة فرحة:

- (مايا)... أنت عبقرية..

أما (مجدي) فقد اربد وجهه، وهبّ من مقعده ليضغط على أحد الأزرار في الحائط من خلفه، لتتحول إضاءة المكان كله إلى اللون الأزرق، فهب كل من في القاعة من أماكنهم ليتجهوا بتنظيم وسرعة إلى المخرج الخلفي للمكان، بينما هتف (مجدي) بغضب لا حد له:

- خائنة..

وضغط على زر في الجدار، فأسرع ثلاث من الحراس ضخام الجسد تجاهنا، ليشير (مجدي) لهم، صارخاً وهو يبتعد:

- اقتلوهما فوراً..

وهكذا وجدت نفسي في موقف لا أحسد عليه..

(مجدي) والجميع يهربون.. والثلاث حراس يخرجون مسدساتهم، ليسددوها تجاهنا، وتلك الإضاءة الزرقاء اللعينة تجعل الرؤية غير واضحة بصورة أو بأخرى ... والخيار لي هذه المرة..

إما أنا أوهم..

وهكذا رفعت مسدسي تجاههم وأطلقت النار، في اللحظة التي أطلقوا فيها النار هم أيضاً...

أطلقت رصاصة من أجل الخدعة التي رسم (مجدي) تفاصيلها..

ورصاصة من أجل الصحفي وعائلته الذين قتلتهم دون ذنب جنوه...

ورصاصة من أجل (علي)...

ورصاصة من أجل مستر (هايد)!!!!

وأطلقوا هم عشرات الرصاصات..

وحين انتهى الأمر كانت جثث الحراس الثلاثة ملقاة أرضاً، وكانت الدماء تنزف من ثقب في جانب صدري بإطراد...

للحظة تجمد الزمن... تجمد المشهد كله أمامي في صورة العشرات يخرجون في صفوف، والإضاءة الزرقاء، وأدخنة الرصاصات ترقص في السماء...

ثم سقطت (مايا)!!!!

تهاوت فجأة جواري والدماء تنز من عدة ثقوب في جسدها ومن ركن شفتها، فلم أشعر بنفسي إلا وأنا أنحني صارخا:

- (مايا)... لااااا..

حركت عيناها الرمادتين الساحرتين لتنظر لوجهي بضعف بالغ، وقالت:

- آسفة... لم أتمكن من التحرك في الوقت المناسب... يا إلهي.. لقد أصابوك أنت أيضاً..

كنت في حالة لم تسمح لي بالشعور بإصابتي ولا بالدماء التي أفقدها بلا توقف.. كنت في حالة لم تسمح لي سوى أن أقول:

- (مايا)... أنا... لكن..

ابتسمت لأول وآخر مرة لتقول:

- لا وقت لهذا.. اصغ لي جيداً.. (مجدي) يكذب.. لقد أرسلك لقتل ذلك الصحفي وعائلته لأنه كاد يكشفه، وجعلك تفعل هذا في مركز الشرطة ليتخلص منك أنت أيضاً، بعد أن استنفذ حاجته منك..

لم أملك نفسي من أن أسألها سؤالي الأخير:

- كيف عرفت؟؟!!

أجابتني بآخر طاقة للحياة داخلها:

- لأنه جعلني شريكته في كل ما حدث... هذا هوما فعلته.. آسفة..

ثم أنها حاولت قول المزيد، لكن... لكن..

لكن الوهج في عينيها الرمادتين انطفأ...

والآن (مجدي) هرب...

والآن المكان أصبح خاوي على عروشه، يحمل آثار أشخاص لن يعرفوا أنهم كانوا هنا من قبل..

والآن أنا أتحامل على نفسي لأحمل جثة (مايا) المسكينة لتمتزج دماءنا، لأخرج من المكان، حيث بدأ صفير سيارات الشرطة في التعالي...

وحين خرجت أخيرا كانت أضواء سيارات الشرطة تنعكس على وجهي وهي تتوقف، ليخرج منها الكثير، دون أن أستطع تمييز ملامح أحد..

في الواقع أنني لم أصبح قادراً حتى على حمل جثة (مايا) أكثر من هذا...

في الواقع أنني لم أعد أقدر حتى على الوقوف... وبدا لي أن الأصوات من حولي تأتي من بعيد... بعيييييد...!!

كان هذا آخر ما أذكره قبل أن أتهاوى أرضاً لأغيب عن الوجود..

***

الإثنين ١٤/ ٩ - الساعة ٢,١٥ عصراً

المكان: وزارة الداخلية..

بالطبع لم أمت ليلتها، بما أنني من يحكي لك كل ما حدث... لكني كنت أتمنى الموت ألف مرة كل ليلة أتذكر فيها (مايا)...

الطلب الوحيد الذي طلبته مني في حياتها هو ألا أدعهم يقتلوها، وأنا فشلت في تحقيق أمنيتها الوحيدة..

والآن... أشعر وكأنني فقدت شيئاً لن أجده في حياتي مجدداً..

بالطبع تم نقلي للمستشفى حيث أجروا لي عملية جراحية عاجلة، ثم فترة في العناية المركزة، ثم المزيد من الفحوصات والإجراءات..إلى آخر هذا الهراء، لكن الغريب أن هذا كله تم بشكل سري، وفي مستشفى عسكري خاص..

بعد هذا بدأت مرحلة الاستجواب والتحقيق، وفحوص خاصة من أساتذة الطب النفسي، وكل تلك الأشياء التي تجعلك تندم أنك لم تلق مصرعك تلك الليلة...

وفي النهاية أرسلوا لي من يخبرني بأن وزير الداخلية يرغب في مقابلتي... وبالطبع وافقت... كأنني أملك الخيار!!

وها أنا أجلس أمامه الآن، وقد أصبحت أحمل في أعماقي أطناناً من المرارة التي تجعلني عاجزاً عن التركيز في شيء..

بدأ هو الحديث ليقول:

- عزيزي (سامي)... أعرف أنك لا زلت تتعافى من إصابتك، لكن ما أود أن أعرضه عليك الآن لا يحتمل التأجيل... في الواقع لقد جئت لأعرض عليك صفقة..

رددت من خلفه في حذر:

- صفقة؟؟!!

أجابني الوزير:

- نعم.. صفقة... أو فلنقل اقتراح قدمه لنا الخبراء... أنت تعرف بالطبع تفاصيل كل ما حدث، لذا لن أطيل عليك بإعادة سردها... ما لا قد تعرفه أن الدكتور (مجدي) هرب من البلاد قبل أن نتمكن من اللحاق به، ودون أن نعرف الوجهة التي هرب لها وإن كان لدينا اعتقاد خاص أنه في (فرنسا).. المشكلة أن تلك المنظمة التي صنعها حقيقية وفي منتهى الخطورة ... لقد قمنا بفحص أجهزة الكمبيوتر التي تركها في المقر من خلفه، وقمنا باستجواب بعض ممن عملوا معه دون أن نحصل منهم على شيء، فلا أحد منهم يذكر أي شيء مما حدث، والأسوأ من هذا كله أن بعض هؤلاء الأشخاص يعملون في مناصب حساسة ويطلعون على أسرار في غاية الخطورة والخصوصية، ولوكان الدكتور (مجدي) قد حصل عليها، فنحن في مأزق حقيقي..

سألته وقد بدأت أشعر بالشك:

- وما المطلوب مني بالضبط؟؟

صمت الوزير برهة، ثم أجاب ببطء:

- الواقع أن وضعك معقد قليلاً... نحن نعرف أنك ارتكبت جريمتك تحت تأثير التجربة التي أجراها عليك دكتور (مجدي)، لكن هذه القصة من الصعب شرحها للعامة، وبالتالي من الصعب أن تعود لعملك أو لحياتك التقليدية كما كانت..

سألته وقد تعاظم شكي أضعافاً وأضعافاً:

- ما الذي تقصده بالضبط؟؟!!

- أقصد أن حياتك كـ (سامي محمود) قد انتهت في تلك الليلة، وهذا ما أعلناه للجميع، ووجودك هنا وعلاجك وكل هذا تم بشكل سري بحت، فلقد قرر الخبراء أن أفضل ما يمكن أن يحدث لك هو أن تحصل على هوية جديدة ووظيفة جديدة في مكان بعيد... تماماً كما يحدث في برنامج حماية الشهود في الخارج..

هكذا إذن...

إذن فهذا هو ثمن المعرفة الذي وعدني به (مجدي)... ويا له من ثمن!!

أن أخسر هويتي... أن أخسر ماضيّ بكل ما حدث فيه لأبدأ من جديد بلا أمل في العودة..

سألت وأنا أشعر بثقل مخيف يجثم على صدري:

- وماذا لو رفضت؟؟

أجابني بلهجة محايدة:

- سيكون هذا خيارك، وستضطر لتحمل عواقب هذا الاختيار.. فحتى لو مررت من المحاكمة وتم تبرئتك، لن يغفر لك العامة ما فعلته أبداً.. على كل حال فكّر فيما قلته..

سألت:

- وما هي الوظيفة التي سأحصل عليها لو وافقت؟

أجابني بلهجة خاصة:

- مسئول أمني للسفارة المصرية في (فرنسا)..

آآآآآآآآآه....

الآن فهمت!!

يريدونني أن أبحث لهم عن (مجدي)...

أن أتحول من طريد إلى مطارد..

"هه... ما هو رأيك؟؟"

سألني الوزير، فلذت بالصمت قليلاً ثم قلت:

- موافق..

كأنني أملك الخيار!!!

***

هذه هي قصتي... أو فلنقل قصة (سامي محمود)، فلم أعد أمت لهذا الرجل بصلة بعد أن خرجت من مكتب الوزير..

أنا الآن (أكرم رشوان) مسئول الأمن في السفارة المصرية في (فرنسا)، يعرفني الجميع بكوني رجل صامت يفضل العزلة على مصاحبة البشر..

ما لا يعرفه أحد هو أنني أصبحت أخشى الاقتراب من البشر، فكل ما أراه الآن هو أنصافهم المظلمة، مغلفة بغلاف اجتماعي أنيق..

في كل ليلة أسير وحيداً في الطرقات بحثاً عن (مجدي)، أوعن أي شخص يخرج من منزله بملامح جامدة ليذهب لعمل - لن يذكر عنه شيئاً - في مكان مهجور...

وفي كل ليلة أرى وجهها في ضوء القمر... (مايا)... لكم أفتقدها الآن!!... ولكم أعرف أنني لن أراها مجدداً!!!

هذه هي قصتي أيها السادة... ماضي مخيف... بحث مستمر... وعذاب بلا نهاية...

ربما قابلتني يوماً لوزرت (فرنسا)...

ربما كنت أنت أحد أصحاب الوجوه الجامدة... تستيقظ كل ليلة دون أن تدري، لتعمل فيما لن تذكر عنه شيئاً في الصباح... فقط مجرد إرهاق بسيط ستشعر به، وستظن أنك لم تحظ بقدر كاف من النوم!!

ربما كنت تحمل نصفاً مظلما داخلك دون أن تعرف حتى بوجوده... ربما..

ما أعرفه أنا هو أنني أحمل بين ضلوعي نصفي المظلم، أخذه معي في كل مكان... يذكرني دوماً... وبلا توقف...

بالذي فعلته...

سامي محمود

٢٠٠٣/١٠/٢

(فرنسا)

الورقة الثانية

قصة فرنسية

الفصل الأول

أشياء حدثت

كان اسمي (سامي محمود)...

كنت ضابط شرطة ومتزوج من امرأة عادية، أحيا معها حياة مملة، والأيام تمر بي مر الكرام، دون أن أضيف لها شيئًا، أو أن تضيف هي إليّ شيء..

كنت كذلك حتى قمت ذات ليلة بزيارة صديقي الدكتور (مجدي) الطبيب النفسي، أنا وصديقنا المشترك (علي)، رجل الأعمال الناجح، حين قرر (مجدي) أن يجري علينا تجربة تنويم مغناطيسية حمقاء، فوافقت أنا و(علي) على أساس أن الفكرة سخيفة إلى الحد الكافي، الذي يثبت أنها لن تسبب أي ضرر... هذا ما ظننته حينها!

بالطبع نمنا بعد أن حقننا (مجدي) بمهدئ خفيف، وطلب منا أن نحدق في شاشة كمبيوتر، وحين استيقظت مجددًا، كان الوضع قد اختلف بكثير..

كنت أقف في قسم الشرطة الذي أعمل فيه، وأنا أمسك ببندقية أسددها إلى بعض الرهائن، وفي الغرفة بجواري كانت جثث ضحاياي تنتظرني..!!

نعم أيها السادة، لقد استيقظت لأجد نفسي قاتل ومحتجز رهائن، والأدهى من هذا أن هناك أسبوع كامل قد مرّ عليّ منذ أن نوّمنا – الوغد – (مجدي) في عيادته، دون أن أذكر عن هذا الأسبوع شيئًا..

وبعد هروبي من القسم في هذه الليلة، كان عليّ أن أبدأ رحلة بحث شاقة وعنيفة لأعرف ما الذي فعلته... وهاك ما عرفته..

لقد طلقت زوجتي... لقد تركت عملي.. لقد قتلت صحفي وزوجته وطفليه.. لقد دمرت حياتي دون أن أفهم حتى لماذا؟!!

ثم ظهرت (مايا) في الأحداث..

(مايا) كانت ممرضة الدكتور (مجدي) وكانت تليق بأن تكون مريضة عنده، لكنها كانت من ذلك الطراز من الأشخاص الذين يملكون حضورًا وتأثيرًا، قد يغيرا مسار أحداث أي قصة..وهذا ما فعلته هي دون تقصير..

لقد أجرى (مجدي) عليها تجربته هي أيضًا، وكانت تملك أول الخيط للبحث عنه، متمثل في بطاقة صغيرة، ووزير سابق، وقاتل يسعى خلفنا...

وكان هذا القاتل هو صديقنا المشترك (علي) بعد ما أجرى (مجدي) عله تجارب من نوع مختلف...

أذكر أنني فعلت الكثير والكثير في هذه القصة..

لقد قتلت (علي) دون أن أعرف أنه هو، وواجهت (مدحت) زميلي في العمل، وكدت أقتله هو الآخر لأهرب منه، واستطعت الحصول على خيط جديد من كمبيوتر (مجدي) في عيادته، إذ عثرت على البرنامج الذي استخدمه معي أنا و(علي)، وقررت (مايا) أن تخضع للبرنامج مرة أخرى، لتعرف هي الأخرى ما الذي فعلته، بعد ما أجرى عليها (مجدي) تجربته في الماضي..

ونفذت التجربة عليها، واستعادت هي ذلك الجزء المظلم من ذاكرتها، لتقودني إلى مقر (مجدي)، حيث كانت المواجهة الأخيرة..

وهناك توالت المفاجآت على نحو غير مسبوق... (مجدي) جزء من منظمة جديدة تسعى لتحطيم الأنظمة ونشر الفوضى، ولقد قام بإعادة برمجة عقول الكثيرين ليجمعوا له كمًا غير محدود من المعلومات..

معلومات عن كل شيء وأي شيء..

وكل من يعملون لجمع هذه المعلومات لا يعرفون أي شيء عمّا ما يفعلوه.. مجرد إرهاق بسيط في الصباح حين يستيقظون، وسيظنون أنهم لم يحظوا بالقدر الكافي من النوم..

وأنا و(علي) كنّا جزء من هذا الكيان، بعد أن عبث (مجدي) بعقولنا، مطلقًا ما أسماه بالنصف المظلم، داخل كل إنسان.. ذلك الجزء الذي يحمل كل شرورنا، والذي لو أطلق سراحه، قد يتحول أي واحد منا إلى كابوس حقيقي... لكنه استغلني أنا و(علي)، في مهام من نوع مختلف لم نعرف عنها أي شيء حتى الآن، انتهت بإفاقتي من التجربة، وبموت (علي) على يدي بعد أن كاد يقتلني أنا و(مايا)...

(مايا) التي اكتشفت أن دورها كان أسوأ من هذا كله بكثير...

كانت شريكته - غير الواعية - في هذا المخطط العجيب..

المهم.. انتهت الليلة، بموت (مايا) بين ذراعي بعد أن فشلت في تحقيق أمنيتها الوحيدة التي طلبتها مني وهي ألا أتركهم يقتلوها، وهرب (مجدي)، وأصبت أنا إصابة بالغة استيقظت بعدها لأعرف أن حياتي القديمة قد انتهت إلى الأبد...

صحيح أنني قتلت تحت تأثير التنويم المغناطيسي وبتجربة (مجدي) الرهيبة، لكن ما خسرته لم يعد من الممكن تعويضه، لذا عرضوا عليّ تلك الصفقة..

أن أذهب إلى (فرنسا) – المكان الذي يظنون أن (مجدي) قد هرب إليه – لأعمل في سفارة مصر هناك، كمسئول للأمن ، بهوية جديدة ودون أن يعرف أحد عن ماضيّ شيئًا..

وبالطبع وافقت.. كأنني كنت أملك الخيار..

لكن هذا ليس كل ما حدث... هناك المزيد..

***

اسمي الجديد هو (أكرم رشوان).. وهو اسم سخيف ذو رنة قصصية مميزة، لكنه لم يكن اختياري على كل حال.. يبدو أن المخابرات هي الجهة المسئولة عن نقلي إلى هنا.. من غيرهم يستخدم مثل هذه الأسماء؟!

لقد انتقلت إلى السفارة المصرية في (فرنسا) ، منذ شهرين لتنتهي حياتي في مصر إلى الأبد ، ولم آسف كثيرًا لهذا ، فلا يوجد من سيفتقدني على كل حال..

لقد طلقت زوجتي حين كنت تأثير تجربة (مجدي) – وهو الجميل الوحيد الذي أسداه لي في الواقع – ووالداي متوفيان منذ زمن، ولا يوجد من لديه استعداد لصداقة قاتل، أصبح لا يملك كل ذكرياته.. لكن عملية الانتقال ذاتها لم تكن بهذه البساطة..

هناك الإجراءات القانونية، وعملية صناعة ماضي منمق لهذا الـ(أكرم رشوان) ، ثم جاء دور تعلم اللغة الفرنسية ، وهي لم تكن عملية صعبة.. في الواقع لم تكن مشكلة تعلم أي شيء جديد صعبة بالنسبة لي...

لقد أطلقت تجربة (مجدي) طاقات جديدة في عقلي وجسدي، لا

أعتقد أنني سأتعرف عليها كلها في وقت قصير، لكن هاك ما اكتشفته حتى الآن..

لقد أصبحت خارق الفهم، أستطيع تعلم لغة مثل الفرنسية وإلى درجة الإتقان في شهر واحد فقط، وأصبحت قدرتي على التركيز مبهرة، حتى أنني أستطيع القيام بخمس أعمال في الوقت ذاته، والجزء الممتع في الموضوع هو أن جسدي أصبح أكثر قوة ومرونة وكأنني أعرف مكان كل عضلة في جسمي وأجيد السيطرة عليها تمامًا، لكن لم تأت أي فرصة لتجربة هذه القدرات في مواجهة مباشرة حتى الآن.. لكنها ستأتي حتمًا..

فهذا هو سبب إرسالي إلى (فرنسا) في المقام الأول.. البحث عن (مجدي)...

لسبب ما يعتقدون أنه جاء إلى (فرنسا)، لكنهم لم يخبروني بالتفاصيل كلها.. وعلى الرغم أنهم قاموا باستجوابي وإخضاعي لكل أنواع تجارب التنويم المغناطيسي – ومنها تجربة (مجدي) ذاته بعد أن حصلوا على برنامجه – إلا أنهم لم يحصلوا مني على شيء مفيد عن الفترة التي قضيتها مع (مجدي) حين كنت تحت تأثير تجربته، التي انتهت بكارثة قسم الشرطة..

سيظل هذا الأسبوع من حياتي مجهولاً إلى الأبد..

لكن لا بأس.. سأبحث عنه كل ليلة وكل لحظة ومع كل نفس يتردد في صدري..

الانتقام هو الدافع الوحيد الذي يحركني، وإن لم يكن من أجلي، أومن أجل ضحاياي، فليكن من أجلها هي..

(مايا)..

لكم أفتقدها... ولكم أحتاج إليها الآن..

لا.. لم يكن حبًا أفلاطونيًا، لكنها كانت – وفي أخطر مراحل حياتي – أقرب الناس إليّ، وأكثر من احتاج لمساعدتي دون أن أستطع أن أقدم لها شيئًا..

لكن هذا أيضًا ليس كل شيء، ف(باريس) مكان جميل لتحيا فيه، وقادر على إلهائك عن ذاتك نفسها، لولا بضعة أشياء حدثت، لم تكن في الحسبان...

نعم.. هناك المزيد من الأشياء التي حدثت، لكن دعني أعرفك على حياتي في بلد النور والجمال كما يسمونها..

***

عملي في السفارة هو الهراء ذاته..

كل المطلوب مني هو أن أقف في عدة أماكن وفق جدول زمني رتيب، والتدخل في حالات الطوارئ التي لم تأت حتى الآن.. ولن تأتي إلا لو قررت أنا تفجير نفسي قتلاً للوقت!!

التغيير الوحيد الذي كنت أحصل عليه، كان يحدث حين أرافق السفير المصري (صلاح الغريب) في زياراته الخارجية لبعض المسئولين، ولعقد بعض الاتفاقيات، وكل هذه الأمور الرسمية التي لا أحسب أن أحدًا سيهتم بفهمها..

السيد (صلاح) كان يعرف قصتي بالطبع، مما ولّد نوع من الألفة بيننا، أضف إلى هذا أن الرجل لم يتزوج قط، وبالتالي لا أبناء له، ويبدو أن استراح لفكرة أن ينصب نفسه والدًا لي، يقربني منه بلا تحفظ، وينظر إليّ بنظرته الأبوية، وهو يسألني عن أحوالي كل ليلة حين تجمعنا استراحة السفارة..

صحيح أنني كنت أفضل أن أحتفظ بوحدتي المقدسة، لكن هذا الرجل يستحق استثناءً خاصًا به، فهو ممتع طالما لا يحمل هموم العمل على كتفيه، ولا يتأخر في مد يد العون إليّ إن احتجت إليه...

لم يكن لي احتكاك بباقي موظفي السفارة، وكان قربي من السفير، يجعلهم يظنون أنني أتكبر عليهم، مما دفعهم لتجنبي هم أيضًا، وهكذا تحققت لي الصفقة التي كنت أريدها..

العمل يستمر منذ الساعات الأولى للصبح وينتهي في الثامنة مساءً، بعدها يمكنني أن أتجول في (باريس) ما شئت، والمدينة – والحق يقال – جنة حقيقية في الليل..

لست من هواة الجمال والمتاحف والمناطق الأثرية، بل أنني حتى لم أفكر في زيارة المتحف المصري، حين كنت في مصر ولو لمرة واحدة، لكن (باريس) مدينة جميلة حقًا..

ثمة سحر تمتلكه بعض المدن.. شيء في الهواء ذاته.. شيء لا يمكن وصفه..

لكنه شيء قادر على مساعدتك على نسيان همومك ولو لفترة، وأنا لم أجد هذا الشيء إلا في الإسكندرية وهنا في (باريس)..

لكن الحياة لا تكتمل بدون منغص، وكان هذا المنغص امرأة اسمها (لارا)..

***

(لارا) هي طبيبتي النفسية، التي اختاروها لتواصل رحلة انتزاع المعلومات من رأسي، وهي طبيبة نفسية خبيرة، حائزة على شهادات دولية تثبت أنها تفهم ما الذي تقوله بالضبط، حتى لو بدا ما تقوله مجنونًا غير منطقيًا لغير المتخصصين..

(لارا) لها مهمة واحدة مدفوعة الأجر، وهي أن تُحيل حياتي إلى جحيم!!

مرتين في الأسبوع أذهب إليها، لتبدأ هي في جلساتها النفسية، التي لا تكف فيها عن ترديد جملة (أرجوك تذكر.. أنت تعرف ما حدث، لكن عقلك يعرف أنك خائف من معرفة الحقيقة)..

وفي كل مرة أذهب إليها، نصل إلى ذات النتيجة... لا شيء!

أنا لا أذكر شيء عن الأسبوع الذي قضيته مع (مجدي)، ولست خائفًا من معرفة ما حدث – لا يوجد ما هو أسوأ مما أعرفه حتى الآن – لكن لا يوجد شيء في ذاكرتي عن هذه الفترة...

هناك ثقب أسود كما تسميه (لارا)، يلتهم هذا الجزء من ذكرياتي..

واليوم أنا ذاهب إليها، لنحاول للمرة الألف، اقتحام هذا الثقب والعودة منه سالمين..

***

أنهيت عملي في السفارة في تمام السابعة، لأرتدي معطفي الجلدي الأسود، ثم اتجهت إلى شوارع (باريس) الباردة الفاتنة، متجهًا إلى عيادة (لارا)..

بصورة أو بأخرى أستطيع أن أزعم أن ما حدث لي لم يكن السوء المطلق، وأنه كان يحمل بعض النقاط الإيجابية.. فلولا ما حدث، لكنت الآن لا زلت متزوجًا، أعود من عملي في القسم مع ثلة الأوغاد، وأبحث الآن عن ثغر لأوقف فيه سيارتي..أما الآن أنا في شوارع (باريس) التي لا تتوقف فيها الحياة لحظة، أمامي بضعة ساعات من السخف، وبعد هذا

الليل لي أفعل فيه ما يحلو لي..

استغرق مني الطريق نصف ساعة من السير، حتى وصلت للبناية التي تحوي عيادة الدكتورة (لارا)، وانتظرت حتى قاربت الساعة الثامنة إلا الربع، قبل أن أبدأ في صعود الدرج..

الفرنسيون ليسوا قومًا ودودين إلى هذه الدرجة التي يظهرون بها في الأفلام، ولا يطيقون من يأتي قبل ميعاده ولو بدقيقة، ويعتبرون هذا نوع من قلة الذوق.. لذا كان عليّ الانتظار في الممر أمام عيادة الدكتورة (لارا) حتى دقت الساعة تمام الثامنة لأدخل إلى عيادتها.. و..

وأنتم تعرفون أنني أهوى منح النصائح المجانية، لذا هاكم نصيحة مجانية أخرى..

أي شيء تراه في الأفلام الفرنسية هو محض هراء... فالنساء في (فرنسا) لسن بهذه الفتنة التي يظهرن بها على شاشات السينما، إلا لو كانوا قد انتقوا لي الدكتورة (لارا) خصيصًا من وسط كل النساء في (فرنسا)...

بدينة هي (لارا)، تلك البدانة التي تجعلك تخشى أن تصطدم بك وهي تحرك محيط جسدها الهائل، وإلا سحقتك تمامًا... وهي تحمل على رأسها شعر أسود منكوش، وترتدي منظار طبي صغير جدًا، من باب الأناقة، تبدو عيناها من خلفه تحدقان فيك، بثبات يجمد الدم في عروقك، والمفروض مع هذا كله أن تشعر أمامها بالأمان إلى الحد الكافي، لتمارس هي مهنتها كطبيبة نفسية!!

المفروض أن أجلس أمام هذه المخلوقة، مرتين في الأسبوع، لأتذكر ما الذي فعلته مع (مجدي)، لكن ما يحدث كل مرة هو أنني لا أتذكر سوى أهوال الحرب العالمية الثانية، وبعض الكوارث الطبيعية الأخرى التي يتعذب فيها الضحايا قبل أن يموتوا ميتة شنيعة..

دخلت عليها فابتسمت هي ابتسامتها الروتينية التي تمنحها للجميع بلا مقابل، وأشارت إلي بالجلوس، قائلة:

- مسيو (أكرم).. أم تفضل أن أناديك مسيو (سامي)..

- مسيو (أكرم) من فضلك، فلم أعد أمتّ لـ(سامي) بصلة..

- خطأ... مهمتنا هنا أن نتذكر ما الذي فعلته حين كنت (سامي).. لا تنس هذا..

- لنبدأ إذن..

تبعتها إلى الشيزلونج المعتاد، وشغّلت هي بعض الموسيقى الفرنسية التي تقطر عذوبة، ثم قربت وجهها من وجهي، لتلفحني بأنفاسها المفعمة برائحة الكحول، قائلة:

- حاول أن تسترخي... أغمض عينك. واطرد جميع الأفكار من رأسك..

أغمضت عيني، حتى لا أنفجر في البكاء، وواصلت هي:

- والآن حاول أن تعد بذاكرتك إلى الوراء... أن تتذكر... أنت (سامي) وها هو مسيو (مجدي) يقف معك.. هل ترى أين تقفان؟!

- في جهنم!

- عظيم... ركّز أكثر وستتمكن من وصف جهنم هذه لنا.. هذا هو المطلوب

- أنا في أقصى درجات تركيزي..

- حاول أكثر..

والحقيقة هي أنني كنت أحاول حقًا... كنت أعصر رأسي بحثًا عن أي ذكرى تمت للأسبوع الذي قضيته مع (مجدي) بصلة.. لكني كنت عاجز تمامًا عن الحصول على طرف أي خيط..

أقصى ما أستطيع الوصول إليه ه وأن أراه يقف أمامي مبتسمًا بانتصار، وهي يرتدي معطفه الطبي الأبيض، والخلفية من خلفه ومن حوله بيضاء تمامًا..

وكانت هذه الصورة تصيبني بالغضب الكافي لأفقد تركيزي على الفور..

يجب أن أتذكر... يجب... أريد أن أنتهي من هذا العذاب.. أريد أن أنتقم... أريد أن أتخلص من أنفاس الكحول هذه!!

وبعد عشر دقائق كاملة، هززت رأسي لأقول في أسف:

- لا شيء.

مطت (لارا) شفتيها، كأنما كانت تتوقع هذا، وقامت من مكانها وهي تقول:

- حسنًا.. لم أكن أريد أن ألجأ إلى هذا الحل.. لكن يبدو أننا لا نملك سواه..

- أي حل؟!

- التنويم المغناطيسي..

- لقد جربوا معي كل الطرق...

- لكنهم لم يجربوا طريقتي...

قالتها، ثم غابت في الغرفة المجاورة للحظة، قبل أن تعود وهي تحمل محقن يحوي سائل شفاف، أخذت تفرغ الهواء منه بهدوء، وهي تقول:

- اكشف لي ذراعك من فضلك..

شعرت بنوع من القلق، يتحرك داخلي، وأنا أنظر إلى هذا المحقن، متذكرًا تجربة (مجدي) التي أجراها عليّ، لأقول:

- ما هذا؟!!

- مهدئ.. سيساعدك على الاسترخاء..

- تمامًا كما قال لي (مجدي) حين أجرى تجربته..

- لا تقلق، والآن...

وببساطة تامة، دست المحقن في ذراعي، لأشعر بتلك الوخزة القصيرة، ثم بالسائل البارد، يقتحم وريدي، ثم...

ثم بدأ الخدر يغزو ذراعي، ببطء أولاً، ثم انتشر في جسدي كله...

ومن بعيد أتى صوت (لارا)، يقول:

- أنت الآن في حالة استرخاء تامة، كل ما أطلبه منك، هو أن تغلق عينيك، لكن لا تستسلم للنوم مهما كان السبب... كل ما ستفكر فيه الآن هو(مجدي).. أنت معه الآن، ولو استسلمت للنوم سيقتلك، لذا يجب أن تقاوم النعاس الذي تشعر به..

كنت بالفعل أشعر بنعاس عجيب يجذبني إليه ببطء واثق، لكني حاولت الاحتفاظ بقدرتي على التركيز، وأخذت أتخيل نفسي أقف مع (مجدي) في عيادته، و.. و...

وبدأ شعور قديم يستيقظ في أعماقي...

شعور بالسقوط، والضوء المبهر يغمرني من كل اتجاه، على نحو أغشى عيني...

تمامًا كما حدث لي حين أجرى (مجدي) تجربته عليّ...

(مجدي)... أنا أراه الآن في وقفته المستفزة، ينظر إليّ مبتسمًا ببرود...

أراه وأسقط أكثر...

ثم أراها... (مايا)... تنفث دخان سيجارتها، فيتخذ الدخان

أشكال عجيبة تحلق حولي، وأنا أستمر في سقوطي اللانهائي، ثم تتبدد الأشكال، ويتبدد الضوء...

ثم أرى ذلك الحلم العجيب الذي كان يراودني منذ التجربة... قاعة ينحني فيها طيف رجل على جثة رجل ملقاة على أرض القاعة...

لسبب ما أشعر أن لهذا الحلم أهمية خاصة. لكني لا أستطيع أن أحدد كيف..

من هذا الرجل؟؟ ومن هذه الجثة؟؟وأين هذه القاعة؟؟!!

أسئلة كثيرة لا إجابة لها كالمعتاد، ولم ينقذني منها سوى يد الدكتورة (لارا) الغليظة، إذ أخذت تهزني بعنف، وهي تقول:

- مسيو (سامي).. استيقظ... أنا لا أملك الليل بطوله..

فتحت عيني بصعوبة، لتطالعني هي بوجهها السمح، وهي تسأل:

- هل تذكرت شيئًا؟!

- لا.. لا..

- لا بأس.. سنواصل في المرة القادمة..

هززت رأسي موافقًا، ثم تحاملت على نفسي، لأغادر المكان بخطوات غير متزنة، وصوت (لارا) يدوي من خلفي:

- مسيو (سامي).. سأنتظرك..

لكني لم أقو على الرد، بل واصلت طريقي إلى خارج المبنى، لتستقبلني (باريس)، بليلها البارد..

يجب أن تنتهي هذه المأساة.. يجب..

لكن كيف؟!!

هذا هو السؤال..

***

حين عدت إلى السفارة، كان عقارب الساعة تشير إلى بعد منتصف الليل بقليل، وكان مبنى السفارة من الداخل شبه خاليًا، وقد استبدلت الأضواء الساطعة، بإضاءة خافتة مريحة للعين، فاتجهت إلى الاستراحة، وأنا أشعر بإنهاك عجيب..

وبالطبع وجدت السيد (صلاح) هناك، كعادته يحتسي فنجان من القهوة – التي تساعده على النوم كما يقول- ويقرأ في كتاب ضخم، وما إن رآني، حتى أشار إليّ بالجلوس قائلاً:

- عدت أخيرًا... تعال..

ألقيت بجسدي المنهك على الأريكة أمامه، فترك هو الكتاب، ومال عليّ ليسألني بصوته الهادئ:

- هل ذهبت إلى الجلسة مع الدكتورة (لارا)؟!

أومأت برأسي إيجابًا، فربت هو على ركبتي، قائلاً:

- أدرك صعوبة الأمر عليك.. لكن لا بأس.. سينتهي هذا كله في يوم ما..

- هذا لو ظللت حيًا حتى يأتي هذا اليوم..

- لقد عانيت أكثر مما ينبغي، وهذا لا يعني إلا شيء واحد، أن القدر قد اختارك لشيء ما، وأنه يعدك لهذا الشيء بكل ما تمر به..

- هل لي أن أسألك شيئًا؟!

- بالتأكيد..

- ألا توجد طبيبة نفسية أكثر أنوثة من (لارا) هذه؟!

انفجر السيد (صلاح) في الضحك، وقام ليربت على رأسي، قائلاً:

- ألم أقل لك أنك شقي؟... لا ترهق نفسك بالسهر، فسأحتاج إليك غدًا.. سنذهب إلى غداء عمل..

- أين؟!!

- في (ماكسيم) يا فتى... أشهر مطعم في (باريس) على الإطلاق.. لكوني سفير، مميزات كما تعلم..

ثم إنه لوح بيده، وغادر الاستراحة، لأبقى أنا وحدي مجددًا...

لوكان القدر قد انتخبني لشيء ما كما يقول، فمتى يأتي هذا الشيء؟؟!

لا يهم ما هو هذا الشيء، فلا يوجد ما هو أسوأ مما أنا فيه الآن، المهم أن أرتاح...

المهم أن أجد إجابات لأسئلتي...

المهم أن....

***

استيقظت في اليوم التالي مع الساعات الأولى للصباح، لأتناول فطورًا فرنسيا من القهوة الفرنسية الشهيرة، وقطع (لكرواسون) التي لا تمت بصلة لذلك الهراء الذي كنت أتناوله في مصر... هنا بلد (الكرواسون) الأصلي، والمجد ل(فرنسا)!

بعد ذلك بدأت أمارس عملي الجديد، في التنقل من مكان لآخر داخل السفارة، دون أن أقدم خدمة لأحد، أو أن أكون ذو فائدة حقيقية لأحد..

وفي الثانية عشرة ظهرًا، طلبني السيد (صلاح) لأستعد لرحلتنا إلى (ماكسيم) أشهر مطاعم (فرنسا) على الإطلاق.. سيجتمع هو ببعض السادة الفرنسيين لعقد سلسلة من الاتفاقيات، التي يهز الجميع فيها رأسهم بامتنان، دون أن يصلوا إلى شيء مهم، ثم ينهون عملهم بوعد بغذاء جديد في مطعم آخر..

كل المطلوب مني أن أجلس على مقربة من السفير، تحسبًا لأي طارئ، وسأتناول غذاء فاخرًا على نفقة السفارة، ثم أعود لأمارس حماقاتي المهنية، في السفارة من جديد..

استعددت بأن ارتديت أبهى حلة أمتلكها، وأخذت أنتظر في سيارة السفارة، حتى وصل السيد (صلاح)، الذي لم يكد يراني بهذه الأناقة، حتى قال مبتسمًا:

- (أكرم).. إذن فلقد قررت أن تستغل الفرصة للتعرف على حسناوات

- أتعرف على فتاة تتناول طعامها في ماكسيم؟! أنا لم آتي هنا لاستثمار ثرواتي كما تعلم..

- ولم لا؟! هنا لا يوجد ذلك السخف المتعلق بالماديات..

وتحركت بنا السيارة لتجوب شوارع (باريس)، متجهة إلى المطعم، وأخذت أنا أرمق الشوارع والمنازل والمارة، مستسلمًا لحالة من الشرود..

ورغمًا عني تذكرت زوجتي....

المرأة التي جعلتني أدرك أن السخف المتعلق بالماديات، قد يكون مهمًا بحق...

من الغريب أن تكون مطلقًا من امرأة، لا تذكر حتى لماذا تزوجتها... وهنا تأتي نصيحة جديدة مجانية أمنحها لك...

لا تتزوج!!

ثم حدث ما جعلني أنتفض من حالة الشرود التي كنت فيها، وجعل قلبي يخفق بأضعاف سرعته الطبيعية..

فلقد رأيته...

رأيت (مجدي)!!!!!

***

كان يقف هناك...

كان يقف أمام متجر صغير لبيع الصحف، يقلب في صفحات أحد المجلات، بهدوء حين رأيته ورآني، ليأخذ أغرب ردة فعل ممكنة..

ابتسم..!!... الوغد الحقير كان يبتسم، قبل أن يلقي بالمجلة التي في يده، ليختفي عند الناصية التي يقف بالقرب منها، فلم أشعر بنفسي إلا وأنا أصرخ في السائق ليتوقف، بينما انتابت الدهشة السيد (صلاح) الذي هتف:

- (أكرم).. ما الذي حدث؟!

لكني لم أجبه، بل انتهزت لحظة توقف السائق، لأقفز من السيارة، متجاهلاً أبواق السيارات التي أخذت أجري أمامها كالمجنون، لتغطي على هتاف السيد (صلاح) من خلفي..

إنه هو... هو... هو..

(مجدي)..

أخذت أتقافز بين السيارات التي بدأ سائقيها في إمطاري بالسباب الفرنسي المهذب، حتى وصلت إلى الناصية التي اختفى عندها (مجدي)، فرأيته في نهاية الشارع يستعد لركوب سيارته بتمهل شديد، كأنه كان ينتظرني حتى أراه.. وما إن رآني حتى لوّح إليّ بيده كأنه يودعني، ثم انطلق بسيارته، بينما أنا ألهث بعنف وأنا أجري بأقصى سرعتي تجاهه..

إنه هو.. هو.. وسيهرب مني مجدداً!!!

من المستحيل أن أهجم على أحد السيارات لأنتزع قائدها من مكانه، ولأبدأ في مطاردة (مجدي) في شوارع (باريس) كأننا في قصة بوليسية، دون أن أجلب نصف شرطة (باريس) خلفي، لذا فلا يوجد أمامي سوى فرصة أن يتوقف (مجدي) أو يهديء من سرعته، في هذا الزحام، وهذا يعني أنه عليّ ألا أتوقف عن العدو مهما كان السبب..

يجب أن تساعدني قدراتي هذه المرة... يجب..

كيف ظهر؟!.. إن الأمر يبدو كأنه كان ينتظرني، فأنا لم أعتد الصدف السعيدة من هذا النوع، لكن كيف ولماذا؟!

كيف عرف أنني سأراه، ولماذا ظهر أمامي بهذه الصورة؟!!!

إنه يعرف أنني هنا إذن..

يجب أن أواصل يجب أن أحتمل..

السيارة تبتعد أمامي، وقد خلا الشارع أمام (مجدي) بمعجزة، ليزيد من سرعته أكثر فأكثر، بينما أخذت سرعتي أنا تتباطأ تدريجيًا، وأن أشعر بعضلات ساقي تكاد تتمزق..

وأخذت المسافة بيننا تتزايد، وأخذت أنا أشعر بالدماء تتصاعد إلى رأسي، وقد تحول لهاثي إلى ما يشبه شهيق الغريق حين ترتفع رأسه لثانية فوق سطح الماء، قبل أن يعاود الغرق..

وفي النهاية – وأيًا كانت القدرات التي كنت أوقعها – انهار جسدي على الأرض، لأسقط على ركبتي، وأنا أضع يدي على صدري، أجاهد لأتنفس، وقد بدأ خفقان قلبي يدوي في رأسي كالطبول..

لقد فشلت وهرب (مجدي)... هذه هي الحقيقة التي يجب أن أتعايش معها في الفترة القادمة.

لكني سأراه مجددًا.. أشعر أن هذا سيحدث.. المهم الآن أن أحاول الوقوف و..

"(أكرم)... ما الذي حدث؟!"

أتاني صوت السيد (صلاح) فالتفت لأجد سيارته تقف جواري، وقد خرج هو منها محاولاً السيطرة على أعصابه... على الأقل ناداني (أكرم) أمام السائق!

كنت ألهث بشدة فخرجت إجابتي، على أجزاء:

- (مجدي)... رأيته.. هرب..

- ماذا تقول؟!!

- رأيت (مجدي)..

- حسناً.. تماسك وادخل معي السيارة، وسنتحدث فيما بعد.. إننا نلفت الأنظار إلينا بهذه الصورة..

- ولكن..

- سنذهب إلى المطعم كما خططنا، وسنترك موضوع (مجدي) للمساء... هيا..

وهكذا تبعته صاغرًا عائدين إلى العربة لنواصل طريقنا.. أنا أتفهم موقفه على كل حال.. إنه السفير، ولا يليق به أن يتورط فيما يحدث...

لقد رأيت (مجدي) اليوم...

وهذا يعني أنني في الطريق الصحيح..

***

للأسف لم تنته أحداث هذا اليوم عند هذا الحد...

كنت في مطعم (ماكسيم) أجلس على تلك المائدة في الزاوية، قرب

نافذة المطعم، في انتظار السيد (صلاح) الذي انهمك في حديث هامس مع مجموعة من رجال الأعمال الفرنسيين، بينما أخذت أنا أحدق في غذائي الفرنسي، المكون من أشياء، أقسم أنني لا أعرف عنها شيء...

لست أفهم هذه المطاعم الفخمة على الإطلاق... إنهم يطلبون منك أخذ موعد قبل المجيء بأيام، ثم أن تأتي بملابس رسمية كاملة، كأن رئيس وزراء (فرنسا) هو الذي سيقدم لك الطعام، ثم في النهاية يضعون أمامك طبقًا عليه قطعة أو قطعتان من أشياء لا يمكنك التعرف عليها، إلا لو كنت خبيرًا، وكل هذه المتع بأسعار خرافية!!

لم أكن على استعداد لتناول أي طعام، وأنا منهمك في التفكير بشأن ما حدث اليوم، لذا أخذت أعبث في طبقي بالشوكة، وأنا أضع تصورات عديدة للموقف..

(مجدي) هنا كما توقعوا... عظيم... لكن لماذا؟؟!

لماذا (فرنسا)؟!!... ما هي خطوته التالية؟!!

هل هنا مقر منظمته العجيبة هذه.. منظمة الفوضى؟!!

ولماذا لم يبد أنه يخشى مواجهتي إلى هذا الحد؟!

هذا السؤال بالذات كان يثير خوفي.. بالمنطق.. لو كنت أنا قد اكتسبت هذه القدرات من تجربته عليّ، فأي قدرات قد يمتلكها هو؟!!

وهل هناك آخرون؟؟!... هنا في (فرنسا)؟؟!

هل تعمل المنظمة الآن في الخفاء، لتعد للعالم مفاجأة جديدة؟!!

كنت غارقًا في هذه الأسئلة، أبحث عن جواب لأي منها، معتصرًا ذاكرتي قدر الإمكان، علّي أتذكر شيئًا عن تلك الفترة المظلمة في حياتي، حين رأيت ذلك الرجل عبر النافذة متجهًا إلى المطعم..

كان عجوزًا أشيب الشعر، ويبدو من خطواته المتثاقلة، وتلك العصا

التي يستند عليها أنه ليس في أتم صحة.. لكن عينيه كانتا تعكسان حزمًا وقوة لا يتماشيان مع جسده، كأنه لواء متقاعد، رأى ما يكفيه من الأهوال، ولم يعد هناك ما يهمه..

كان يدق الأرض بعصاه العاجية وهو يتجه إلى مدخل الطعم، ليستقبله ثلاث من الخدم، هللوا قائلين:

- مسيو (فرانسوا)... مرحبًا بعودتك..

لم يجبهم (فرانسوا)، بل ترك الخدم ينزعون عنه معطفه، ثم تولى أحدهم إرشاده إلى طاولة أجلسه عليها باحترام بالغ، ثم وقف أمامه بأدب، حتى تكرم عليه مسيو (فرانسو) ليقول:

- كالمعتاد..

- كما تأمر مسيو (فرانسو)..

وابتعد الخادم بخطوات سريعة، ليحضر هذا (المعتاد)... إنه زبون مستديم إذن..

لست أدري بالضبط ما الذي دفعني إلى مراقبته، لكن شيء ما في وجهه، كان يدفعني إلى مراقبته بدقة.. ربما هي تلك النظرة العجيبة التي أراها في عينيه، لكن لا يهم.. فلا يوجد ما أفعله هنا على كل حال..

وهكذا أخذت أراقبه خلسة، حتى جاء كبير طهاة المطعم شخصيًا، ليضع أطباقًا، تحمل أجسام مجهولة على أنها طعام، وأخذ يوزع هذه الأطباق على المائدة بمهارة وسرعة، وهو يردد عبارات الترحيب، التي تجاهلها (فرانسو) تمامًا، بل ظلّ محتفظًا بصمته إلى أن تركه كبير الطهاة في حاله، فتناول شوكة وسكين، وأخذ يشق طريقه عبر المائدة، راشفًا من كوب الخمر على يمينه، من حين إلى آخر..

صحيح أنه رفع عينيه إليّ مرة أو مرتين، ورآني أراقبه، إلا أنه لم يلق إليّ بالاً، بل استمر في تناول طعامه، وانتهى منه، ثم أخرج غليونًا صغيرًا من جيبه، وبدأ في إشعاله، رغم قوانين المكان الصريحة بمنع التدخين..

هذا الرجل ذو نفوذ صريح، وأصحاب النفوذ يتشابهون في كل شيء، حتى أنني لن أستغرب لوجاء صاحب المطعم شخصيًا ليعرض عليه أنواع تبغ مختلفة لغليونه... لهذا لم يهتم هو بمراقبتي له.. إنني بالنسبة له لا أشكل أي تهديد، ولن يضيره أن تحدق حشرة مثلي فيه طالما لن أزعجه بتعامل مباشر...

انتهى الكونت (فرانسو) – كما قررت أن أسميه – من تعكير سماء المطعم، فأعاد الغليون بعد إفراغه إلى جيبه، ونهض وقد وضع حفنة من الأوراق المالية على الطاولة، دون أن ينتظر حتى أن يأتي إليه أحد، ثم اتجه نحوي!!

نعم نحوي... بالطبع ارتبكت أنا مع هذا التصرف المفاجئ، وأشحت بنظري عنه كأنني لم أكن أراقبه طيلة الوقت، بينما أخذ هو يدق الأرض بعصاه العاجية متجهًا نحوي، حتى أصبح أمام الطاولة، ليضع يده في جيبه، فتحفزت أنا، مستعدًا للأسوأ، لكنه أخرج بطاقة صغيرة، وضعها على الطاولة، دون أن ينطق بحرف، قبل أن يدق الأرض بعصاه مبتعداً!!!

هنا أخذت أحدق فيه ذاهلاً، وهو يغادر المطعم، دون أن ينظر إليّ كأن شيئًا لم يحدث، ثم مددت يدي لأتناول البطاقة الصغيرة التي لم تكن تحمل سوى رقم هاتف وكلمة واحدة...

(اتصل...)!!!

مهلاً... اتصل؟؟!!... هذا الرجل يعرفني!!!

هذا الرجل يعرفني... أنا لا أعرفه... هذا يعني أن التعارف حدث في الفترة التي كنت فيها تحت تأثير التجربة... هذا الرجل قد يحل لي اللغز...

هذا الرجل رحل!!... غادر المطعم، ولم يعد بالإمكان أن ألحق به... لكن لا بأس، فلقد ترك طرف خيط لأجذبه... رقم هاتف – يبدو أنه رقم هاتفه المحمول – وكلمة واحدة صريحة..

اتصل... وهذا ما سأفعله بالتأكيد...

***

"حسنًا... نحن في انتظار المعلومات.."

قالها السيد (صلاح)، ثم استرخى في كرسيه، وشبك أصابعه خلف رأسه، ليقول:

– أنت متأكد أنه كان (مجدي)؟

أجبت أنا وأنا أذرع مكتبه جيئة وذهابًا، بخطوات عصبية:

– نعم هو... أنا صديق طفولته ويمكنني أن أتعرف عليه جيدًا... ولو لم يكن هو، فلماذا هرب حين رآني؟!

– أريد فقط ألا أترك مجالاً للخطأ... حسنًا.. وماذا عن ذلك الفرنسي؟!

– كما قلت لك.. لقد ترك لي رقم هاتفه، ولا بد أنه ينتظر اتصالي، لكني قررت عرض الموقف عليك أولاً..

– خيرًا فعلت، فلا نريد أي تصرفات متهورة بعد ما فعلته اليوم.. لقد أرسلت رقم التليفون لرجالنا، وسنحصل على كل المعلومات المتاحة

عن هذا الرجل بعد قليل..

وهكذا عدنا، يغلفنا الصمت والترقب، ننتظر الفاكس الذي سيحمل إجابات لبعض الأسئلة التي لا تنتهي..

سمعنا طرقات على باب مكتب السيد (صلاح) حيث كنا نجلس، فهتف:

- ادخل..

دخل علينا مسئول العلاقات العامة، وقد بدا عليه التوتر والانفعال، كأنما قد خرج لتوه من معركة، وأخذ يقول:

- سيد (صلاح)... هناك امرأة فرنسية ترغب في مقابلتك... حاولت منعها، لكنها ثارت وأخذت تصيح بغضب أن الأمر غير قابل للتأجيل.. ولست أدري ما الذي يجب عليّ فعله..

- دعها تأتي... لنرى ما الذي تريده..

- كما تأمر يا سيد (صلاح)..

ثم إنه خرج ليغيب بضع دقائق، عاد بعدها ومعه حسناء فرنسية، بدت الثورة واضحة في ملامحها الجميلة، وهي تنظر لمسئول العلاقات العامة بحقد، بينما أشار لها السيد (صلاح) بالدخول، وهو يقول بهدوء:

- تفضلي يا آنستي..

أجابته الحسناء الفرنسية بسرعة:

- لست آنسة... ولقد جئت من أجل هذا الرجل..

ثم إنها – وكأن هذه الليلة لا تريد أن تنتهي – أشارت إليّ، قائلة:

- لقد تبعتك إلى هنا... لست أعرف ما الذي تفعله هنا، لكني لم أخش كونك في سفارة..

كنت أنا قد ارتسمت إمارات الذهول على ملامحي كأوضح ما يكون، فلم أنطق بحرف، بينما قال السيد (صلاح) وقد أخذته الدهشة:

- هل تعرفين هذا الرجل؟؟!!!

- نعم أعرفه... إنه زوجي..

- !!!!!!!!!!

***

الفصل الثاني

أشياء تحدث!

أنا الآن أتمدد على الشيزلونج، في عيادة الدكتورة (لارا)، أستمع إلى الموسيقى المعتادة، وأرتجف...

وكانت هي تفرك جبهتها بعصبية، وهي تجلس جواري، عاجزة عن النطق، وقد وصلت إلى المرحلة، التي أدركت فيها أن ترديد عبارات المواساة والتشجيع لن تجدي نفعًا، وأنها ستضطر لممارسة عمل حقيقي أخيرًا...

تنهدت بأسى، ثم سألتني:

- إذن فلقد رآك رجل لم تراه أنت من قبل، في المطعم، ومنحك رقم هاتفه، لتتصل به كأنه يعرفك، ثم جاءت هذه المرأة التي تدعي أنها زوجتك إلى السفارة... عظيم... هل لي أن أفهم ما الذي يحدث هنا؟!!

- ظننت أن هذا دورك أنت... أنا هنا للحصول على إجابات..

- وأنا لا أملك هذه الإجابات.. أنت من يملكها، في ذلك الجزء المظلم من ذاكرتك، ومسئوليتك أن تساعدني على إنارة هذا الجزء..

اقترحت على الفور:

- لنجرب التنويم المغناطيسي مرة أخرى..

فأجابتني:

- لم نعد بحاجة إلى هذا الآن... هذه المرأة التي تدعي أنها زوجتك..

لو كانت كذلك حقًا، فهي قد تكون مصدر عون كبير بالنسبة لنا، أين هي الآن؟!!

استرخيت في الشيزلونج أكثر وأكثر، لأجيب:

- لن تصدقيني لو أخبرتك...!

***

- إنه زوجي

قالتها الحسناء الفرنسية، فساد الصمت البليغ على المكان، وقد شعرت أنا برغبة عارمة لأفقد الوعي على الفور، بينما تدلى فك السيد (صلاح) بذهول، لم يستطع مقاومته، وهو يردد خلفها بصورة آلية:

- زوجته؟!!

- نعم زوجته... وأنا هنا للحصول على الطلاق... تمامًا كما اتفقنا..

زوجتي!!!!... تريد الطلاق؟!!!!

ما أريده الآن هو أن أفقد الوعي - أو الحياة..لا فارق!!- وأن أستيقظ، لأجد أن البشر قد اختفوا تمامًا من على سطح الأرض، وبلا رجعة!!

لكن الحسناء الفرنسية، قالت الكلمة السحرية، التي جعلتني أحتفظ بوعيي، وجعلت السيد (صلاح) يهب من مكانه، بكل انفعال:

- نعم زوجي... ألست (سامي) صديق الدكتور (مجدي).. دكتور الطب النفسي؟؟!

هتف السيد (صلاح):

- تعرفين الدكتور (مجدي)؟؟؟

- نعم.. إنه من زوجنا، حين كنت في مصر، و..

- أين هو؟!!

- لست أعرف...

بدا نوع من الإحباط في صوت السيد (صلاح)، وهو يجلس مجددًا، مشيرًا للفرنسية بالجلوس هي الأخرى، قائلاً، وقد قرر تولي زمام الأمور:

- معذرة يا سيدتي، لكني لم أعرف اسمك..

- (جين)..

- حسناً... أنت تقولين أن هذا الرجل زوجك، هل لديك ما يثبت هذا؟!

- بالطبع... إنني لا أمزح

ثم أنها أخرجت من حقيبتها مجموعة من الأوراق، ناولتها لسيد (صلاح)، فأخذ هو يتفحصها بدقة بحثًا عن أي خطأ محتمل، بينما شرحت، وصوتها يأتي إليّ من بعيد:

- لقد حدث هذا حين كنت في مصر... المفترض أنني كنت سأتزوجه لمدة أسبوع ينتقل فيه معي إلى (باريس)، ثم أحصل أنا على الطلاق، وعلى المبلغ الذي اتفقت عليه..

- مبلغ؟!!

- بالطبع.. هكذا كان الاتفاق الذي عقده معي صديقه، الدكتور (مجدي)، ولقد استلمت المبلغ كله قبل إتمام الزواج، وبهذا ينتهي دوري في الاتفاق، لكنه..

ثم أشارت عليّ باشمئزاز يؤكد أنها تلقت مبلغ مغري حقًا لتقبل الزواج بي، وهي تواصل:

- لكنه اختفى فجأة، هو وصديقه الدكتور.. وأنا الآن أريد أن أنتهي من هذا كله..

نظر إلي السيد (صلاح) ليلقي الكرة في ملعبي، لكني كنت في حالة لا تسمح بالنطق، فتطوع هو، ليقول:

- حسنًا يا سيدتي.. ستحصلين على ما جئت من أجله، لكن ليس الآن، ربما لو تركت لنا بياناتك، ومررت علينا لاحقًا، فقط لنحصل على الوقت الكافي للتخلص من الأوراق والتفاصيل القانونية

مطت (جين) شفتيها كأنما تقلب الأمر في رأسها، ثم هبت من على مقعدها قائلة:

- لا بأس... لكن أريد الانتهاء من هذا كله بسرعة من فضلك..

ثم إنها رمقتني بذات الاشمئزاز مرة أخرى، وتركتني أحدث الشياطين التي أخذت تتصارع في رأسي...

حسنًا... ها أنا متزوج من امرأة لا أعرفها، وهو شيء جديد لم أضعه في الحسبان..

المهم فيما قالته أن (مجدي) فعل هذا، لأنه كان ينتوي نقلي إلى (فرنسا)، منذ زمن، لكني أفسدت خططه، وهذا يعني شيء واحد فحسب....

أن (باريس) هي مقر منظمته هذه حقًا...

وأنني في الطريق الصحيح..

خيم الصمت علينا، فلم أكن في حالة تسمح لي بالكلام، وكذلك كان السيد (صلاح) يقلب الأمر في رأسه من عدة أوجه، وهو يردد في سره بحماس:

- لولم أر هذا بنفسي لما صدقته..

حسنًا يا عزيزي، صدقه... فحياتي أصبحت مهزلة منذ تلك الليلة التي أجريت فيها التجربة..

مهزلة عليّ أن أدفع ثمن كل خطأ اقترفته فيها دون أن أتذكره...

ارتفع صوت الفاكس أخيرًا، ليبدد حالة الصمت هذه، فتناول السيد (صلاح) الورقة التي خرجت، وتنحنح قبل أن يقول:

- (سامي)... إنها بيانات الرجل التي قابلته في المطعم.. لقد حصل رجالنا عليها..

رفعت إليه عينين متسائلتين، فأعاد هو النظر إلى الورقة، قبل أن يقول:

- هل أنت متأكد أنك تريد أن تعرف الآن؟!

أجبت ساخرًا لأقاوم رغبتي في البكاء:

- ما دام ليس والد زوجتي العزيزة، فلا بأس..

- حسنًا... إنه أسوأ من هذا.. إنه (فرانسوا دوبوا).. رجل مخابرات سابق..

***

عند هذا الحد كانت طبيبتي النفسية (لارا) قد بدت وكأنها ستفقد عقلها، وستبدأ في الصراخ الهستيري، إلا أنها أشعلت سيجارة، لتضيف إلى أنفاس الكحول التي تبثها رائحة جديدة، وقالت:

- عظيم... الآن يمكنني أن أقول أن الموقف تعقد أكثر..

- أنت مفيدة حقًا..!!

- وهل اتصلت بالرجل كما طلب منك؟!

- بل جئت إليك على الفور قبل أن أفقد عقلي... كما أن السيد

(صلاح) اقترح أن تكون هذه الصدمات المتوالية، كافية لتحفيز ذاكرتي..

- دعك من هذا... هذه المرأة التي تزوجتها، حدثني عنها قليلاً..

- أهذا وقته؟!!

- بالطبع وقته... لقد تزوجتها ولو لساعة، لا بد أن حدث بهذه الأهمية يرتبط بأحداث أخرى في ذاكرتك.. هيا.. صفها لي..

أغلقت عيني محاولاً تخيلها - والواقع أنني أصبحت أملك ذاكرة فوتوجرافية مبهرة - وأخذت أقول:

- شقراء هي... في أواخر العقد الثاني من العمر، خمرية البشرة، وتملك غمازتين في وجنتيها حين تبتسم، عينيها زرقاوتان، لكنها زرقة قاسية أبعد ما تكون عن الرقة، ممتلئة الجسد، لكنها ليست بدينة... واسمها (جين).. (جين مونتان)..

عند هذه النقطة وجدتني أنتفض... هي لم تخبرني أن اسمها (جين مونتان)!!

أنا أعرف هذه المرأة حقًا...!!

أغمضت عيني محاولاً تذكر المزيد من التفاصيل، محاولاً رسم صورة لها في خيالي..

ها أنا أراها تقف معي ومع فارس كوابيسي (مجدي) في أحد الفنادق في القاهرة... أراها تتحدث إليه باهتمام... أراها تأخذ منه نقودًا... نقودًا كثيرة..

ثمن زواجها مني لحين وصولنا إلى (فرنسا)، بعد ذلك... بعد ذلك..

بعد ذلك تنتهي الصفقة، ويتم الطلاق... هذا هو الاتفاق..

(مجدي) كان يريد نقلي إلى (فرنسا)، بأي ثمن... لقد كان هذا ه ومخططه الذي أفسدته، والسؤال الآن ممتع بحق..

أنا فقط، أم أن هناك آخرون؟!!

هل هناك الآن من خضع لتجربة (مجدي) بنجاح حتى تم نقله إلى هناك؟!!

وأي قدرات سيمتلكها في هذه الحالة؟!!

قطعت (لارا) حبل أفكاري لتسأل:

- هيا أخبرني... جين مونتان).. ماذا تعمل؟!!

أجبت ببطء:

- نادلة في أحد المطاعم.. لقد كانت تزور القاهرة للسياحة، حين التقت بـ(مجدي) وعقدت معه صفقة الزواج مني...

- لا شيء عن مكان لقائكم أول مرة؟.. لا شيء عمّا حدث هناك في القاهرة؟!!

هززت رأسي نفيًا ببطء، فنفثت (لارا) المزيد من الدخان وقالت:

- عظيم.. وما هي خطوتك التالية إذن؟!

هذه المرة استغرقت في تفكير عميق طال لبضع دقائق، ثم أجبت بحسم:

- سأتصل بالكونت (فرانسو)... يجب أن أعرف ما يعرفه..

***

كان أقصر اتصال عرفه التاريخ..!

طلبت الرقم، وانتظرت حتى جاءني الصوت العجوز يقول بالفرنسية:

- فرانسوا..

- أنا من تركت له البطاقة في..

- انتظرني في الكنيسة المقدسة في جزيرة (لاسيتيه)... غدًا.. الثامنة صباحًا..

ثم أنهى الاتصال دون أن يمنحني فرصة لنطق حرف..

حسنًا... غدًا في الثامنة صباحًا...

الساعة الآن الواحدة بعد منتصف الليل، وهذا لا يمنحني سوى خمس ساعات للنوم..

هذا إن عرفت أن أنام في الأيام القادمة!!

***

في صباح اليوم التالي كان السيد (صلاح) يقف معي في غرفتي، يردد النصائح بلا انقطاع، مما ذكرني بأبي حين ذهبت لأول مرة إلى الجامعة، حين كان يردد بلا انقطاع:

- إياك والفتيات... إنهن أسرع طريق إلى الفشل..

هذه المرة كان السيد (صلاح) يردد:

- إياك والتهور... حاول أن تحصل منه على أكبر قدر ن المعلومات، دون أن تمنحه شيئًا.. لا أريد أي ردود أفعال عنيفة أو تصرفات متهورة.. كما أنك لن تأخذ سلاحك معك هذه المرة..

هتفت بانزعاج رجل الشرطة الذي لا يقبل تجريده من سلاحه:

- ماذا!؟!!

- لن يسمحوا لك بالدخول ومعك سلاح على أي حال.. كما أنني لا أريد أن أترك لك فرصة لتزج بنفسك إلى السجن..

- ولكن..

- هذا أمر... المفترض أنك ذاهب للحصول على معلومات لا أكثر..

وهكذا اضطررت آسفًا أن أتخلى عن سلاحي، وتدثرت بأثقل معطف أمتلكه لأتقي هواء (باريس) المثلج في مثل هذا الوقت من الصباح، وغادرت السفارة متجهًا إلى جزيرة (لاسيتيه)..

أخذت سيارة أجرة، فلم أكن أريد التأخر على الكونت (فرانسو)، وتوقفت أمام قصر العدل الضخم وسط الجزيرة، الذي يخفي خلفه تلك التحفة القوطية التي تعود لعام ١٢٤٨ والمسماة بالكنيسة المقدسة (Saint Chappelle)...

لوكنت في مزاج رائق لأخبرتك المزيد عن الجزيرة وعن هذه التحفة المعمارية التي على وشك أن أدخلها، لكني في حالة لا تسمح لي سوى بالتماسك، على أمل أن يأتي لقاء اليوم بجديد..

حين صعدت إلى الطابق العلوي، عرفت سر اختيار الكونت (فرانسو) لهذا المكان على وجه التحديد...

فمع ضوء النهار الذي أخذ يتوهج عبر خمسة عشر نافذة تغطي الجدران، شعرت وكأنني أقف في كتلة من النور، لا يمكنني تمييز أحد فيها، بل لا يمكنني تمييز شيء على الإطلاق...

من بنى هذا الطابق بناه ليكون أعجوبة من الأضواء والألوان، لكنه لم يخطر له على بال أنه سيكون نقطة ضعف حقيقية لأي رجل أمن، يجد نفسه في هذا المكان، فهنا لا يمكنني رؤية من يقف على بعد بضع خطوات مني..

كنت أقف في هذا النور، حين سمعت العصا العاجية تدق الأرض بالقرب مني، فأخذت أتلفت حولي، بحثًا عن مصدر الصوت، حين ظهر

الكونت (فرانسو) فجأة خلفي، ليقول بهدوء أرستقراطي:

- مرحبًا مسيو(سامي)..

التفت إليه منتفضًا، وأنا أهتف:

- أنت... أنت تعرفني..

ارتكز العجوز براحتيه على عصاه العاجية، وقال بذات الهدوء:

- بالطبع أعرفك، وأعرف كل ما حدث لك... والأهم من هذا كله ،أعرف ما الذي تريده أنت مني...

هتفت منبهرًا هذه المرة:

- تعرف؟!!

- بالطبع... هذا ما جئت من أجله.. أن أمنحك ما تريده وأن أحصل أنا على ما أريده..

تساءلت في شك:

- وكيف أعرف أنك صادق؟!!

اتسعت ابتسامته أكثر، كأنما كان يتوقع هذا السؤال بالذات، ومد يده ليخرج من معطفه ظرف أصفر، ناولني إياه دون أن ينطق بحرف..

أخذت منه الظرف، وفتحته لأجد مجموعة صور، لم تكد عيناي تسقطان عليها، حتى شهقت في ذهول، رددته جدران القاعة...

فما كنت أمسكه في يدي الآن كان المستحيل بعينه..

أسوأ المستحيلات...!!!

***

كان الظرف مليئًا بالصور... صور لي وأنا في القاهرة أعمل... صور لي مع زوجتي المصرية ونحن في أحد العطلات... صور لي مع (مجدي)

و(علي)... صور لي وأنا في عيادة (مجدي) وأنا خاضع للتجربة، (علي) متسلق جواري، بنما (مجدي) يحقننا بسائل ما.. صور لي وأنا في القاعة التي وجدت فيها (مجدي) أتدرب... صور لي مع أشخاص أعرفهم، وأشخاص لا أعرف عنهم شيئاً... صور لي مع (مايا)...صور لي مع زوجتي الفرنسية... صور لي في (فرنسا)..

تاريخي كله في صور!!!!

أخذت أقلب في الصور وأرتجف، فأمسك الكونت (فرانسو) بذراعي، ليسحبني خلفه، وه ويقول:

- دعنا نتحرك... فهناك المزيد لتعرفه..

تبعته كالمأخوذ عبر طرق طويلة ومعقدة، حتى وصلنا للساحة الخلفية، حيث كانت سيارته تنتظرنا، وسائق أنيق الهندام، يفتح لنا باب السيارة في احترام، فاتخذت مكاني جواره، عاجزاً عن النطق، بينما قال هو:

- أنا أعرف كل شيء عنك يا مسيو (سامي).. والواقع أنني أعرف أكثر مما توقعه بكثير..

نطقت بصعوبة لأقول:

- من أنت؟!!

- اسمي هو(فرانسو)... واليوم سأحكي لك قصة لن تصدقها بسهولة... قصة كيف بدأ صديقك الدكتور (مجدي) هذا كله..

***

وضع الكونت (فرانسو) عصاه العاجية على المائدة بيننا، وقال:

- أنت تعرف بالطبع إنني رجل مخابرات سابق.. لا داع للنكار..

لقد أعطيتك رقمي الشخصي، ولا بد أن أصدقاءك في السفارة، قد أبلغوك بهذا، على كل حال.. سأحكي لك كل شيء.. القصة بدأت منذ عام ونصف، حين جاءني الدكتور (بيير مورروا) وهو متخصص شهير في جراحة المخ والأعصاب، ليبلغني بأمر نظرية مثيرة للاهتمام، أرسلها له صديقه مصري، وهو الدكتور (مجدي) بالطبع.. النظرية كانت تعتمد على أساس علمي يقول أن الإنسان الطبيعي يستخدم ما يقارب الاثنان في المائة من قدرات عقله الفعلية.. ماذا يحدث إذن لو تضاعفت هذه القدرة؟!! ما الذي يحدث لو أصبح لدينا إنسان يستخدم خمسون في المائة من قدرات عقله الفعلية؟؟ ثمانون في المائة؟!!.. الواقع أن هذه الفرضية أثارت فضولي، فقررت لقاء (مجدي) في القاهرة على أنني رجل أعمال متحمس، قرر تمويل أبحاثه، على أساس أن تظفر مخابراتنا بالنتائج أولاً فأول، وبعد ذلك سأترك لهم الخيار في كيفية استغلال هذه النتائج... أنت تعرف أن صديقك (مجدي) كان يستخدم التنويم المغناطيسي كأساس لتجاربه، ولإطلاق طاقات العقل الكامنة... لكن ثمة مشكلة واجهها، دون أن يجد لها حلاً، وهي أن من يخضع لهذه التجارب يخرج معها كل العنف والشر المدفونين في أعماقه، شيء وجد له الدكتور (مجدي) مسمى أدبي يعتمد على رواية إنجليزية، تدعى...

- الدكتور (جيكل) ومستر (هايد)..

- بالضبط.. تجاربه هذه تنتج شخص خارق القدرات، لكنه شرير وبغيض كمستر (هايد)، الأمر الذي يتنافى مع الأساس الذي موّلت من أجله هذه التجارب، وهو الحصول على شيء قابل للاستغلال والاستخدام، وهكذا قررت الانسحاب من هذا كله، وأدركت أنني كنت أضيع وقتي في عبث لا طائل منه، حتى عرفت بعد ذلك، أن (مجدي)

وجد طريقة للسيطرة على أجرى عليهم التجربة، وجعلهم يعملون طوع أمره ، وحين حاولت الاتصال به لمواصلة ما بدأه بنقودي، اختفى فجأة كأنه لم يكن، لكنني كنت أحمل نسخ من كل ملفاته، وكل تجاربه، فبدأت أتتبع خطاه، لأصل إلى التالي... أولاً..(مجدي) حوّل تجاربه إلى بداية مشروع مجنون بتكوين منظمة، أسماها منظمة الفوضى، وهي منظمة تهدف لتدمير الأنظمة وإثارة الشغب وربما ما هو أكثر... ثانيًا.. (مجدي) هنا في (فرنسا)، حيث كان يعمل طبيب شخصي للسيد (نيكولاس ساركوزي) أحد أثرى أثرياء (فرنسا)، والذي توفى إثر أزمة قلبية، وخمن إلى من آلت ثروته الهائلة..

- إلى (مجدي)؟!!

- نعم وهكذا أصبح (مجدي) يمتلك النقطة التي يبدأ من عندها والتمويل الكافي ليفعل، فبدأ في الإعداد لمقر سري له هنا، وبدأ في نقل رجاله ومعلوماته إلى هنا شيئًا فشيئًا، حتى أفسدت أنت مخططاته باستيقاظك المفاجئ من تأثير التجربة.. بالطبع أنت لا تعرف، لماذا أرسلك (مجدي) لقتل هذا الصحفي وعائلته، أليس كذلك؟!!

عند هذه النقطة، كدت أصرخ:

- لماذا أرجوك؟!!

إلا أن الكونت هز رأسه، وهو يشعل غليونه، ونفس سحابة الدخان في وجهي، ليكمل:

- لأن لكل تجربة أخطاء، ولكل قاعدة شواذ، وأنت كنت أحد هذه الشواذ... فأنت الوحيد الذي لم يتمكن من السيطرة عليه تمامًا، والأخطر أنك الوحيد الذي بلغت قدراته العقلية، حدًا لم يتوقعه أحد.. لذا وجب التخلص منك..

- لكني لا أملك أي قدرات خاصة.. فقط أصبحت أسرع وأقوى..

- هذا ما اكتشفته أنت حتى الآن، لكن صدقني.. أمامك الكثير لتكتشفه، ومع الوقت ستدرك هذا جيدًا.. المهم هو أن (مجدي) الآن يخطط لشيء ما، أعتقد أنني أملك تصور عنه، لكن لو صدق ظني حقًا، لأصبحنا في كارثة..

- ماذا؟؟!!

لاذ الكونت (فرانسو) بالصمت لدقيقة، لم يتوقف فيها عن نفث الدخان، ثم بدأ يشرح لي مخاوفه، وأخذت عيناي تتسعان هلعًا..

من الأفضل أن يكون هذا الرجل مخطئًا فيما يظنه..

من الأفضل لنا كلنا...

***

كان عليّ أن أجد مكان لأجلس فيه وأفكر...

كان عليّ أن أعد نفسي للمرحلة القادمة...

الآن أنا أعرف القليل عمّا حدث لي في ذلك الأسبوع الذي قضيته مع (مجدي)، فالكونت (فرانسو) لم يكن على علم بكل شيء كما هو واضح...

الآن يمكنني أن أنظم تفكيري في نقاط كأي رجل شرطة...

أولاً... أنا الآن متزوج، وهي نقطة يجب أن أنتهي منها سريعًا، فلا أريد أي نقاط ضعف في المرحلة القادمة... لكن يجب أن أحصل على ما يمكن الحصول عليه من معلومات من زوجتي العزيز (جين)، قبل أن أخرجها – نهائيًا – من حياتي..

ثانيًا... (مجدي) هنا، ويبدو أنه لا يضيع وقته، بل يسير وفق مخطط

زمني دقيق، ومهمتي هي أن أدمر له هذا المخطط، مهما كان الثمن، بعد ذلك سأجعله يدفع الثمن كاملاً، وربما أكثر..

ثالثًا.. السيد (فرانسو) لم يكشف لي عن كل أوراقه، وهذا بديهي... إنه رجل مخابرات سابق، والكتمان جزء من طبيعته...هو لم يخبرني إلا بما أراد لي أن أعرفه، والهدف واضح...أن أتخلص له من (مجدي)...

لماذا لا يقوم هو بهذا، أو لماذا لا يستعين بمخابراته؟؟!!... لأنه متورط في شيء ما.. هذا أيضًا بديهي، وإلا ما كان قد لجأ لي... أيًا ما كان الأمر، يجب أن أحذر من هذا الرجل، وألا أمنحه ثقتي كاملة...

رابعًا... من الواضح أن هناك المزيد من القدرات التي أمتلكها، دون أن أعرف عنها شيئًا حتى هذه اللحظة، وهذه ليست مشكلة، لكن الفضول يقتلني، لأكتشف ما الذي أستطيع فعله على وجه الدقة..

خامسًا... لا يجب أن أخبر السيد (صلاح) بهذا كله، فهو إما سيحاول منعي وربما إرسالي إلى مكان بعيد، أو سيتورط معي فيما لا طاقة له به، وهذا لا يعني سوى شيء واحد..

يجب أن أبتعد... يجب أن أترك السفارة في الفترة القادمة...

ولكن إلى أين؟؟!!

***

بعد بحث طويل مضني عثرت على فندق رخيص في الحي اللاتيني، وأجمل ما فيه هو أن صاحبة الفندق العجوز لم تكن من هواة الأسئلة بأي صورة من الصور، وهي بالتالي لن تقدم لك أي رفاهية تذكر... إدفع ما عليك، وستحصل على فراش جاف في المساء، ولا تحاول أن تطالب بأكثر من هذا، لأنك لن تحصل عليه بأي حال...

بالطبع اتصلت بالسيد (صلاح) واختلقت له قصة وهمية ملخصها أنني لن أعود للسفارة الفترة القادمة لأن الدكتورة النفسية (لارا) نصحتني بالتغيير كجزء من العلاج ... بالطبع ثار وهاج وماج، إلا أنني لم أعطه الفرصة للرد بل أنهيت الاتصال... لو ظللت حيًا، سأعتذر له بأسلوب لائق، أما الآن..

أما الآن فلننتقل إلى الخطوة التالية...

***

في المساء كنت أجتاز باب ذلك المطعم الشهير بوجباته الفرنسية الأصيلة، لأقابل زوجتي..

كانت تقف في ركن المطعم تثرثر مع أحد الطهاة حين رأتني، لتقلب سحنتها ولتتجه نحوي، ووجهها الجميل يحمل تعبير خاو..

- ما الذي تريده؟!

- بضعة أسئلة وسأتركك لشأنك..

- أسرع إذن.. فلا يجوز لي التحدث مع الزبائن هنا..

ثم رافقتني إلى طاولة منزوية، فجلسنا وأنا أحاول ابتلاع حقيقة أن هذه المرأة التي لا أعرف أي شيء عنها، هي زوجتي قانونًا، لأقول:

- (مجدي) هنا في (فرنسا)... هل تعرفين هذا؟!

- لا بالطبع.. لو رأيته أخبره أنه وغد

- أعدك أنني سأفعل، لكني في حاجة لمعرفة بضع تفاصيل..

- أسرع من فضلك..

- حين قابلت (مجدي) في القاهرة، هل مارس عليك أي تجربة تنويم مغناطيسي؟!

- لا...

- عظيم... هل تذكري أي شيء غريب يتعلق به.. شيء كان يفعله أ ويردده؟!

- لا... مهلاً... لقد كان يحمل دائمًا صحيفة (اللوموند).. كان يقول أن هذه الصحيفة هي الأفضل على مستوى العالم، لكني أعتقد أنه كان يحاول إبهاري لا أكثر..

- وماذا عني أنا؟!

- ماذا عنك؟؟؟!

- هل لاحظت شيء غريب يتعلق بي؟!

- كنت شارداً طيلة الوقت، وكنت تتحدث قليلاً، لكني لم كن لأهتم... لقد كان الأمر كله صفقة بالنسبة لي.

- أشكرك... لم يعد لدي المزيد

وهممت بالانصراف لكنها استوقفتني قائلة:

- لقد اتفقت مع محامي للانتهاء من إجراءات الطلاق..

- ما المطلوب مني بالضبط؟!

- أن تمر على مكتبه، وهو سيتولى الأمر كله وسيبلغني حين الانتهاء من هذا كله.

ثم ناولتني ورقة عليها اسم المحامي وعنوانه ورقم هاتفه، فدسستها في جيبي واتجهت لأغادر المطعم، لكني توقفت لأقول:

- بالمناسبة... لو حاول (مجدي) الاتصال بك، اهربي بلا نقاش..

ثم غادرت المكان، وقد تركتها خلفي ذاهلة...

ثاني خطوة انتهت..

والآن يحين وقت الخطوة التالية..

***

من الصعب الحصول على مسدس جيد في (باريس)..

هؤلاء القوم يعتقدون أن المسدس، سلاح فظ أحمق، ينشر الضوضاء والدماء في كل مكان، وأن استخدام الأسلحة البيضاء أكثر أناقة... خنجر أثري مطرز مثلاً.. هذه أداة قتل أفضل بمراحل، لكنها لا تناسبني بالمرة..

بالطبع لم أكن أسعى للحصول على مسدس بالطرق القانونية، فأنا لا أريد لفت الأنظار لي في هذه المرحلة، أي أنني كنت أتحدث عن الطرق السفلية والغير شرعية للحصول على أسلحة في بلد راق مثل (باريس)...

ولكن، هاك نصيحة مجانية جديدة أقدمها، حتى تصبح لقصتي فائدة تربوية!!

رجل الشرطة هو رجل الشرطة في أي مكان.. والمجرم هو المجرم في أي مكان...

النسق النفسي واحد، وإن اختلفت الحضارة واللغة والديانة..

كيف تحصل إذن على مسدس في قلب (باريس)... أعرف أن هذه النقطة غير تربوية، لكني هنا لأحكي لك ما حدث، لا لأقدم لك أفضل طرق تربية ابنك!!

ذهبت إلى أحقر حانة وجدتها في الحي اللاتيني، في ساعة متأخرة من الليل، وهناك طلبت كوب من الجعة الرخيصة – أنا لا أشرب، لكنه إتقان الدور – وأخذت ألوح به في الهواء وسط السكارى، وأنا أردد معهم بعض الأغاني الفرنسية الرقيقة..!!

هكذا اندمجت وسطهم، وهنا يجب أن أذكر لك أن الفرنسيين حين يثملون، قد يندمج وسطهم نصف الجيش الألماني دون أن يلاحظوا

شيء... المجد لـ(فرنسا)!!

اخترت أضخم رجل فيهم والذي يحمل وجهه مجموعة من الندوب تشي بكم الشجارات التي دخلها، وخرج منها بخسائر فادحة... لم يكن ثملاً تمامًا كالباقين، لكنه كان منتشي مبتهجًا يردد الأغاني الفرنسية بصوت أجش، فاقتربت منه، لأهتف بصخب:

- هيه... ليلة طيبة..

- بالطبع...

- كنت أريد أن أسأل عن شخص، ربما تعرف طريقه..

توتر وجه وهو ينتظر سؤالي، فملت عليه لأدس حفنة من الأوراق المالية في جيب سترته، وأنا أهمس في أذنه :

- صديقي يدعى (بريتا) مع ثلاث خزانات إضافية..

هنا لاحت ابتسامة خبيثة على ملامح الفرنسي الضخم، وهمس:

- لكن الطريق إليه مكلف حقًا..

- حين نصل إليه تحصل على الباقي..

وهكذا تم الاتفاق السريع بنجاح، وبعد دقائق كنت أتبعه عبر أغرب حارات (باريس)، وأكثرها ظلاما..

وبعد ساعة واحدة كنت قد عدت إلى فراشي في ذلك الفندق الحقير، لأدس سلاحي الجديد أسفل الوسادة، قبل أن أتمدد على الفراش...

الآن أنا مستعد...

في انتظار اتصال الكونت (فرانسو) إذن...

***

في ظهر اليوم التالي، تلقيت اتصال الكونت (فرانسو) في الفندق الذي انتقلت إليه... بالطبع لم أكن قد أخبرته بشيء عن الفندق. وبالطبع لم يشكل هذا عائقًا بالنسبة له...

أخبرني أن اللقاء هذه المرة سيكون في حديقة (تويلوري Tuileries) في تمام السادسة مساءً، مما يمنحني الوقت الكافي لتناول وجبة خفيفة، ثم تبديل ملابسي، والتحرك..

حديقة (تويلوري)... هذا الرجل ينتقي أماكن للقاء، لا تصلح إلا لقصة رومانسية تدور بين مراهق يتعذب وحسناء تهوى التضحية...

من يتخيل رجل مخابرات عجوز وضابط سابق شاب يجلسان في حديقة (تويلوري)، ليتحدثا عن طبيب مجنون يريد نشر الفوضى في العالم؟!!

حين التقينا، كان القلق واضحًا في ملامحه، وحين جلسنا على أحد المقاعد وسط الطبيعة التي يزحف عليها الغروب، بدأ الكونت (فرنسوا) يتحدث بصوت خفيض، يطل منه التوتر بوضوح:

- لقد توصلت إلى معلومة في غاية الأهمية... صديقك (مجدي) يعيش تحت هوية مستعارة.. عدة هويات في الواقع، لكني استطعت تحديد أحد الأمكنة التي يسكنها..

- إذن فلقد توصلنا إليه أخيرًا..

- الأمر ليس بهذه السهولة... المكان الذي أحدثك عنه، هو الطابق الأخير، في واحدة من أشهر بنايات (باريس).. سيكون هناك عشرات الشهود..

- دع هذا لي... أنا أعرف ما الذي ينبغي عليّ فعله، فقط أعطني العنوان..

ناولني ورقة مطوية، فألقيت عليها نظرة خاطفة، ثم دسستها في سترتي... لقد حفظت العنوان على كل حال..

وأخذ (فرانسو) يردد:

- إنه لا يذهب إليها إلا في مواعيد محددة لكنه يستخدم جهاز إنذار حديث يعتمد على إرسال إشارة إنذار، إلى هاتفه المحمول، لو حاول أحدهم اقتحام المكان.. وهذا ما سيحدث وهذا ما سيدفعه للمجيء..

وأخذ ينظر إليّ ليرى تأثير كلامه عليّ، لكني سألته بغتة:

- أنت لا تعمل مع المخابرات الفرنسية في هذا.. لقد كنت تمول مشروع (مجدي) لحسابك..

منحني الكونت نظرة طويلة صامتة. لم تتغير فيها ملامح وجهه لحظة، قبل أن يقول باقتضاب بارد:

- أمامنا عمل لننهيه.. سأساعدك على الحصول من (مجدي)، وستساعدني أنت على تدمير مخططه.. أي شيء خارج هذا النطاق، لا يهم ولا يخص أحد.. أي أحد..

- وما الذي أدراك أنه سيستسلم لي بسهولة؟!.. حتى لو قبضت عليه، لن نحصل منه على حرف..

- اقبض أنت عليه، وأحضره لي.. ثم سأتولى أنا عملية استخراج المعلومات منه..

- تريد الحصول على ما دفعت ثمنه..

- بل أريد وقف الكارثة القادمة... ألا تعتقد أنني سأدفع ثمن نجاحه، لو نجح؟!

- لماذا لا تقتله وينتهي الأمر كله؟!

- لأننا لا نعرف كيف سينفذ مخططه... يجب الحصول عليه حيًا.. يجب أن نعرف ما في جعبته من أسرار...

إنه على حق... يجب الحصول على (مجدي) حيًا... يجب أن أقاوم رغبتي العارمة لقتله، انتقامًا لكل ضحايا تجربته..

لكن.. لكني وأنا أفكر كيف هرب مني.. وأنا أفكر أي قدرات تلك التي قد يمتلكها الآن، أتساءل...

هل يمكن الحصول عليه حيًا كما نريد؟!

هل؟!

***

وأخيرًا ظهر (مجدي)...!!

كنت أقف أمام تلك البناية في ذلك الحي الراقي في (باريس)، منذ ثلاث ساعات أنتظر قدوم الوغد على أحر من الجمر، بينما سيارة الإسعاف تنتظر بالقرب من المبنى وفقًا للمخطط الذي وضعه (فرانسو)، وكنت قد بدأت أشعر باليأس من قدوم (مجدي) المنتظر، حتى أنني كدت أترك المكان كله، حين ظهر هو بغتة...

خرج من سيارة أجرة قرب المبنى، وقد ارتدى معطفًا أسود اللون، وقبعة عريضة، أرخاها على نصف وجهه العلوي ليخفي ملامحه، لكنني تعرفته على الفور..

تعرفت وقفته... مشيته... الطريقة التي نظر بها إلى المبنى قبل أن يعبر من المدخل..

هذا هو (مجدي)...

هذا هو صديق الطفولة، ومدمر حياتي إلى الأبد..

شعرت بالدماء تلهب عروقي حين رأيته، فمددت يدي لأتأكد من مسدسي في جيب المعطف الذي أرتديه، وانتظرت لدقيقة، حتى أمنحه

الوقت الكافي للصعود إلى شقته، ثم تبعته إلى الداخل بلا تردد...

(مجدي).. (مجدي).. (مجدي)..

ها قد حان وقت اللقاء... وهذه المرة، لن تهرب مني..

أخذت المصعد الثاني، وصعدت لأتوقف في الطابق قبل الأخير، حيث شقة (مجدي)، ثم أخذت أصعد بحذر على الدرج، متجهًا إليه..

لا بد أنه دخل الآن ليجد كل شيء على ما يرام... لا بد أنه شعر بالخدعة.. لابد أنه الآن سيلوذ بالفرار، ليجدني في انتظاره..

لكني ولدهشتي، لم أسمع أي صوت قادم من شقته، فواصلت صعودي بحذر بالغ، حتى وصلت أمام شقته، ومزيج عجيب من المشاعر يعتمل في أعماقي..

مزيج عجيب، وأعجب ما فيه أن الخوف كان الطابع الغالب عليه!!.. لسبب ما أنا خائف من هذه المواجهة؟!!

وصلت إلى باب الشقة فمدت يدي لأمس الباب، وأنا أخرج مسدسي باليد الأخرى، و.. و..

ولكن ما إن مست يدي باب شقته، حتى شعرت كأن قنبلة انفجرت في جمجمتي.. واندفعت الصور إلى رأسي بغزارة غير مسبوقة..

صور لما يحدث داخل الشقة الآن...!!

رأيت (مجدي) يجلس داخل صالة شقته، على أريكة جلدية، يقرأ في أحد الصحف باستمتاع تام، كأنه يملك الوقت كله، ولا يوجد ما يشغل باله!!

رأيت هذا بوضوح تام، لكن الألم في رأسي كان يتضاعف، على نحو دفعني للتراجع إلى الخلف، وقد تغلب ذهولي على أي شعور آخر أشعر به..

كيف؟؟!!

كيف رأيت؟!!

أهذه أحد قدراتي؟!!.. لماذا لم تظهر قبل الآن؟!!

لكن.... لا... لا وقت.. لننتهي من هذا أولاً..

وهكذا استجمعت مشاعري كلها في ركلة سددتها لباب الشقة، فانفتح بدوي لا بأس به، فقفزت إلى الداخل شاهرًا مسدسي بعصبية، لأجد (مجدي) ينتظرني على أريكة جلدية مريحة، يتصفح (اللوموند) باستمتاع تام!!

وما إن رآني حتى ابتسم بثقة، ليقول:

- (سامي).. إذن فأنت صاحب هذه الخدعة الساذجة؟؟... تفضل..

غالبت عاصفة الأفكار والمشاعر التي تزأر في رأسي، لأهتف، وأنا أسدد مسدسي لرأسه بدقة:

- (مجدي)... ها أنت قد سقطت أخيرًا..

صحيح أنني قلتها، لكن السخرية الواضحة التي لاحت في وجه (مجدي)، جعلتني أشعر أن قولي هذا أبعد ما يكون عن الصحة...

أشار (مجدي) بيده، قائلاً بذات الهدوء المستفز:

- لماذا لا تترك هذا المسدس وتجلس؟؟ سنتحدث قليلاً، ثم سيمضي كل منا في طريقه..

- كف عن الهراء.. إنك لن تهرب هذه المرة..

- وهل تكتسب ثقتك هذه من المسدس الذي تحمله؟!

- ما الذي تعنيه؟!!

- أعني أنني أعرف أنك تعرف... أنت لن تجرؤ على استخدام هذا

المسدس.. في الواقع أنت غير قادر على إيذائي بالمرة..

كنت أرتجف رغمًا عني، لكني هتفت:

- لن تخدعني بهذا الهراء..

مال (مجدي) عليّ، ليقول وهو يبتسم بهدوء ساخر:

- لماذا لا تجرب؟!... حاول أن تطلق عليّ رصاصة واحدة... لا داع لأن تقتلني.. أطلقها على ساقي لو أردت.. هيا حاول، حتى أنتهي من قراءة هذا المقال..

أخذ ارتجافي يتزايد، وأنا أشعر بشيء ما في أعماقي يمنعني من الحركة، فظللت على هذا الوضع جامدًا، عاجز عن ضغط الزناد، كأنما فقدت التحكم في أطرافي، بينما واصل (مجدي) قراءته، كأنه جالس في (الشانزلييه)..

وأخذت أرتجف... وأرتجف... وأرتجف..

كيف؟؟! لماذا؟!!! ما الذي أصابني؟؟!

انتهى (مجدي) من قراءة مقاله، فنهض بهدوء، لينتزع المسدس من يدي، دون أن يلقى أي مقاومة مني. وطوّحه بعيدًا، ثم عاد ليجلس مكانه، بينما أخذ ارتجافي يقل تدريجيًا، وأنا أجاهد حتى لا تسيل الدموع من عيني...

ما الذي أصابني؟؟!!

تحدث (مجدي):

- اجلس لنتحدث قليلاً، ولا تلم نفسك... لقد زرعت فيك فكرة عدم التعرض لي بأذى، حين كنت تأثير التجربة.. لذا لا داعي لإضاعة الوقت..

- لكني لن أسمح لك بالخروج من هنا...

- حتى هذا لن تستطيعه... هه أخبرني... هل قابلت زوجتك الفرنسية؟

- أنت وغد.. وغد حقير..

ضحك (مجدي) من قلبه، قبل أن يقول:

- وغد لأنني خلصتك من زوجتك المصرية، وأبدلتها بهذه الفرنسية الحسناء.. هل تحاول خداع نفسك؟

- أنت دمرت حياتي...

- لم لا؟!... لقد أعطيتك حياة أفضل في المقابل... عمل أفضل.. جسد أفضل.. عقل أفضل..

- عقل لا أملكه..

- ليس بعد.. لكنها مسألة وقت لا أكثر... هل بدأت تتعرف على قدراتك الجديدة، أم أن الوقت لا يزال مبكرًا؟!

- ستدفع ثمن هذا كله يا (مجدي)..

- ومن سيجبرني على هذا؟!... بعد يومين بالضبط سأتحول إلى شخص فوق كل القوانين الدولية، وكل الأنظمة... لن يستطيع أحد المساس بي..

- أنا أعرف مخططك... أعرف أنك ستحاول تفجير المفاعل النووي الفرنسي..

مرة أخرى انفجر (مجدي) في الضحك، حتى دمعت عيناه، ثم قال وسط ضحكاته:

- أفجر ماذا؟؟... هاها.. أهذا ما ظننته حقًا؟!!... ألم أقل لك أنك تسرف في مشاهدة الأفلام من قبل.. كنت دائمًا تود أن تمثل في السينما، وها أنت الآن تحاول صناعة فيلمك الخاص، لتكون بطله..

- لكن أليس هذا ما تخطط له؟!.. نشر الفوضى؟!!

- نعم.. لكن ثمة طرق أكثر رقيًا للحصول على هذا... أنا لست قائد عصابة لو كنت تظن هذا..

- الآن تدعي الرقي.. بعد كل الدماء التي سالت، وبعد كل الجرائم التي ارتكبتها، والتي دفعتنا لارتكابها.. يا لك من صفيق..

- قلت لك إنها خسائر ضرورية لنجاح المنظمة... أي نجاح له ثمن.. وقريبًا ستدرك هذا.. قريبًا سيدرك العالم كله هذا..

كان ارتجافي قد توقف، وبدأت أستعيد السيطرة على نفسي، فجلست أمامه، لأقول وأنا أثبت عيني في عينيه:

- لكنك تعرف أنني لن أتركك.. سأظل وراءك لأحطم كل خططك..

- إفعل ما في وسعك.. كما قلت لك، المنظمة لا تتوقف عليّ... ربما يكون دوري هو تنفيذ الخطوة الأولى، لكني لن أكمل المخطط كله بمفردي..

- إذن، فخطوتك الأولى هذه لن تتم..

- ومن معك لتوقفني؟!... العجوز (فرانسو)..

- لا أحتاج لأحد...

تراجع (مجدي) في مقعده، وأسند وجهه على راحته، وهو ينظر إليّ مبتسمًا، ليغمغم:

- ما زلت كما أنت يا (سامي)... منذ حداثتنا وأنت أكثرنا عنادًا..

أجبت بقسوة:

- ومنذ حداثتنا وأنت المعقد النفسي الذي يعذب نفسه بلا هوادة ولا رحمة.. دائمًا ما كنت تضع القوانين والنظم، لترهق نفسك أكثر.. والآن أنت تريد أن تنتقم مما فعلته في نفسك..

- كنت أظن أنني الطبيب النفسي.. لكن تحليلك خطأ يا عزيزي.. صدقني.. حين تمارس الطب النفسي، وترى كم القبح الإنساني، ستجد نفسك مدفوعًا للتساؤل عن سبب هذا القبح، وعن إذا كانت هناك طريقة للتخلص منه..

- وتحطيم الأنظمة هو الذي سيحل هذه المشكلة؟!

- ربما لا.. لكنه سيعطيكم الفرصة... أنتم تسيرون كأحصنة الجر، التي يضعون عصابة على عينها حتى لا ترى إلى أين هي ذاهبة، لكنها في نفس الوقت، لا تتوقف عن الحركة مع كل لسعة سوط.. ما سأفعله، هو أنني سأنزع عنكم هذه العصابة، وسأترككم ترون بأنفسكم حجم الهاوية التي وصلتم إليها..

- ستثير العالم كله عليك... لن أطاردك وحدي حينها، بل العالم كله..

- سأكون مستعدًا... والآن..

ونظر إلى ساعته، وهو يخط بعض الكلمات على الصحيفة التي يقرأها ليقول:

- أنا في حاجة للتخلص منك الآن كما تعرف، لذا سأخبرك بشيء ما... أنت تعرف المطعم الذي تعمل فيه زوجتك الفرنسية.. بعد ربع ساعة من الآن ستستلم طرد مرسل إليها، ويحمل اسمك، وبالطبع ستفتحه.. إنه يحمل اسمك، والمرأة التي فتحت صندوق (بندورا)، لن تمانع في فتح طرد من زوجها، حينها... بووووم... ستتحول إلى أرمل يا عزيزي، ما لم تنقذها...

حدقت فيه ذاهلاً عاجز عن النطق، وقد فقدت حتى القدرة على التفكير...

هل هذا ما كنت أسعى إليه؟!.. أواجهه ليهزمني، ثم يضعني في هذا الموقف المعقد؟!!

ما الذي يحدث؟؟

"أنصحك أن تسرع فالمطعم ليس بقريب.."

قالها (مجدي) مبتسمًا بسخرية قاتلة، فلم أجد أمامي إلا أن أمنحه نظرة مقت، والغضب يجري في عروقي مكان الدم، لأقول متوعدًا:

- سنلتقي مجددًا... أعدك بهذا..

- سأكون في انتظارك... وأبلغ (فرانسو) أنه لن ينجو من عقابي..

وبمرارة غادرت الشقة لأسرع هابطًا إلى أسفل، بأقصى ما أوتيت من سرعة...

لماذا ذهبت لأنقذ (جين)؟!... حسنًا، لأنها امرأة.. ولأنها زوجتي.. لم أكن لأحتمل أن أتركها تنفجر، وأظل أنا أقف عاجزًا أمام (مجدي)، فلا زالت غريزة رجل الشرطة، في أعماقي تحركني، رغم كل شيء..

وهكذا لك أن تتخيل دهشة سائق سيارة الإسعاف الذي كان في انتظاري طيلة هذا الوقت، ليجدني أندفع من المبنى، متجهًا له لأقول:

- معذرة..

وقبل أن يفهم، كنت قد أزحته من على المقعد، لأحتل مكانه.. أشغل المحرك.. أنطلق بصرير مدوي، وقد استعاد رجل (فرانسو) القدرة على النطق، ليصرخ، وأنا أبتعد بسيارة الإسعاف:

- هيييه... توقااف..!!

لكني شغلت سارينة السيارة بأعلى صوت ممكن، لأزيح السيارت من طريقي، منطلقًا بأقصى سرعة سمح بها حجم سيارة الإسعاف، متجهًا إلى المطعم الذي تعمل في (جين)...

ربع ساعة خسرت منها خمس دقائق حتى الآن، وهذا يعني أن أمامي عشر دقائق لأصل إلى المطعم... حتى لو فعلتها، كيف سأنقذ الموقف حينها؟؟!

أنا لا أعرف شيء عن إبطال القنابل!!

لا بأس.. لنصل أولاً، ثم سيحين وقت الارتجال، لكن الشارع اللعين لا يريد أن يتحرك!!

بدأت أضغط على بوق السيارة، لأضيف مزيد من الضوضاء، فبدأت السيارات، تبتعد من طريقي في فزع حقيقي، وبدأت سرعتي تتزايد..

باقي ثمان دقائق...

أنا أعرف بعض الطرق المختصرة، لكن هل سيكفي هذا؟!!

بحسم، قررت الاتجاه عكس السير، ليبدأ المرح الحقيقي...

سبع دقائق...

بدأت أسمع صفير سيارات شرطة ،وقد قررت اللحاق بي من باب استكشاف الموقف، ليتحول الأمر إلى مطاردة شرسة، كأن هذا ما كان ينقصني..

ست دقائق..

بعد يومين سيصبح (مجدي) فوق كل القوانين والأعراف... بعد يومين سينفذ مخططه الرهيب، فما الذي يسعى إليه بالضبط؟!

لأركز على الطريق..

خمس دقائق..

ها هو المطعم يقترب، لكن الجسر مزدحم بحق، ولن أجد الوقت الكافي إلا لو...

ها أنا أترك السيارة، لأبدأ في القفز فوق أسطح السيارات، على

الجسر متجهًا إلى المطعم، وقد بدأت أخيرًا أشعر بفائدة التمارين التي دفعني (مجدي) للقيام بها...

أربع دقائق...

أكاد أقترب من المطعم، لكني أسمع سيارات الشرطة من خلفي تقترب... متى سيبدأون في إطلاق النار؟؟!

ثلاث دقائق..

أقتحم المطعم كمجنون، لأسرع إلى حيث وقفت (جين) قرب المطبخ، وهي تحمل ذلك الطرد الضخم بكلتا يديها، لأختطفه منها، ولتطلق هي صرخة دهشة مذعورة..

دقيقتين...

أندفع إلى باب المطعم الخلفي.. أنا أحمل القنبلة الآن، لكني لا أعرف كيف سأتصرف بها.. أرجوك يا إلهي أنقذني... أرجوووك..

دقيقة..

أصل إلى الزقاق خلف المطعم، فألمح حاوية القمامة المعدنية، فلا أضيع الوقت في التفكير، بل ألقي بالطرد داخلها، ثم أندفع بأقصى ما أوتيت من سرعة...

يدوي الإنفجار...

الدوي الهائل يرج جمجمتي، واللهب يلفح ظهري، والموجة التضاغطية، تنسف زجاج النوافذ، لينهمر الزجاج عليّ كالمطر، ويطير جسدي قليلاً قبل أن أهوي وسط الشظايا...

لكني – وبمعجزة! – أنجو..

حاوية القمامة امتصت معظم الانفجار كما تمنيت..

أقوم ببطء والآلام تنتشر في أنحاء جسدي.. لقد نجوت هذه المرة بحق..

(مجدي).. (مجدي).. (مجدي)..
لن أتركك إلا وأنت جثة هامدة!!

***

بالطبع هربت يومها قبل وصول الشرطة، فلم أكن أريد أن أقضي ما تبقى لي من عمر، في التحقيق والاستجواب...

حتى لو أخبرتهم (جين) بهويتي، فلن يجدوني.. سيبحثون عن (أكرم رشوان) الذي لا وجود له، وحتى لو ذهبوا إلى السفارة، لن يصلوا إلى شيء...

أنا لن أتوقف، حتى أمسك بجثة (مجدي) بين يدي.. لن أتوقف، ولو دفعت حياتي ثمنًا لهذا الهدف...

ولكن كيف؟؟!

إنني الآن لا أعرف أين هو، وحتى لو وصلت إليه، فأنا عاجز عن إيذائه..

كيف سأقتل (مجدي) حتى لوكان واقفًا أمامي؟؟!!

كيف؟!!

الفصل الثالث

أشياء أسوأ تحدث!!

كان اللقاء الثالث مع الكونت (فرانسو) في غرفتي في الفندق، فلم أكن لأخاطر بالظهور في أماكن عامة، كما أنني سئمت الأماكن التي ينتقيها ذلك الرجل، كأنني حبه القديم..

جاءني وهو يتميز غيظًا، وأخذ يدق الأرض بعصاه العاجية، وهو يصرخ:

- لماذا أنقذتها؟!... كان يجب ألا تتركه يهرب مهما كان الثمن..

- وما الذي فعله رجلك إذن؟!.. لقد رآني أهرب، فلماذا لم يتدخل هو؟!

- ومن قال لك إنه لم يفعل؟!.. لقد صعد إلى شقة الدكتور (مجدي) ليقبض هو عليه، لكن الوغد كان قد هرب بالفعل.. كل هذا لأنك تركت العالم كله، وأسرعت لإنقاذ امرأة لا تعرفها حتى..

- إنها زوجتي!!

- هل تمزح؟!!... إننا في كارثة.. كارثة..

ثم إنه جلس متأففًا على الأريكة الوحيدة في الغرفة، وأسند ذقنه على قبضته، ثم لاذ بصمت دام لعشر دقائق، قال بعدها بهدوء نسبي:

- على كل حال لا داع لنفقد أعصابنا.. ما الذي عرفته منه بالضبط؟!

أجبت بضيق:

- أنه لن يفجر المفاعل النووي كما كنت تظن... وأنه يعرف أنك معي.. وأنه يخطط لضربة قوية، ستتم غدًا ما لم نوقفها..

- ولا توجد لديك فكرة عن طبيعة هذه الضربة؟!

- لا..

- رائع.. لنفكر بطريقته إذن.. إنه يريد الإعلان عن منظمته، وهذا يعني أن هدفه سيكون إعلاميًا بالدرجة الأولى.. ربما سيتعلق أيضًا بشيء سيحدث غدًا..

- شيء مثل ماذا؟!

- احتفال ما.. زيارة أحد.. حدث ما سيكون غدًا.. المشكلة أنه لا يوجد شيء في ذهني، يتعلق بالغد على الإطلاق.. إننا في (فرنسا)، وهناك عشرات الأشياء التي تحدث كل يوم، لكن لا يوجد بينها شيء محدد أعتقد أنه يصلح..

سألت وأنا أشعر بما يشعر به من قلق:

- وما الذي سنفعله إذن؟!

تنهد هو، قبل أن يقول بأسف:

- سننتظر حتى يبدأ ضربته، ثم سنسعى إليه.. لقد خسرنا هذه الجولة حتى قبل أن تبدأ..

- ثمة مشكلة أخرى.. أنا لا أستطيع قتله، أعتقد أنه عبث بعقلي أثناء التجربة..

صرخ (فرانسو) وقد فقد أعصابه مجددًا:

- ماذا؟!!.. ما الذي سنفعله إذن؟!!

- حتى الآن.. لا أعرف، لكن لا بد أن هناك حل ما.. الأمر لن ينتهي

بهذه الصورة.. لكنها مشكلتي على أية حال، وسأتصرف أنا لحلها..

نعم يجب أن أتصرف...

ولكن... كيف؟!

***

اليوم التالي كان بارد بصورة لا تصدق، كأن الطقس أراد أن يشاركنا رهبة الموقف..

كنت أجلس مع الكونت (فرانسو) في سيارته، في أحد ميادين (باريس)، ولم أكن قد حظيت بالنوم، منذ ليلة أمس التي قضتها في تجارب لا تنتهي، وكنا ننصت إلى إذاعة (باريس) المسماة (راديو٤)، في انتظار أي جديد...

خطتنا – التي تبدو ساذجة – هي أننا سننتظر حتى يقوم (مجدي) بخطوته الأولى، ثم سنسعى لتحديد موقعه، لنهجم عليه.. وهذا يعني أننا نراهن على حسن حظنا لا أكثر، لكننا لم نكن نملك ما هو أفضل من النوايا الطيبة..

قلت لك أننا كنا ننتظر أن يبدأ (مجدي) خطوته الأولى... لكن ما حدث هو...

***

حاول أن تتخيل اللقطات التالية معي على أنها جزء من فيلم تسجيلي... حاول أن تراها من عين كاميرا فيديو ديجيتال، حيث تبدو الصور مزيجًا من الواقع والخيال، ولا يوجد ما يقنعك بطبيعية ما تراه سوى اهتزاز الكاميرا المستمر مع الحركة..

نحن الآن في حديقة (تويلوري)، لكننا هذه المرة سنتجه إلى اليمين قليلاً لنتجه إلى متحف (أورساي Musee d'Orsay) الشهير...

هذا المتحف كان محطة قطار في يوم من الأيام، وفي عام ١٩٠٠ اقترح الرسام (إدوارد إيتاي) أن يستبدلوا هذه المحطة بمتحف المدينة، لأنه أجمل بكثير، وأليق بأن يكون متحفًا عن المتحف ذاته، وتحولت سخريته هذه إلى حقيقة عام ١٩٨٦ حين تحولت المحطة إلى متحف، يقصده كل من يبحث عن لوحات الفن الإنطباعي × ،أو من يبحث عن مكان أنيق ليحتسي القهوة في المطعم الشهير الملحق بالمتحف..

نحن الآن نقف عند مدخل المتحف، حيث يقف رجال الأمن بملابسهم الزرقاء. تلك الوقفة المتراخية المعتادة.. نحن في فيلم تسجيلي، لذا لا نتوقع أن تهجم عصابة ملثمة على المكان لتسرق كل ما فيه، بل كل ما سنركز عليه، هو مدير الأمن الذي يصغي لشيء ما عبر جهاز اللاسلكي..

نقترب أكثر لنسمع الصوت الممتزج بالشوشرة الاستاتيكية، يقول:

- (كلود)... انشر الرجال في هدوء وصمت عبر المتحف...جاءني اتصال يقول أن هناك قنبلة فيروسية في المكان.. يجب إخلاء المتحف، لكن بهدوء ونظام..

بالطبع نحن نرى التوتر والانفعال وعدم التصديق على ملامح مدير الأمن، ونراه يتجه إلى غرفة الأمن، ليتحدث مع بعض رجاله همسًا، ثم نراه يمسك بالميكروفون الداخلي، ليقول:

- نعتذر للسادة الزوار عن إغلاق المتحف مبكرًا هذا اليوم.. لذا نرجو من الجميع التوجه إلى باب الخروج.. أكرر.. نرجو من الجميع التوجه إلى باب الخروج..

تتصاعد تعليقات الدهشة والاستنكار من بعض زوار المتحف، ويتجه بعضهم إلى باب الخروج، في حين يتلكأ البعض الآخر، وقد بدأ رجال الأمن. دفع الجميع للمغادرة، بنوع من العصبية..

وفجأة يسمع الجميع صوت انفجار مكتوم صادر من السقف، فترتفع كل العيون لترى تلك الزجاجات التي تهوي من أعلى، لتتهشم على الأرض الرخامية، لينتشر ذلك السائل الشفاف على الأرضية..

نرى كل هذا عبر الكاميرا، ونرى الزوار وقد ازدادت سرعة توجههم للمخرج، لكن صوت مدير المتحف، يدوي في جهاز اللاسلكي الذي يحمله (كلود)، الذي كان يقف أمام الميكروفون الداخلي، في تلك اللحظة بالذات..

وعبر ميكروفونات المتحف، يسمع الجميع التالي:

- كلود... لا تسمح لأحد بالخروج... سينتشر الفيروس إلى الخارج..

هنا تتصاعد الشهقات من الجميع، وبعض الصرخات المذعورة، وهنا يتخلى الفرنسيون عن وقارهم المعتاد، ويبدأون في الاندفاع نحو المخرج بلا انتظام، كما هي العادة في مثل هذه المواقف، فلا يجد (كلود) أمامه سوى تشغيل جهاز الأمن، لتهبط تلك الأبواب المعدنية على جميع المخارج، ليصبح كل من في المتحف أسيرًا في الداخل..

تهتز الكاميرا أكثر، وهي تنقل لنا حالة الهياج التي أصابت الجميع.. من في الداخل يحاولون الخروج، ورجال الأمن يحاولون منعهم، والصرخات تتعالى أكثر فأكثر مع مرور الوقت، ويحاول البعض الهجوم على غرفة الأمن، فلا يجد (كلود) مفر من أن يستخدم مسدسه ليطلق رصاصة تحذيرية في الهواء...

وكان هذا أكبر خطأ ارتكبه (كلود)..

فمع دوي الرصاصة، تحولت حالة الهياج، إلى ثورة هائلة، وقد بدأ الجميع في الهجوم على كل شيء..

الأبواب المعدنية... رجال الأمن.. اللوحات.. الزوار..

كل هذا اختلط في ثورة فوضوية عارمة، وتعالت الصرخات وتعالى معها دوي الرصاصات

، وقد بدا لرجال الأمن، أنه لم يعد أمامهم حل بديل...

ومع سقوط أول ضحية، تحول الأمر إلى مذبحة...

كل هذا نراه عبر الكاميرا التي تسقط أرضاً، لتنقل لنا عشرات الأقدام تجري هنا وهناك، وبعض الدماء تلطخ عدسة الكاميرا..

***

المشهد الثاني لهذا الفيلم التسجيلي، سيكون أمام بنك (فرنسا) المركزي...

هذه المرة نرى الحراسة المشددة أمام البنك، ونرى من على بعد. السيارات المصفحة التي تنقل ملايين الفرنكات تقترب، يحيط بها فريق أمني كامل...

هذا يوم نقل الأموال إلى خزانة البنك، الذي يعد من أكثر بنوك العالم أمانًا وشهرة..

كنت أتمنى أن أشرح لكم بعض التفاصيل الهامة، بما أننا في فيلم تسجيلي على كل حال، لكن الأحداث توالت بسرعة هذه المرة، دون أن تترك لنا الفرصة، إلا لنقلها بأمانة تامة..

فجأة.. توقف شخص ما بسيارته أمام القافلة المتجهة للبنك، بصورة

سدت الطريق أمامهم، ليترك سيارته، ويعدو مبتعدًا عنها بسرعة...

صحيح أن فريق الأمن المحيط بالقافلة، مدرب على تنفيذ العديد من الخطط في حالة أي هجوم متوقع، وأول هذه الخطط هي التراجع مع ترك جزء من الفريق الأمني لتعطيل الهجوم، والاتصال بقوات الأمن الجمهوري للتدخل، لكن الأحداث – وكما أخبرتك – توالت بسرعة لا تصدق..

انفجرت السيارة التي تسد الطريق فجأة بدوي هائل، وارتفعت منها النيران والأدخنة، لتنطلق أبواق الإنذار من عربات فريق الأمن، وأطاح الانفجار بمن هم في المقدمة، وأثار حالة لا بأس بها من الهرج...

وقبل أن يعي أحد الموقف بالضبط، كانت الانفجارات تتوالى هذه المرة، ولكن من عربات الأمن ذاتها!!

فجأة أخذت عربات الأمن تنفجر، واحدة تلو الأخرى، وأصبحت العربات المصفحة التي تحمل النقود، محاطة بالحطام واللهب والجثث... ثم أخذت هذه الأخرى في الانفجار..

بصورة ما انفجرت جميع هذه السيارات، وتصاعد اللهب والصراخ من كل مكان، لكن الانفجار الأخير، دفع بالأوراق المالية في الهواء، لتطير في كل اتجاه..

ملايين الفرنكات تذروها الرياح...

من صرخوا من الانفجارات وقفوا ذاهلين أول الأمر، وبعضهم ابتعد هلعًا، لكن من رأى النقود المتطايرة، لم يأخذ وقتًا طويلاً في اتخاذ قراره...

اقترب واحد لجمع ما يمكنه جمعه من هذه الغنيمة السهلة.. ثم انضم ثان.. فثالث..

ثم عشرة.. ثم عشرات..

وتحول الأمر إلى فوضى حقيقية...

الفرنسيون نسوا الجثث والدماء والنيران، واندفعت مسعورة، تريد أن تجمع أكبر قدر ممكن من النقود التي لا تزال الرياح تعبث بها، وتلقي بها هنا وهناك..

وحين وصلت قوات الأمن الجمهوري، كان الأمر قد خرج عن نطاق السيطرة بالفعل، ولم يعد استخدام التفاهم مجالاً للمناقشة..

اندفعوا بهراواتهم الغليظة، ليفرقوا الجمع المسعور، فسالت المزيد من الدماء، وازداد حماس القوم..

فوضى... فوضى... فوضى..

هذا ما تنقله لنا عدسات الكاميرا الآن، قبل أن تهوي عليها أحد هراوات رجال الأمن، لتهشمها تمامًا..

***

تنتقل بنا الكاميرا هذه المرة إلى مقر اللوموند الجديد...

المقر عبارة عن مبنى أنيق في حي (فاندوم) جوار المركز التجاري الشهير، ونرى بعين الكاميرا مجموعة من الصحفيين والمسئولين، وقد تأنقوا على أكمل وجه، ليحضروا هذا الحدث الجلل، وهم يصفقون لأنفسهم، بعد أن يتكرم كل واحد منهم بإلقاء كلمة أمام فريق التلفزيون الذي جاء ليصور هذا الحدث..

المبنى الجديد مهمته الأساسية أن يستوعب الأعداد المتزايدة، لكن لإضفاء بعض الأهمية على الموقف، يقولون أن هذا امتداد لنجاح الصحيفة العريقة، التي تتزايد مبيعاتها باستمرار..

يقفون أمام المبنى لالتقاط الصور التذكارية، ثم يبدأون في الدخول إلى المبنى، يتبعهم فريق التلفزيون الذي وجد فقرة مسلية ليقدمها للمشاهدين..

لكن كاميرتنا نحن تتوقف في الخارج، مما يمنحنا انطباعًا أن شيء ما سيحدث الآن..

شيء يستوجب عدم الدخول!!

يختفي الكل في الداخل ، نسمع صيحات الانبهار والمزيد من التصيف، ونرى انعكاس فلاشات الكاميرات على الزجاج الخارجي. لكننا نظل نصور هذا كله من الخارج، وننتظر بترقب الكارثة القادمة لا محالة...

مشكلة الأفلام التسجيلية أنها بلا مونتاج، لذا يظل المشهد ثابتًا لفترة، دون أن يستجد جديد، مما قد يصيب المشاهد بالملل، ويدفعه لتغيير القناة، لكن...

لكن مزية الأفلام التسجيلية أنها تنقل لنا الأحداث بأمانة، دون تعديل..

وحين ينفجر المبنى فجأة بمن فيه، يبدو الانفجار أمامنا هائلاً مخيفًا، وألسنة النيران تتلوى في السماء، كأنها تودع أرواح من كانوا في الداخل، وتتطاير الشظايا حتى يصطدم بعضها بالكاميرا التي اهتزت بشدة مع الانفجار...

لقد انفجر مبنى اللوموند الجديد، ويبدأ دوي سيارات الإسعاف في إضافة المزيد من الدراما إلى المشهد...

لقد انفجر المبنى... وانفجرت معه أطنان وأطنان من الفوضى...

***

كنت مع (فرانسو) في هذه الأثناء، نجوب شوارع (باريس) في سيارته، نبحث عن طرف خيط قد يكون (مجدي) نسيه هنا أوهناك، ونحن نتابع الهول الذي تتعرض له المدينة، والمذيعة تهتف في الراديو:

- إنها كارثة... والضحايا حتى الآن بالعشرات، على نحو لم تشهده (باريس) منذ الثورة الفرنسية.. ما الذي يحدث لنا بالضبط، وكيف انتشرت هذه الفوضى؟!!

بالطبع لم تكن المذيعة تعرف، لكنني كنت أجد بصمة (مجدي) في هذا كله واضحة..

وكان (فرانسو) يردد بأسى:

- لقد فشلنا.. فشلنا، ونجح (مجدي) في مخططه، وبسهولة تامة..

أجبته بثقة:

- مخططه لم ينته بعد.. إنه لم يعلن عن نفسه حتى الآن..

- وما حاجته لهذا؟!.. أعماله تعلن عنه بنجاح..

- لكنه لن يقاوم حب الظهور.. لن يقاوم أن يقف بانتصار أمام عدسات الكاميرا، ليعلن عن مسئوليته الكاملة عمّا حدث، فهذا جزء هام من نجاح مخططه..

كنا قد اقتربنا من متحف (أورساي) حيث أخذت سيارات الإسعاف، في نقل الضحايا إلى المستشفى أو المشرحة، بعد أن أدركوا أن الزجاجات التي سقطت لم تكن تحوي سوى ماء عادي بلا أي فيروس، وأخذ (فرانسو) يراقب المشهد أمامه بصمت، وقد بدا عليه أنه مستعد للانفجار في أية لحظة، فلم أنطق بحرف، محاولاً مقاومة مشاعري، وتركيز أفكاري على نقطة واحدة..

أين (مجدي) الآن؟!!

ها هو قد قدم عرضه، ولا بد أنه سيسعى للحصول على تصفيق الجماهير.. هذا بديهي، ويكفي أن تكون رجل شرطة لتدركه..

إذن أين سيكون الاحتفال الأخير؟!!

أخذت أفكر في إجابة هذا السؤال، معتصرًا كل مخزون ذكرياتي منذ أن استيقظت في قسم الشرطة في القاهرة، وحتى وصلت إلى هذه السيارة التي أجلس فيها الآن..

الحل يكمن دائمًا في أصغر النقاط التي تمر على البعض، دون أن تبدو ذات أهمية، لكنها تحمل مفتاح اللغز دومًا... هذا ما علمونا إياه في كلية الشرطة..

علمونا أن رجل الشرطة الجيد، يجب أن يتمتع بقوة الملاحظة والدقة..

علمونا أنه لا يفقد أعصابه مهما كان الثمن..

علمونا أنه يزيح مشاعره بعيدًا أثناء العمل..

وعلمونا أنه يقاتل حتى آخر رمق..

حاول (فرانسو) نطق شيء ما، لكني استوقفته بإشارة من يدي، واستغرقت في التفكير محاولاً البحث عن أتفه التفاصيل...

وبعد عشر دقائق، قلت بصرامة لا تقبل النقاش:

- فرانسوا... اتجه إلى المنزل الذي وجدنا فيه (مجدي)..

- ولكن..

- نفذ دون تفكير... نحن لا نملك الوقت للجدل..

وهكذا انصاع (فرانسو) لمطلبي، واتجه بالسيارة، يشق طريقه وسط الزحام، متجهًا إلى ذلك المبنى في الحي الراقي في (باريس)..

وطوال الطريق إلى هناك، لم ينطق أحدنا بحرف، حتى وصلنا، لأقول أنا:

- انتظرني هنا..

لم يجادلني هذه المرة، واكتفى بأن يهز رأسه بصمت، فأسرعت أنا إلى الأعلى حيث، شقة (مجدي) وأنا أدعو الله أنا أجد ما أنا ذاهب للبحث...

وفي الأعلى استقبلتني الشقة الخاوية، كما تركتها بعد لقائي الأخير مع (مجدي)، فأخذت أبحث بدقة في أرجاء الشقة، حتى عثرت – حمدًا لله – على مبتغاي...

صحيفة (اللوموند) التي كان (مجدي) يقرأ فيها، حين دخلت عليه..

كان (مجدي) يخط عليها بضعة كلمات حين كنا نتحدث، لكني لم أكن أعرف ما الذي يخطه، وفلم أجد الوقت لهذا، لكني تذكرت وجئت، ورأيت...

(عزيزي سامي.. أنا أعرف أنك ستعود لتقرأ هذه الكلمات، لكن لن تستطيع أن توقف المخطط.. ل وأردت لقائي، اذهب إلى هذا العنوان، وستجدني في انتظارك، فلدي مفاجأة أخيرة لأقدمها لك... مجدي)....

ثم قرأت العنوان على الصفحة، وأنا أكاد لا أصدق نفسي..

إنه يرشدني إلى الطريق إليه...

إنه في انتظاري..

وأنا ذاهب إليه..

خرجت من الشقة لأعود إلى (فرانسو) الذي كان يتعذب من اللهفة، التي خرجت جلية في صوته وهو يسألني:

- هل عثرت على شيء؟!

منحته الورقة التي تحمل العنوان في صمت، فقرأ هو السطور التي كتبها (مجدي)، ليهتف بانفعال:

- هل ستذهب إليه؟!

- نعم..

- لكنه ينتظرك هذه المرة.. أعني أن الأمر سيكون خطرًا..

- لنتحرك إذن، فأنا في شوق لأضع نهاية لهذا كله..

ولم يجادلني (فرانسو) هذه المرة، فهو كان يعرف أنني قد اتخذت قراري، وأنني سأذهب إلى العنوان على كل حال، فأدار محرك السيارة، وبدأ يتحرك بنا وهو يقول:

- لن يكون الوصول إلى هناك سهلاً، مع كل الفوضى التي سببها هذا المجنون..

- لنسرع إذن..

وأخذنا نشق طريقنا بصعوبة، متجهين إلى حيث سألقى مصيري..

سيكون هذا آخر حدث لهذا اليوم، لكن ما سيحدث لن يكون مجرد مواجهة بين غريمين..

بل سيكون النهاية..

***

كان العنوان هو أحد القصور في منطقة نائية في الريف الفرنسي، وكان (فرانسو) يرمق القصر وهو جالس جواري، ويبدو عليه قلق لم أره عليه من قبل..

(مجدي) الآن في الداخل.. نحن نعرف هذا، لكننا لا نعرف ما الذي يخبئه لنا هذه المرة، وهذا يثير توتره إلى أقصى حد..

بالنسبة لي، لم أكن أشعر سوى برهبة الموقف مع الكثير والكثير من الغضب..

على نحو يقيني، أعرف أنني لو دخلت هذا القصر، فلن يعود أي شيء كما كان..

على نحو يقيني أعرف أنها نهاية هذه الأحداث، وهذا في حد ذاته مريح لدرجة أنني مستعد للموت ذاته، لو كانت هذه هي النهاية المنتظرة.

قلت باقتضاب من لا يوجد لديه أدنى استعداد للمناقشة:

- (فرانسو).. غادر المكان، ولا تعد بمفردك هذه المرة..

- (سامي).. أكرر أن دخولك بمفردك حماقة لا داعي لها..

لكني لم أجبه، بل غادرت السيارة، واجتزت بوابة القصر المعدنية لأشق طريقي إلى المدخل، وقد أخذت أتحسس مسدسي في جيبي بتوتر..

وصلت إلى المدخل، فالتقطت نفسًا عميقًا، ثم فتحت البوابة الضخمة، وليطالعني المشهد في الداخل ، ولتتسع عيناي بانبهار..

ففي الداخل كان المكان أشبه باستديو تسجيل ، بالكاميرات، ومصابيح الإضاءة الضخمة المعلقة ،وفي مركز البهو طاولة بيضاء صغيرة ومقعدين، كأننا في استديو تصوير أحد برامج اللقاءات السخيفة، وقد أخذت مجموعة العمل في التحرك هنا وهناك، وكلهم يحملون ذلك التعبير الجامد القاسي على وجوههم..!!

مجرد إرهاق بسيط في اليوم التالي..!

في ركن البهو تراصت مجموعة من أجهزة الكمبيوتر أخذ البعض يعملون عليها بهدوء تام، وقد بدا أن الصمت هو الطابع الغالب على

المكان إلا من صوت حركة أحدهم هنا أوهناك، وقد بدأت أميز أن معظم الوجوه أمامي فرنسية، وإن لم تخل من بعض الوجوه المصرية...

(مجدي) لم يضع وقته إذن، بل كان يعد عدته منذ زمن طويل، وإن كنت لا أفهم، كيف أقنع جميع هؤلاء بالخضوع لتجربته في التنويم المغناطيسي...

التفسير الوحيد هو أنه لا يعمل وحده كما قال من قبل.. لكن.. ماذا عن موقع التصوير هذا؟!

ما الذي يستعد لتصويره؟!

"سامي.. مرحبًا.. لم تتأخر كما توقعت"

التفت لأراه متجهًا نحوي هابطًا الدرج، وهو يبتسم بثقة، داسًا يديه في جيب معطفه، وهو يواصل:

- هه.. هل رأيت الحفل في الخارج؟!

أخرجت مسدسي رغم علمي أنني عاجز عن استخدامه، فاتخذ هو مكانه على أحد المقعدين أمام الطاولة، وهو يقول مشيرًا لي بالجلوس:

- سامي.. ألم نخض هذا لموقف من قبل؟.. تعال واجلس، فالحفل على وشك الانتهاء..

كان قلبي يخفق بعنف، وشعوري بالعجز عن إفراغ مسدسي في رأسه يقتلني، إلا أنني قررت مجاراة الموقف إلى نهايته، لأقول:

- أنت قاتل يا (مجدي)... هذا هوما نجحت في إثباته بلا أدنى تقصير..

- هل تتدعي الحمق؟!.. انظر إلى كم الفوضى الذي أحدثته، دون أن أضطر إلى تنويم أحد مغناطيسيًا.. الذي حدث اليوم هو نجاح ساحق للمنظمة..

- لكنك لن تخرج من هذا القصر هذه المرة.. (فرانسوا) سيأتي بنصف شرطة المدينة معه

- دعه يأتي.. لقد نفذت خطوتي على كل حال، ولم يعد هناك فارق.. بقى أن نضع خاتمة أنيقة لحفلنا هذا..

ثم أنه أشار إلى العاملين، فارتفع هدير كاميرات التصوير، وبدأ من يعملون على الكمبيوتر، في العمل بسرعة أكبر، بينما (مجدي) يشرح:

- ما سيحدث الآن سيتم بثه على الهواء مباشرة إلى جميع المحطات.. الكاميرات تعمل، وفريق الكمبيوتر يتحكم في الأقمار الصناعية الآن، لذا اجلس فلدي ما أخبرك به..

على الهواء مباشرة!!

إنه يمزح!!

إنني لن أستطيع قتله على الهواء مباشرة..!!

لكنه كرر بذات الهدوء المستفز:

- اجلس يا (سامي).. أنا أعرف أنك تريد أن تسمع ما سأقوله لك الآن..

- ما أريده هو أن أقتلك..

- ستفعل لو نجحت في الاختبار التالي.. والآن اجلس، ولا تخش شيء، فلن تظهر أمام الكاميرا.. وهذا يمنحك الفرصة لقتلي دون أن يراك الملايين.. ألم أقل لك لا تخف؟؟..

تقدمت تجاهه ببطء، لأتخذ مكاني أمامه على المقعد المواجه له، ويدي لا تزال تقبض على المسدس، فاسترخى هو، ليقول مواجهًا الكاميرات:

- حسنًا.. اسمحوا لي أولاً أن أقدم لكم نفسي.. أنا الدكتور

(مجدي).. المسئول الوحيد عن كل الأحداث التي جرت اليوم في (باريس).. نعم.. كل الفوضى التي شاهدتموها اليوم من تخطيطي أنا، وأعتقد أنكم تريدون أن تفهموا لماذا فعلت هذا بالضبط..

ثم إنه أشار إليّ، كأنه يقدمني لجمهور خفي:

- اسمحوا لي أولاً..أعرفكم بصديقي (سامي).. صحيح أنه وجهه غير ظاهر أمامكم، لكنه ضابط شرطة سابق، وهو هنا ليقتلني كما هو واضح، لكنه قبل أن يفعل هذا - لو استطاع فعله - سيشاركني في هذا اللقاء الأخير بيننا.. بالمناسبة أعرف أن الإرسال سيتم تعقبه، وأنكم ستحاولون الهجوم على المكان بعد قليل، لكن الأمر انتهى بالفعل.. وهذا ما ستفهمونه حالاً..

أشعر كأنني في حلم عجيب، وجسدي يرتجف بشدة وأنا أحاول السيطرة على سلاحي لوضع حد لهذا بضغطة زناد، لكن (مجدي) واصل:

- اليوم هو الإعلان الرسمي عن منظمة الفوضى، وهي منظمة الواضح أن الهدف الأساسي منها هو نشر الفوضى وتحطيم الأنظمة في كل مكان.. لماذا؟.. لأنكم كما قال (تشيخوف) من قبل، تعيشون حياة سيئة مملة، ولو أدركتم هذا، لربما سعيتم إلى تغييره، وإلى أن تفعلوا، أنا هنا لأقول لكم أنكم تحيون حياة سيئة مملة.. لا بد أنكم تتساءلون الآن كيف فعلت ما فعلته.. حسنًا، لقد أشرت لكم على أول طريق الفوضى، فاندفعتم أنتم بلا تفكير لتنجزوا لي المهمة، وإلا كيف ستفسرون ما حدث في متحف (أورساي) اليوم؟! زجاجات ماء تسقط وإشاعة صغيرة، ليبدأ حفل القتل الجماعي.. أحد أهم سيارات نقود تنفجر، فيفقد الجميع وقارهم أمام الملايين الملقاة.. إنني أتساءل حقًا

إن كنتم وجدتم من يذهب لمبنى اللوموند الجديد... على كل لقد تأخر الوقت كثيرًا..

هتفت بعصبية، وقد نفذ صبري ولم أعد أحتمل:

- كف عن هذا الهراء.. أنت مجرد قاتل، يريد إضفاء مبرر منطقي لكل أفعاله، لكن الحقيقة تظل أنك مجرد قاتل..

تجاهلني (مجدي) تمامًا.. بل أخذ يواصل وقد بدأ ينتشي بالفعل:

- ما فعلته اليوم أيها السادة هو أنني أطلقت أنصافكم المظلمة، ثم تركتكم تقومون بالباقي.. فعلت هذا من قبل بتجارب التنويم المغناطيسي، لكني فعلته اليوم دون أن ألجأ إلى شيء سوى حقيقة أننا لسنا متحضرين بالصورة التي نتمناها.. الغلاف الاجتماعي الذي نختبئ خلفه، كان بالهشاشة الكافية، لينهار أمام أول اختبار حقيقي..

- اليوم ستتلقى فروع منظمة الفوضى في جميع أنحاء العالم إشارة البدء، وما أستطيع أن أعدكم به، هو أن حياتكم لن تعود كسابق عهدها.. لماذا أكشف نفسي لكم بهذه الصورة إذن؟!.. لأنها النهاية.. نهايتي هذه المرة.. فأنا تركت لكم أول الطريق، لكني لن أحتمل أن أحيا معكم في هذا الجحيم الذي تحتملونه كل يوم.. لقد انتهى دوري عند هذا الحد، ولم أعد أريد أن أواصل.. حتى لو تم القبض عليّ، فحياتي ستنتهي بعد شهرين على أفضل تقدير.. بعض الأمراض تقتل كما تعرفون.. لذا قررت أن ينضم صديقي (سامي) إليّ في هذه اللحظات الحميمة لأعرض عليه وعليكم تأكيدًا فعليًا لنظريتي..

- ما الذي؟!

- (سامي) كان يعمل كرجل شرطة في القاهرة، وكان متزوج من حمقاء، حين أجريت عليه التجربة، وإليكم ما حدث له... لقد قتل عائلة

كاملة في قسم الشرطة الذي يعمل فيه، وطلّق زوجته، ودمرت حياته، وها هو يجلس أمامي الآن ومسدسه في يده عاجزًا عن إيذائي... (سامي) ليس الوحيد، وهذا يعطيكم فكرة عمّا ينتظركم في الأيام القادمة.. اللعبة التي سنلعبها الآن هي التالي..

كنت أفكر في إطلاق النار على الكاميرات ونسفها، لكني كنت عاجز تمامًا عن الحركة..

تلك الإضاءة، وذلك اللون الأبيض المحيط بي مك كل مكان، يعطياني إيحاء عجيب بأن أصغي دون مقاومة...

وتابع (مجدي) مهزلته التلفزيونية:

- (سامي) أنا أعرف أنك عاجز عن قتلي، لكنك إن لم تفعل سيقوم رجالي ببث إشارات تفجير لقنابل مزروعة في أهم وأشهر المباني في (فرنسا)، وسيعرف المشاهدون معي المعنى الحقيقي لكلمة فوضى، ولو نجحت في قتلي سيرى العالم كله النصف المظلم الذ كنت أتحدث عنه. وإضافة إلى هذا سيشعل جهاز تفجير خاص سيمنحك عشرون ثانية فحسب لمغادرة القصر، قبل أن يطيح بكل من فيه. أي أنك ستكون السبب في موت جميع الموجودين هنا ، وستكون الشرطة التي جاءت في انتظارك أنت.. الخيار لك يا عزيزي وأمامك دقيقة واحدة للاختيار، لذا أرجو من المشاهدين في المنازل، أن يحضروا ساعاتهم..

وأخيرًا صمت (مجدي) واسترخى في مقعده، وأنا أحدق فيه في ذهول جارف، وعقارب الساعة تتسابق لإتمام هذه الدقيقة المتبقية..

لو قتلته سأموت مع من هم هنا، ولو لم أفعل سيموت كل من هم في المباني التي زرع فيها (مجدي) قنابله..

لو قتلته سأثبت صحة نظريته للعالم أجمع، ولولم أفعل سأثبت نجاحه للعالم أجمع..

دقيقة واحدة أمامي على الهواء مباشرة لأتخذ قراري، مع علمي بأنني عاجز عن قتله حتى لو قررت هذا..

تحدث (مجدي) محاولاً تشجيعي:

- هيا يا (سامي).. أنت لست بهذا الضعف الذي تظنه.. لقد كنت أفضل من أجريت عليهم التجربة...

الخيار أمامي محسوم..

سأقتل الوغد، حتى لو مت أنا ومن هنا معه... ستكون هذه خسارة أقل على كل حال!

- (سامي) حاول أن تركز.. أن تستعيد سيطرتك على عقلك.. دع نصفك المظلم المتحكم.. اسمح لمستر (هايد) بالعودة وهو سيتولى الأمر كله نيابة عنك..

لكن.. حتى لو قتلته.. من أدراني أنه لن يفجر هذه المباني على كل حال؟!.. لقد وضع خطته بالفعل، ورجاله سينفذونها حتى بعد موته..

- تذكر الحياة المحترمة التي كنت تحظى بها كرجل شرطة، وكيف انتزعتها أنا منك، لأحرمك حتى من اسمك..

ولو لم أفعل.. الشرطة ستأتي، لتحاول إلقاء القبض عليه.. لكنه لن يقبل أن يموت في السجن بمرضه هذا الذي تحدث عنه..

سيتصرف كما يفعل كل من هم في موقفه، وسيهد المعبد على رؤوس الجميع..

لهذا أتى بي إلى هنا...

لأمنحه نهاية أنيقة لحفله البغيض...

- تذكر مشهد ضحاياك.. تذكر كيف قتلت صديقك (علي).. تذكر واسمح لـ(هايد) بالخروج..

الوقت يمر، والثواني توشك على النفاذ، ولا بد أن المشاهدين في المنازل الآن، يتساءلون كيف ستنتهي هذه الفقرة الأكثر إمتاعًا في التاريخ!!

ربما لو أمكنني تحطيم أجهزة الكمبيوتر.. لكن هل سيدعني أفعلها، أم؟!!

- تذكرها.. تذكر (مايا).. لقد كانت تحبك منذ أن كنت تحت تأثير التجربة..

هنا فقدت تركيزي تمامًا، فابتسم هو ليردف:

- أتعرف؟.. لقد كانت نموذجًا فريدًا من نوعه، خسارة أنني قتلتها في المستشفى و..

- مستشفى؟!!!

- ألم يخبروك؟!...(مايا) لم تلق مصرعها في تلك الليلة مثلك، ولقد نقلوها إلى أحد المستشفيات، والواقع أنها كانت تملك فرصة طيبة للنجاة، لكني لم أكن لأخاطر بأن تخبر أحد ما تعرفه.. لذا دع خيالك يحكي الباقي.. أنا أتسلل إلى المستشفى.. حقنة هواء.. وفاة تضع حدًا لحياة هذه المسكينة.. لقد كنـ..

لكنه لم يكمل عبارته هذه أبدًا...

لم يستطع...

كل ما فعله هو أنه حدق في الثقب الذي نبت في صدره مكان القلب، والذي بدأت الدماء في السقوط منه، ثم في الأدخنة التي تصاعدت من فوهة مسدسي، ليبتسم مرة أخيرة، وهو يهمس:

- لقد نجحت...!

ثم تهاوى رأسه على صدره أمام الكاميرا، ثم سقط من على المقعد مطلقًا حشرجة أخيرة...

لقد خرس (مجدي)....

لقد خرس (مجدي)....

لقد خرس (مجدي)....

كانت بركة الدماء التي تتكون أسفل جثته، إلا أنني أطلقت رصاصة على الكاميرا التي تصور المشهد، واتجهت إلى جثة صديق العمر لأنحني عليها، كأنني أريد أن أتأكد من أنها النهاية بحق..

قاعة بيضاء والضوء يغمرنا من كل اتجاه، وأنا أنحنى على جثة (مجدي)..

الآن أنا أفهم سر ذلك الحلم العجيب.. ترى؟!.. أهو أحد قدراتي المنتظرة؟!!

لكن الصوت الآلي تصاعد من أحد الأجهزة:

- التفجير الذاتي بعد عشرون ثانية...

ثم بدأ العد التنازلي، وقد بدأ دوي سيارات الشرطة يأتي من بعيد، وقد جاءوا - متأخرين - كالعادة..

يجب أن أخرج من هنا... فلم يعد هناك ما يمكنني أن أفعله هنا..

مستر (هايد) اتخذ قراره الأخير، وها هي جثة (مجدي) تعلن عن نجاح وفشل كلينا..

يجب أن أخرج الآن وأنا أعرف - آسفًا - أنني لن أستطيع إنقاذ أحد هنا.. لكني آمل أن أكون قد أوقفت المهزلة التي كانت ستحدث لو فجر (مجدي) هذه المباني التي تحدث عنها..

أسرعت متجها إلى المدخل، وقد شارف العد التنازلي على نهايته، ثم خرجت إلى الحديقة الأمامية، وأنا أجاهد للسيطرة على نفسي مجددًا..

لقد قتلت (مجدي)... فعلتها أخيرًا..

أنقذت البعض. لكني ضحيت بحياة كل من في الداخل..

أنا كنت أملك الخيار. ولقد اتخذته بالنيابة عنهم...

والآن هم يتحركون الآن في الداخل، يحملون ذلك التعبير الجامد على وجوههم، دون أن يؤثر فيهم ذلك العد التنازلي على الإطلاق..

لا.. يجب أن أعود!!!!

لوكان هؤلاء المساكين سيلقون مصرعهم بسببي، إذن يجب أن أكون معهم..

لقد انتهت مهمتي على كل حال..

وهكذا استدرت مزمعًا العودة إلى القصر، ودوي سيارات الشرطة يقترب أكثر فأكثر، لكني لم أكد أقترب من المدخل، حتى دوى الانفجار..

قنبلة من الضوء تنفجر في وجهي.. ثم جسدي يطير إلى الخلف كقذيفة... ثم الدوي الهائل.. ثم.. ثم..

ثم يظلم كل شيء...

إنها النهاية!

***

الفصل الرابع والأخير

أشياء ستحدث!!

حين استيقظت، طالعني وجه السيد (صلاح)، وهو ينظر إليّ بإشفاق..

كنت أستلقي على فراش مريح، في مستشفى كما هو واضح، وكنت أشعر بأنني عاجز حتى عن تحريك عيني...

بأبوية صادقة، ربت السيد (صلاح) على رأسي، قائلاً:

- لقد نجوت مرة أخرى يا عزيزي..

جاهدت أنا ليتحرك لساني أخيرًا فقلت:

- (مجدي)..

- لقد عثروا على جثته... لقد انتهت مهمتك عند هذا الحد..

(مجدي) مات إذن... الكابوس انتهى.. رحل بلا عودة..

كنت أشعر بإرهاق لا حد له، بينما قال السيد (صلاح):

- أنا لا أصدق كيف فعلت الذي فعلته، ولا كيف نجوت من هذا كله، لكن المهم أنك على قيد الحياة.. والأهم أنك لم تعد مضطرًا، للعودة إلى الماضي أبدًا.. أبدًا..

بدا لي قوله هذا غامضًا، إلا أنني كنت أغيب عن الوعي ببطء، ولم ألبث أن استسلمت لنوم عميق، أخذت أحلم فيه..

لم يكن ذلك الحلم المعتاد عن القاعة والجثة والرجل الذي ينحني عليها، بل كنت أحلم بها هذه المرة..

بـ (مايا)..

كنت أراها تنظر إلي..

وتبتسم..

***

بالطبع لم يمر هذا اليوم على (فرنسا) مرّ الكرام، ولقد قدر عدد ضحايا أحداث الفوضى التي حدثت بالعشرات...

صحيح أن معظم التهم وجهت لـ (مجدي) ومنظمته، لكن الحقيقة كانت مذكورة واضحة في أعين الجميع..

(مجدي) لم يفعل شيء سوى أنه منحهم شرارة الانطلاق... وكل العنف الذي نتج بعد ذلك كان من أعماقنا نحن..

كانت هناك تحقيقات طويلة، والكثير من الاتهامات، والكثير من الجثث، لكن الكابوس انتهى أخيرًا..

وببطء واثق، بدأت مدينة النور والجمال، تستعيد ثقتها بنفسها، وبدأت الحياة تعود إلى سابق عهدها، وقد تحول يوم الفوضى الذي صنعه (مجدي) إلى ذكرى مؤلمة، لن تُمحى من ذاكرة من عايشوها بسهولة..

ففي هذا اليوم رأى الناس مدى القبح الذي يخفونه في أعماقهم..

في هذا اليوم، تكشفت حقائق يعرفها الجميع لكنهم يتجنبون التحدث عنها بأي صورة من الصور..

صحيح أن متحف (أورساي) دمر تقريبًا، لكن الإصلاحات الحديثة، قادرة على فعل المعجزات..

صحيح أن ملايين الفرنكات اختفت، لكن التأمينات، والمخزون

الاحتياطي، ومعادلة الأسعار، ستغطي الخسارة..

صحيح أن الكثيرين قد ماتوا في انفجار مبنى اللوموند الجديد ... لكنهم وكما قال (مجدي).. مجرد خسائر معقولة لينجح المخطط.. لكن هذه المرة لا يوجد مخطط، بل توجد أكداس من الأوراق التي يجب ملؤها، وأكداس من الحقائق التي يجب دفنها..

لكن ورغم هذا كله، كانت (باريس) تعود إلى سابق عهدها...

ثمة سحر تمتلكه بعض المدن كالإسكندرية و(باريس)، وهذا السحر الخفي لا يمكن أن يختفي بسهولة..

لا يمكن أبدًا..

***

لم ينج (فرانسو) من عقاب (مجدي) له رغم كل شيء..

فصحيح أن (مجدي) مات إلى أنه كان قد أرسل طرد ضخم، إلى مقر صحيفة اللوموند الرئيسي..

بالطبع تم استدعاء خبراء المتفجرات للتأكد من أن الطرد لا يحتوي على هدية أخيرة، من (مجدي)، لكنهم لم يجدوا أي قنبلة، فقرروا فتح الطرد..

وكان ما عثروا عليه في الداخل أسوأ من أي قنبلة، وأعلى دويًا...

جميع ملفات العمليات القذرة التي تقوم بها المخابرات الفرنسية، وقوائم طويلة بأسماء الفاسدين، والجواسيس داخل (فرنسا) وخارجها، وبالمبالغ التي يتم سرقتها سنويًا من ميزانية الحكومة...

كل هذا مرفق معه صور للكونت (فرانسو) وهوي جلس مع (مجدي)، على مائدة، تحمل على سطحها رزمة من الملفات، وهكذا أصبحت إدانة الكونت (فرانسو) حتمية..

صحيح أنه اختفى بلا أثر، لكن (فرنسا) كلها تسعى خلفه الآن..

وصحيح أن صحيفة اللوموند قد خسرت المقر الجديد لها، لكنها حظيت بسبق، لن يتكرر في تاريخها مرتين..

لقد ترك (مجدي) لهم هديته الأخيرة..

لقد كان يقول دومًا أن صحيفة اللوموند هي الأفضل على مستوى العالم، و(جين) ظنت أنه كان يقول هذا لإبهارها...

(جين مونتان)..

أنا مدين لهذه الامرأة بشيء ما...

***

اليوم طلقت زوجتي التي لا أعرف أي شيء عنها..

يبدو الأمر ساخرًا، لكن هذه هي حياتي أيها السادة... سلسلة من الأحداث الساخرة الرهيبة..

ذهبت معها إلى مكتب المحامي الذي اختارته، ولم تستغرق الأوراق منا وقتًا طويلاً كما كنت أتمنى..

وحين حصلت على حريتها أخيرًا، قالت (جين) لي:

- لو أردت أن تزورني في أحد الأوقات.. أعني كصديق..

إلا أنني أجبتها ببرود قاس:

- لقد كان الأمر كله صفقة، ولقد انتهت بالفعل..

ثم تركتها دون أن أشعر بذرة ندم...

اليوم طلقت زوجتي التي لم ولن أعرفها...

لكم هذا مريح... لكم هذا جميل!

***

لكن الأمور لم تنته عند هذا الحد..

فحين عدت للسفارة أخيرًا، طلبني السيد (صلاح) إلى مكتبه، فاتجهت إليه على الفور، وأنا أعد نفسي، لجلسة استجوابات طويلة...

لكني ما إن دخلت عليه، حتى أشار إلي بالجلوس، وهو يتكلم بلهجة رصينة مهذبة، أدركت معها أن كارثة توشك على الحدوث:

- اجلس يا (سامي) فأنا أريد التحدث إليك قليلاً..

جلست أمامه، قد قررت أن ألوذ بالصمت، حتى يلقي بما لديه، فتابع هو:

- أعرف أنك عانيت الكثير طيلة الفترة الماضية، لكن بتخلصك من (مجدي)، أعتقد أن عبء ثقيل قد انزاح من على كاهلك... المشكلة الآن هي أن جئت إلى هنا بهوية جديدة، وتحت اسم (أكرم رشوان)، لكن هذه الهوية نسفت بعد ما حدث، ولم يعد بمقدورك العودة إليها..

وصمت قليلاً، كأنما يزن ما سيقوله، قبل أن يتابع:

- أنت متفق معي على أن هويتك القديمة كـ(سامي) لم يعد لها وجود، وحتى لو أعدناك إلى القاهرة بهذه الهوية، لن تواجه سوى المتاعب، والآن أنت تسببت في القضاء على هويتك الجديدة.. أي أنك الآن – رسميًا – بلا هوية..

ها هو صوت طبول القلق يتعالى داخل رأسي، لكني سأصمت حتى ينتهي..!

- الوضع الآن أن أمامك خيار من اثنين.. إما أن نمنحك هوية جدية وعمل جديد في مكان جديد، وإما أن تعمل كمجهول...

هنا لم أملك نفسي من أن أردد خلفه:

- مجهول؟!!

- نعم... لن يتم صنع أي هوية لك إلا عند الضرورة، ستكون الهوية مختلفة كل مرة وفقًا للظروف التي ستخضع لها، وسيكون عملك هو التدخل فيما نحتاج إليك فيه لتنهيه، دون أن تترك أي أثر خلفك أو أن يعرف بك أحد..

- هل.. هل سأعمل مع المخابرات؟!

- مع قسم خاص في المخابرات.. لكنك ستظل على اتصال معي..

- هل لي أن تشرح الموقف أكثر؟

- (سامي).. لو وافقت على الاقتراح الثاني، ستعمل كمجهول.. كظل لا يراه أحد ولا يشعر به مخلوق.. المهمات التي ستنفذها ستتنوع كل مرة... القدرات التي تمتلكها، سواء التي اكتشفتها أو التي لم تكتشفها بعد، قد تكون مصدر عون هائل لنا، لكن لا يوجد ما يجبرك على الاقتراح الثاني.. لو أردت، ستحصل على هوية جديدة ثابتة وعمل جديد من الغد..

كنت أشعر بالحيرة أمام ما سمعته، فلم أملك إلا أن أقول:

- أعتقد أنني سأحتاج بعض الوقت للتفكير..

- أمامك حتى الغد.. بعدها أبلغني بقرارك، وسأدعمك أيًا كان..

- سأفعل..

ثم غادرت غرفته، والأفكار تدور في رأسي المنهك...

هذه المرة أنا أملك الخيار..

هذه المرة أنا أملك الخيار..!!

***

بالطبع اتخذت قراري، ولست أعرف إن كنت قد أصبت أو أخطأت..

أنا الآن أعمل كمجهول... أعيش كجهول... أتواجد كمجهول...

أنا الآن لا وجود لي إلا في ذاكرة أقل القليل، وعليّ في الفترة القادمة أن أعتاد هذا النمط الجديد – والعجيب – من الحياة...

لا أحد يعرفني، ولا يشعر بي مخلوق..

لماذا اخترت هذا الاختيار؟!

لأنني تفوقت على من لا يوجد لديهم شيء يخسرونه، فأنا لم يعد لدي شيء أملكه!!

أنا الآن بلا شيء على الإطلاق.. أي شيء.. حتى هوية لأعيش بها..

ثمة أشياء سيكون عليّ تعلمها الفترة القادمة..

فالمرحلة الجديدة من حياتي لها متطلبات خاصة، وإمكانيات خاصة..

المرحلة القادمة من حياتي تعتمد على ألا أتواجد إلا على هذه الأوراق التي أخطها الآن، لتكون الشاهد الوحيد على قصتي...

هذه الأوراق التي لا تحمل سوى عنوان عجيب كئيب..

(أوراق مجهول)...

؟؟؟؟؟

٢٠٠٤/٦/٢٣

الورقة الثالثة

أيام مع الشبح

١- كوميكس..

حاول أن تتخيل هذه المشاهد معي على أنها جزء من قصة كوميكس، حيث يتم تقسيم الأحداث إلى كادرات ثابتة وبلالين حوار، نقرأ فيها ما يقوله من في القصة، فلا أعرف طريقة أفضل لأنقل بها لك ما حدث في هذا اليوم..

حاول أن تقرأ هذه الصفحات، ثم اغلق عينيك لتتخيلها مرسومة أمامك، بطريقة الأكريليك.. ولا تخش شيئًا، فلست مطالبًا لأن تكون خبيرًا في فن الكوميكس، لتفهم ما هو الأكريليلك هذا.. كل ما عليك هو محاولة رؤية لعبة الكمبيوتر (ماكس بين Max Payne) بجزئيها.. هل تعرف هذه اللعبة؟.. هل رأيت فواصل الكوميكس بين مراحل اللعبة؟..

هذا هو الأكريليلك إذن.. فألوان البلاستيك ذات سحر لا ينكر، لكنها تحتاج ليد خبيرة لترسم بها..

والآن هل أنت مستعد؟.. لنبدأ إذن..

الكادر الأول:

الكادر الأول سيكون لغابة (شانتيلي) في (فرنسا)، التي تحيط بإحكام بفندق (شاتومونت رويال) الذي نراه في قلب الكادر، شامخًا أنيقًا تعكس نوافذه الضخمة ضوء الشمس الغاربة، ليتألق المبنى كله بلونه الأبيض وسطحه الأزرق بالضوء. ليبدو أقرب إلى متحف منه إلى فندق خمس نجوم... الشمس على وشك الغروب، لذا فهي تلقي بأشعتها الذهبية تجاهنا، وتجعل هؤلاء الثلاثة الذي يخرجون من سيارة سوداء، أمام الفندق، أشبه بثلاث ظلال ممتدة بلا نهاية.. لاحظ أنه كادر كوميكس، أي أن المشهد ثابت أمامنا، لكننا نشعر بالحركة من توالي الأحداث، وبالتأثيرات التي يضيفها الرسام إلى الكادر بفرشته..

لهذا الكادر هامش علوي، مكتوب فيه بخط مائل: "كانت الشمس تلقي بأشعتها الذهبية على الوجود، حين وصل هؤلاء الثلاثة إلى فندق (شاتومونت رويال).."

الكادر الثاني:

الكادر الثاني سيكون لأحذية ثلاث رجال سوداء لامعة، تضغط بقسوة على زهور كانت على الأرض عند مدخل الفندق، لتسحقها سحقًا... وبالتأكيد سيواصل الهامش العلوي للكادر شرحه: "كان الغموض يغلفهم تمامًا...".

الكادر الثالث:

الكادر الثالث سيكون للثلاثة وهم يتجهون لاستقبال الفندق – نرى ردهة الفندق من الداخل، وهي فخمة كأي ردهة فندق خمس

نجوم، وهناك ثريا هائلة تتدلى من السطح، بينما أصص النباتات غزيرة الأوراق تحتل الأركان – والثلاثة بأجسادهم الضخمة الفارهة. والمعاطف السوداء التي يرتدونها لتطاير خلفهم، فتمنحهم نوع خاص من المهابة، بينما نرى عند طاولة الاستقبال، شاب أنيق مهندم، يرتدي الزي الرسمي للفندق، ويبدو عليه الشحوب، وهو ينظر بتوتر للثلاثة المتجهين إليه..

الكادر الرابع:

الكادر الرابع سيكون ضخمًا بعض الشيء، وستكون الكاميرا هذه المرة من خلف ظهر موظف الاستقبال ، لنرى وجوه الثلاثة أخيرًا..

هذه الوجوه روسية... الشعر الأشقر.. الذقن الحادة.. العيون الزرقاء الباردة القاسية.. وذلك الاحمرار الخفيف في بشرتهم..

هؤلاء الثلاثة روس، ونلاحظ أن أحدهم أقصر قليلاً من رفيقيه، وهومن يميل على موظف الاستقبال - أي تجاهنا، مما يجعل وجهه ضخم ومخيف نوعًا ما في الكادر – بينما يقف رفيقاه بثبات خلفه ينظرون تجاهنا مباشرة، بأعين لا تطرف... الكادر ثابت على كل حال!

من القصير الذي يميل على موظف الاستقبال، تخرج بالونة حوار نقرأ فيها:

- غرفة المسيو (لوران فابوس) من فضلك..

تخرج بالونة من موظف الاستقبال. نقرأ فيها بحروف متقطعة تعكس خوف الموظف:

- رقم (٢١٥).. لكنه لا يستقبل زوار في هذه الساعة.. إنه..

الكادر الخامس:

نرى الثلاثة يتجهون إلى المصعد بينما موظف الاستقبال يقف في مكانه يرتجف، ونلاحظ أن القصير، يتقدمهم قليلاً... إنه كبيرهم إذًا .. وأيًا كان ما ينتوونه، فهو ليس في صالح المسيو (لوران فابوس) بالتأكيد...

نرى بالونة تفكير، أشبه بالغمامة، تتصاعد من رأس موظف الاستقبال، ونقرأ فيها:

- من هؤلاء بالضبط؟!!

لكننا لا نعرف من هم..!

الكادر السادس:

ممر الفندق، حيث البذخ هو الطابع الغالب على كل التفاصيل في هذا المشهد... اللوحات على الجدران.. السجاد المخملي على الأرض... التماثيل الرخامية لأشخاص يتخذون أوضاعًا عجيبة، لكنه الفن على كل حال لذا لا يجب علينا أن نعترض..

ثم الثلاثة، نراهم من ظهرهم يتجهون إلى أحد الغرف.. ثمة شيء يحمله أحد الثلاثة في يده، لكنه أصغر من أن نميزه... هل هو مسدس؟!

الكادر السابع:

نرى باب الغرفة، يحمل الرقم (٢١٥) باللون الذهبي، ونرى يد تحمل أداة معدنية رفيعة تتجه إلى الرتاج، الذي علقت عليه ورقة، مكتوب عليها بالفرنسية (ممنوع الإزعاج)..

نحن نعرف بالطبع ما هو الغرض من هذه الأداة.. الدخول بلا ضوضاء كفيلة بلفت الانتباه!

ثم إن الإزعاج ممنوع كما هو مطلوب على الورقة على الرتاج!!

الكادر الثامن:

الكاميرة هذه المرة داخل الغرفة.. ليست غرفة، بل هي جناح كامل من باب الدقة، ينضح بالترف والبذخ، إذ يمكننا أن نرى تلك الأرائك الوثيرة، والمزيد من التماثيل الرخامية، وبار صغير في يمين الكادر، تراصت فيه الأكواب والزجاجات التي يبلغ ثمن الواحدة منها، مرتب موظف فرنسي لعدة أشهر..

بالطبع نرى المسيو (لوران فابوس) وهو يحمل كأس تطاير الشراب منه، مرتديًا روب حريري، وهو يهب من على مقعده مأخوذًا بتلك المفاجأة الغير المتوقعة، بينما نرى نحن الثلاثة وهم يقفون على الباب يحملون ذلك التعبير القاسي على وجوههم، ومسدسات أنيقة في أيديهم يسددونها بوضوح إلى المسيو (لوران فابوس) الذي يحمل وجهه تعبير فزع، سيرهق أي رسام يحاول رسمه، وقد تصاعدت منه بالونة انفجار حادة الأطراف، كما يسميها (دينيس أودونيل) رئيس تحرير (DC Comics)، نقرأ فيها بالفرنسية:

- ما هذا؟؟!.. من أنتم؟!!

ومن القصير الروسي، يتصاعد بالون ذو ذيل، مكتوب فبه:

- أنصحك أن تلزم الهدوء.. فلدينا ما سنناقشه سويًا قبل أن نرحل..

الكادر التاسع:

نرى القصير يجلس على أحد الأرائك، مرخيًا ساق على الأخرى، محتفظًا بالتعبير البارد القاسي على وجهه، وبالمسدس في يده، بينما يقوم أحد رفيقيه، بتقييد المسيو(لوران فابوس) إلى أحد المقاعد، الذي يبدو عليه الفزع أضعاف وأضعاف ما رأيناه عليه من قبل، وقد سقط كأسه على السجادة الفاخرة، وقد قام الثالث بغلق باب الغرفة بإحكام، ليحظوا بالقليل من المتعة دون مقاطعة..

من القصير تتصاعد البالونة ذات الذيل، نقرأ فيها:

- والآن.. أمامك خيارين لا ثالث لهما.. أن تتحدث بالطريقة السهلة، أو بالطريقة الأصعب..

ومن المسيو (لوران فابوس) تتصاعد بالونة الانفجار:

- عن ماذا أتحدث؟!.. من أنتم بالضبط؟!

الكادر العاشر:

نصف وجه القصير الأيسر يحتل الكادر مع الكثير من الظلال على ملامحه، ليبدو مخيفًا بحق، ببريق عينه الظاهرة – من الممكن الحصول على هذا البريق بتلوين الكادر باستخدام أي برنامج جرافيك – وقد تساقطت خصلات شعره الأشقر على وجهه... لا ننكر أنه وسيم.. لكنها وسامة مخيفة، لو كنت تفهم ما أقصده.. نلاحظ أيضًا وجود ندبة خفيفة أسفل عينه اليسرى..

ومنه تتصاعد بالونة، نقرأ فيها ونحن نرتجف:

- إذًا فلقد قررت أن تختار الطريق الأصعب..

الكادر الحادي عشر:

الفندق من الخارج مرة أخرى، ونلاحظ أن الشمس قد غربت، ليحتل قمر شاحب مكانها في السماء، ليحل الظلام على الكادر، إلا من الأضواء الخارجة من نوافذ الفندق، ومن عواميد الإنارة خارج الفندق، ونرى الثلاثة وهم يخرجون من الفندق، عائدين إلى السيارة، وهم يرسمون تلك الظلال الطويلة مجددًا، والقصير يتقدمهم، وملامحه تحمل تعبير غضب مخيف..

الكادر الثاني عشر:

ممر الفندق.. نرى تلك الخادمة البدينة، طيبة الملامح – يجب أن تكون بدينة، ليبدو عليها الفزع أوضح – تسير في الممر وهي تجر أمامها عربة صغيرة تحمل كم لا بأس به من زجاجات الشراب، ومن بعض الأطعمة الخفيفة، ومن النافذة في الممر خلفها، نرى سيارة سوداء تبتعد، كشبح أسود عملاق..

تتصاعد بالونة من الخادمة، تدندن فيها بأغنية رومانسية من تلك الأغاني الفرنسية التي يذرفون فيها الكثير من الدموع، نقرأ فيها ونحن نحاول كتم ضحكاتنا:

- ضمني إلى صدرك أيها الوسيم.. تن لم لم.. أريد أن أرقص لك طيلة الليل..

الكادر الثالث عشر:

نرى الخادمة تتوقف وهي تضع يدها على صدرها تشهق بعنف – بإمكان الرسام أن يرسم الخادمة على أنها زنجية.. الزنوج يعبرون عن الهلع أفضل بكثير – وقد بلغت الغرفة رقم (٢١٥)، لتجد أن بابها شبه مفتوح، وأن هناك دماء تزحف من أسفل الباب إلى الممر..

نرى أن البالونة فوق رأسها كانت تنقل باقي الأغنية، قبل هذا التوقف المفاجئ:

- وحين سأرقص.. تن لم لم.. سأريك كيف أن.. ما هذا؟!!

الكادر الرابع عشر:

نعود إلى غرفة المسيو (لوران فابوس) ، والكاميرا من الداخل تنقل لنا المشاهد الأخيرة لهذه الأحداث المؤسفة..

نلاحظ أن الغرفة لا تزال فخمة كما رأيناها أول مرة وإن هناك الكثير من الدماء على الجدران وعلى الأرض... ونرى أن المسيو (لوران فابوس) المقيد على مقعده، قد مات، لكن الكاميرا في ظهره – لحسن حظنا – لذا فلن نرى ما الذي حدث لوجهه بالضبط.. يمكنك أن تتخيل!

ثم نرى الخادمة عند الباب وهي تضع كفيها على فمها الزنجي العملاق، وعينيها تنقلان أشنع تعبير عن الهلع من الممكن لرسام أن ينفذه..

إنها تحشد صرختها.. ولا بد أنها على وشك الانفجار..

الكادر الخامس عشر:

الفندق من الخارج في ظلام الليل وضوء المصابيح، وهذه المرة تحيط به صرخة، لا يمكن لبالون أن يستوعبها، قادمة من أحد النوافذ:

- آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآه...

هذه المرة يوجد هامش سفلي، نقرأ فيه باقتضاب:

- وهكذا انتهت الليلة، وهي تحمل لقصتنا أول ضحية...

وهكذا أيها السادة، أكون نقلت لكم أول أحداث قصتنا الجديدة في خمسة عشر كادر كوميكس فحسب...

الآن إذن يمكننا أن نعود لنسرد ما حدث.. وما سيحدث..

***

٢- حياة مجهول..

لكم هو رائع أن تكون مجهول..!!

لا مسئوليات.. لا أعباء.. لا ماضي يؤرقك التفكير فيه.. ولا مستقبل تخشى عليه من الأيام..

لكم هذا رائع.. لكم هذا مريح..

لوكنت (محمود) مثلاً، فأنت مطالب بكل أعباء كونك (محمود)..

لديك أسرة تطالبك بحقوقها في كل لحظة من لحظات حياتك، وربما زوجة كذلك تذكرك بأن حقوقها أهم وأكثر، فالأطفال في نمو مستمر ومطالبهم تزداد مع كل لحظة ينضجون فيها، وهناك العمل الذي تدفن فيه حياتك، لتحصل أول كل شهر على حفنة مضحكة من الأوراق النقدية التي تتلاشى أسرع من دخان سيجارتك - بالتأكيد أنت تدخن مع كل هذه المصائب - وفي نهاية حياتك ستجلس وحيدًا حائرًا، تفكر فيما أضعت عمرك بالضبط، لتجد أنه لا توجد إجابة مقنعة تستحق...

هذه هي أعباء كونك (محمود)... هل فهمت الآن ما هي روعة أن تكون مجهول؟!!

أنت لا تفكر في شيء سوى أن تمر بالحياة لحظة بلحظة، تنتشق عبيرها وتبحث بلا كلل عن مواطن البهجة فيها، وفي النهاية ستجد الكثير والكثير لتحكيه لكل من دفعوا ثمن أن يكونوا هم.. هم!!

أما أنا فلا أملك سوى حقيقة كوني مجهول..

أحيا كمجهول.. أتنفس كمجهول.. أرشف من كأس الحياة كمجهول.. وفي النهاية سأموت كمجهول، لا يملك إلا هذه الأوراق ليحكي عليها قصته....

أنتم تعرفون ما حدث لي، لذا لن أرهق نفسي بتذكره، بل سأقفز على الفور إلى الأحداث التي بدأت من بعد موت (مجدي)... (مجدي) من؟!!... اقرأ الأعداد السابقة وستفهم، أولا تفعل وستوفر على نفسك العناء!

المهم... لقد تركت عملي في سفارة (فرنسا) إذ لم يعد لـ (أكرم رشوان) وجود، وانتقلت إلى شقة مؤجرة – باسم مستعار – في (باريس)، أنتظر أن تبدأ مهمتي الأولى كمجهول..

هذه هي الصفقة التي عرضت عليّ والتي قبلتها أنا بصدر رحب..

أن أحيا كمجهول، مقابل تنفيذ بعض المهام من حين إلى آخر، دون أن يشعر بي أحد أو أن يعرف حقيقتي مخلوق...

لكن ثمة خيوط لا تزال تربطني بحياتي القديمة، أولها السيد (صلاح) السفير المصري، الذي ظل على اتصال بي، ليطمئن على أنني لا زلت حيًا، على فترات متقاربة، دون أن يأتي على ذكر عملي الجديد أو مع من سأعمل أو ما الذي سأفعله بالضبط..

حتى أنا لم أرهق نفسي بالسؤال..

سيخبرني حين يأتي الوقت المناسب، أوحين يحتاجوا لي، وإلى هذا الوقت أمامي الكثير والكثير لأجربه وأكتشفه... أنا في (باريس) أيها السادة، ولن أعدم أن أجد شيئًا لأضيع فيه وقتي..!

كانت الأحداث الأخيرة التي مرت بها (باريس) قد غيرت الكثير من طباع هذه المدينة الساحرة – يبدو أنك ستضطر لقراءة الأعداد السابقة لتفهم – فانتشرت قوات الشرطة بغزارة أكثر من المعتاد في طرقات المدينة، وبدا التوتر على ملامح الجميع، كأنهم ينتظرون ضربة منظمة الفوضى القادمة بلا ريب، لكن سكان المدينة أنفسهم، بدوا أكثر هدوءًا كأنهم اعتادوا الأمر، أو كأن القلق نوع من عدم اللياقة الاجتماعية التي اشتهروا بالمحافظة عليها، كشيء مقدس لا يقبل المساس به..

بالطبع شاهد الجميع البث المباشر الذي ختم به (مجدي) حياته، لكني لم أظهر فيه لحسن الحظ، مما منحني حرية الحركة، دون أن يتعامل معي الجميع ككائن فضائي، يستأهل المراقبة والملاحقة في كل مكان...

صحيح أن قوات الشرطة أصبحت تحتفظ بملف كامل عني، بعد أن أغرقتني بسلسلة طويلة من التحقيقات، لكنهم في نهاية الأمر لم يجدوا أي شيء ضدي، فتركوني أهيم على وجهي في شوارع البلدة ولا بد أنهم سأموا من مراقبتي، ونسوني ليتفرغوا للكوارث القادمة التي لا تطيب الحياة بدونها..

لم يجدوا (فرانسو) حتى الآن إن كان هذا قد جال بخاطرك، و(فرانسو) هذا رجل مخابرات سابق، ساعدني في الوصول لـ (مجدي)، بعد أن كان مموله، ليدمر هذا الأخير حياته، بأن أرسل ملفات المخابرات الفرنسية القذرة إلى صحيفة اللوموند، ومعها مجموعة من الصور

التذكارية لـ (فرانسو)... وهكذا أصبح الكونت (فرانسو) – كما اعتدت تسميته – هدف (فرنسا) الأول، الذي لم يصل إليه أحد بعد..

لم يتصل بي مجددًا، فلقد استنفذ حاجته مني، وأصبح لديه مشاكله الخاصة ليهتم بها، وهكذا لم يعد أمامي أنا سوى أن أستمتع بحياتي. بعيدًا عن كل ما يربطني بما حدث ويحدث حتى الآن..

ثاني من شاركني حياتي السابقة، وكنت لا أزال على اتصال بها، هي طبيبتي النفسية العزيزة (لارا)، بجسدها الزنجي الضخم، وأنفاس الكحول التي تبثها مع كل نفس يتردد في صدرها الضخم، إذ كنت أذهب إليها على فترات، لنحاول معًا اكتشاف القدرات العقلية التي أمتلكها دون أن أعرف عنها كل شيء حتى الآن..

لماذا (لارا) بالذات؟!... حسن.. لأنها لن تحولني إلى فأر تجارب، ولن تأتي إليّ في يوم من الأيام، لتطلب مني أن أكون موضوع رسالة الدكتوراه...

هذه المرأة تجيد عملها حقًا، لكن غاية أملها في الحياة هو زجاجة نبيذ جيدة!

على كل حال هاك ما عرفته حتى الآن..

إلى جوار ذاكرتي الخرافية وقدرتي الهائلة على الاستيعاب والتعلم، أصبحت أمتلك قدرة محدودة على رؤية ما يحدث داخل الأماكن المغلقة، بمجرد أن أمس باب الغرفة بيدي، وهذا لا يحدث باستمرار، لكن في حالات خاصة، حين أشعر بالخطر، أوحين أركز بشدة، وفي هذه الحالة أرى ما يدور داخل الغرف المغلقة في صور متتالية يصحبها ألم عنيف، يصعب احتماله..

هل هذه القدرة مفيدة؟!... أحيانًا.. لكني لم أستغلها جيدًا حتى الآن ..

القدرة الثانية الجديدة كانت عجيبة بحق..

ودعني أنقلك إلى لقائي بالعزيزة (لارا) لتتعرف معي هذه القدرة الجديدة..

***

تضع (لارا) أمامي بعض الأشياء العجيبة... قلم مكسور.. سلسلة مفاتيح.. سكين.. مرجع طبي ضخم..

ثم تقول بشغف:

- هيا ابدأ..

أمسك أنا بالقلم المكسور وأركز، لأقول:

- أسمع ضوضاء.. صخب متناظم.. كأنني في وسيلة مواصلات مزدحمة..

- رائع..

أمسك بالسكين وأركز، لأقول:

- أشم رائحة البرتقال..

- مبهر

أمسك أنا بسلسلة المفاتيح وأركز، لأقول:

- لا شيء..

- متوقع..

وأخيرًا أمسك بالمرجع الطبي وأركز، لأقول:

- لست متأكدًا.. أشعر كأنني أسفل الماء..

وهنا تهز الدكتورة (لارا) رأسها بتفهم، ثم تبدأ في الشرح:

- إذن فأنت تملك قدرة الـ (Psychometry).. هل سمعت هذه اللفظة من قبل؟

- إطلاقًا..

- إذن دعني أشرح لك المقصود بها.. الـ (Psychometry) هي إحدى القدرات النفسية الفائقة، كالقدرة على قراءة الأفكار (Telepathy) وتحريك الأجسام باستخدام التفكير (Telekinesis).. لكن هذه القدرة تختلف.. الـ (Psychometry) يعني القدرة على معرفة تاريخ الأشياء بمجرد اللمس، كأن تمسك بشيء كالسكين مثلاً، لتعرف كل شيء عمن استخدم هذا السكين، وفيم استخدمه... لكن، في حالتك أنت يبدو الأمر مختلفًا..

- كيف؟!

- من لديهم قدرة الـ (Psychometry) لا يواجهون مشاكل من أي نوع.. إن الشخص فيهم يمسك بأي شيء، ليعرف تاريخه كاملاً كأن ذكريات الجسم انتقلت إلى عقله مباشرة .. لذا كثرت الأفلام والمسلسلات التلفزيونية عن هؤلاء الذين يملكون هذه القدرة الفريدة.. الأمر معك مختلف.. إنه أشبه بمرض (السينيسيشيا)..

رددت من خلفها بصعوبة:

- سينـ.. سينيسشيا؟!!

- أعرف أن نطق الاسم صعب.. السينسيشيا (Synethesia) مرض نادر لو جاز لنا أن نسميه مرض.. فالمصاب بهذا المرض تختلط الحواس عنده وتمتزج سويًا، بحيث يصبح للمؤثر الواحد أكثر من قراءة لدى المصاب.. فهولا يسمع الكلمة مثلاً فحسب.. بل يتذوقها

ويشم لها رائحة، ويرى لها لونًا.. أي أن حواسه الخمسة تتعامل كلها مع أي مؤثر، كما أن المصابين بهذا المرض يمتلكون ذاكرة فوتوغرافية هائلة، فالمريض منهم يمكنه تذكر صفحات كتاب كامل بمجرد التقليب في صفحاته بسرعة.. وهذا يذكرني بذاكرتك التي تزداد قوة، وسرعة استيعابك المتزايدة..

تصب (لارا) بعض الشراب في كأسها، كأنما تهنيء نفسها على كم المعلومات الذي ذكرته الآن، ثم تواصل وقد بدأت تتحمس أكثر:

- حين أمسكت أنت بالقلم سمعت ضوضاء المترو الذي كنت أنا فيه حين انكسر القلم مني.. وبالطبع آخر شيء قطعته بهذا السكين، كان البرتقال.. وهذا المرجع الطبي عثرت عليه قرب شاطئ النهر.. أي أن حواسك هي التي تفاعلت بصورة ما مع تاريخ هذه الأشياء..

كنت أشعر أن هذا كله غريب وعجيب، لكني اعتدت أن أبتلع هذا الشعور، فقلت:

- لكني لم أشعر بشيء تجاه سلسلة المفاتيح..

- هذا وارد.. مثل هذه القدرات لا تكون تحت الطلب، بل هي تظهر حين تريد أن تظهر.. في حالتك أنت أعتقد أنها ستكون تحت طوعك، فهذه القدرات نتيجة تجارب طويلة تعرضت أنت لها، وليست مجرد موهبة.. الملخص.. أنت تملك قدرة طريفة لكنها قد تسبب لك من المشاكل أكثر مما ستخدمك، لذا لا تجعلها تستحوذ على تفكيرك..

لا بد أنها ستجرع من الزجاجة مباشرة هذه المرة.. إنها لا تتوقع أن تضيف أي شيء لأي أحد في حياتها البائسة، لذا فهي تشعر بأنها المرأة الخارقة، وهي تشرح لي هذا الكم من المعلومات..

ثم أنها مالت عليّ لتسألني السؤال الذي توقعته:

- هه.. هل ظهرت لديك قدرات أخرى جديدة غير هذه؟!

- لا.. ليس بعد..

- لا تشغل بالك إذن.. لديك ما يكفيك حتى الآن لتشغل به وقتك.. لندع الباقي لوقته..

- سأفعل..

ثم اتجهت إلى الباب لأغادر المكان، لكنها استوقفتني، لتقول:

- هل لي أن أطلب منك شيئًا؟.. ولكن.. لا.. انس الموضوع..

- ماذا كنت ستطلبين؟

- أن أجعلك موضوع بحثي القادم، لكني لست في حاجة إلى المزيد من الإرهاق..

هززت رأسي متفهمًا، ثم غادرت المكان لأسمح لابتسامتي بالظهور على شفتي..

لقد كانت (لارا) امرأة تعرف حدودها جيدًا!!!

***

٣- المهمة الأولى..

الآن أنت تعرف الكثير عن حياتي كمجهول، وعن القدرة الجديدة التي اكتسبتها، لذا سأرحمك من التفاصيل التي لا داعي لها، وسأقفز مباشرة إلى لقائي الأول بالسيد (أنور)..

حدث هذا في صباح أحد الأيام، حين اتصل بي السيد (صلاح)، ليخبرني أنه عليّ أن أتوجه إلى مقهى الـ(الحرية) في الحي الغربي لأبدأ مهمتي الأولى كمجهول...

بالطبع شعرت بذلك المزيج المهيب من التوتر واللهفة، لكن الغلبة كانت للهفتي، فأخذت أرتدي ملابسي بسرعة، لأتجه إلى ذلك المقهى...

أخيرًا سأبدأ أولى مهامي كمجهول.. يبدو هذا شيقًا.. يبدو هذا ممتعًا..

إن عشرات الأسئلة تدور في ذهني الآن...

ترى بأي مهمة سأبدأ؟؟ وأي هوية سيمنحونني؟؟ ومن الذي سأتعامل معه بالضبط؟؟

هل سيروق لي هذا العالم الجديد الذي أقدم عليه؟؟ أم أنني سأندم على هذا الاختيار؟!

إن إجابات كل هذه الأسئلة تنتظرني في ذلك المقهى، حيث سأقابل السيد (أنور)، ومنه سأعرف كل شيء..

وصلت إلى المقهى مبكرًا، لأنتبه إلى ملاحظة طريفة، وهي أنني لا أعرف كيف يبدو السيد (أنور) هذا، وحتى لوكان جالسًا الآن داخل المقهى، فلن أتعرف عليه..

مؤكد هو يعرف كيف أبدو أنا.. مؤكد أنه يملك ملف كامل عني يحوي أدق التفاصيل إلى جوار عشرات الصور لي.. إنه رجل مخابرات، ولا بد أنهم يملكون مثل هذه الملفات التي تحوي عن المرء، أكثر مما يعرفه هو نفسه..

وهذا يعني أنه لا يوجد أمامي شيء أفعله سوى الانتظار.. حتى يظهر السيد (أنور) و..

"مرحبًا.. هل تأخرت عليك؟!"

يبدو أنني لن أنتظر طويلاً...

استدرت لأرى السيد (أنور) لأول مرة في حياتي، فلم أصدق ما رأيته...

قصير هو السيد (أنور) ذلك القصر الذي يجعلك تشعر بعدم الثقة.. القصر الذي يجعلك تشم رائحة المكر والدهاء، اللذان هما هبتا أي شخص بهذا القصر.. فما بالك لو أضفنا إلى هذا القامة القصيرة، وجه قاس الملامح، وعينين نافتين، وصوت أجش نوعًا ما؟!!

من المستحيل أن يكون هذا الرجل من المخابرات حقًا..!!

رجال المخابرات طوال القامة، ويمتلكون جسدًا رياضيًا وملامح وسيمة، ويبتسمون بثقة طيلة الوقت.. هذا هوما أعرفه عن رجال المخابرات، وهذا هوما كنت أنتظره..

أن أجد نفسي مع (جيمس بوند) شخصيًا، لأبدأ معه أول مهامي كمجهول!! أما هذا الـ..!!

جلس إلى المائدة جواري، وهو يلهث ثم تناول كوب الماء على الطاولة، ليجرعه دفعة واحدة، ثم قال بارتياح:

- أنت (سامي) إذن.. حسن.. لم أتوقع أن تبدو هكذا..

- ماذا؟!!!!!

- أنت لا تشبه صورك على كل حال، أو أن الحياة الباريسية أضافت إليك بعض الوسامة.. على كل حال.. هل أنت مستعد يا فتى؟!

- لهذا أنا هنا..

- عظيم.. لنبدأ إذن فلا وقت لنضيعه.. هل يمكنك أن تخبرني ما هذا؟!

ثم إنه منحني صورة شاب وسيم، تناولتها منه لأتفحصها جيدًا، قبل أن أقول بثقة:

- لم أره في حياتي من قبل..

بالطبع لم أسأله من صاحب الصورة، بل انتظرت ليخبرني هو.. و..

وأعتقد أن الوقت قد حان للمزيد من نصائحي المجانية، لذا هاك نصيحة اليوم... لا تسأل رجل مخابرات عن أي شيء أيًا كان السبب.. ما يريد هو لك أن تعرفه سيقوله، دون حتى أن تطلب، لكن لو سألته أنت عن المتجر الذي اشترى منه ربطة عنقه، سيمنحك الإجابة الخالدة (المعرفة على قدر الحاجة)..!

ومن تلقاء نفسه قال السيد (أنور):

- لماذا لا تستخدم قدراتك هذه؟!.. سمعت أن تملك بعض القدرات العجيبة..

هذا ما كنت أخشاه.. أن يتعامل معي كمخلوق عجيب لديه قدرات أعجب!

لكني تمالكت نفسي، وأخذت أنظر إلى الصورة وأنا أركز..

كانت الصورة لرجل في الثلاثينيات من عمره، ذو شعر أشقر قصير، وملامح وسيمة هادئة، وابتسامة واثقة كأنه رجل أعمال، أو نجم من نجوم السينما..

ولسبب ما شعرت وأنا أركز في صورته، بمذاق المعدن في فمي!!

- هه.. هل توصلت إلى شيء؟؟

أجبته بحذر:

- لقد.. لقد شعرت بمذاق المعدن في فمي..

استقبل السيد (أنور) ردي هذا بنظرة طويلة، أكدت لي أنني على الطريق الصحيح، ودون إبطاء نهض من مكانه ليجذبني من ذراعي، إلى خارج المقهى، وقد بدا عليه أن يحاول كتم انفعالاته بصعوبة..

سألت بدهشة:

- إلى أين؟!

- إلى حيث يمكننا التحدث بمفردنا..

تبعته بدهشة عبر شوارع (باريس) المزدحمة في مثل هذا الوقت من النهار، حتى وصلنا إلى جسر (ديبلي) لنطل على ذلك المشهد الساحر لبرج إيفل، ولنقف هناك في منطقة منعزلة نوعًا ما، ليبدأ السيد (أنور) في إخباري ما أحتاج معرفته:

- شعرت بمذاق المعدن في فمك.. هذا غريب حقًا.. هذا الرجل الذي عرضت عليك صورته، ستكون مهمتك الأولى هي أن تحرسه من على بعد، دون أن يشعر حتى هويك، وفي النهاية ستساعده على الانتقال إلى مكان جديد سنحدده نحن في الوقت المناسب.. لكن قبل أن تبدأ مهمتك يجب أن تعرف أنك ستعمل كملاك حارس لأخطر رجل عرفه تاريخ المخابرات في العالم كله..

واستند إلى سور الجسر، ليملأ عينيه بالمشهد الساحر أمامه، ليردف:

- مع الرجل الذي اعتدنا أن نسميه.. الشبح!

***

تحدث السيد (أنور)، فأصغيت أنا بانتباه:

- القصة تبدأ في عام (١٩٥٨) في روسيا، حين أرسلت المخابرات الروسية واحدًا من أفضل رجالها إلى ألمانيا ليقوم بتنفيذ مهمة اغتيال، هي الأشهر في تاريخ المخابرات... فرجلهم (إيجور فيودورف) ذهب إلى هناك ليقوم بالتخلص من شبكة جاسوسية كاملة، وصل عدد أفرادها إلى عشرة أشخاص، وكلهم كانوا يتبعون المخابرات البريطانية أو المكتب الخامس كما يطلق عليها.. والواقع أن (إيجور) كان الأفضل في هذا المجال، إذ لم تمض ثلاث أيام على وصوله إلى ألمانيا، حتى كان ثمانية من هؤلاء العشرة، قد لقوا مصرعهم، حاملين إمضاء (إيجور) الشهير... عملة معدنية كان يتركها في أفواه ضحاياه، من باب الفلسفة التي لا داع لها.. وفي اليوم الرابع لبقائه كان رجل المخابرات التاسع قد لقى مصرعه، وتبقى رجل واحد، ليحقق (إيجور) نصره الذي لم

يسبقه إليه أحد، لكن الأمور لم تسر كما خطط هو، إذ استطاع العاشر الهرب حاملاً عمل رفاقه كلهم، ليعود إلى بريطانيا، وقد أنقذ ما يمكن إنقاذه.. وبهذا اعتبر أن (إيجور) فشل في مهمته..

- فشل؟!!.. كيف؟!

- العملية كانت أن يقضي على العشرة، وأن يمنعهم من الهرب بما حصلوا عليه من معلومات، وهذا ما لم يحققه (إيجور)، وهذا ما نسميه نحن في عالم المخابرات فشل واضح وصريح.. على كل حال (إيجور) لم يرض بهذا الفشل، بل أقدم على أغرب وأعجب خطوة عرفها تاريخ المخابرات على الإطلاق..

سألت أنا وقد أخذت مني اللهفة مبلغها:

- ما الذي فعله؟!

- انطلق إلى بريطانيا خلف الرجل العاشر، ليقتله هناك في عقر داره..

شهقت أنا بانبهار، لكن السيد (أنور) لم تتغير ملامحه، وهو يواصل بهدوء:

- لكنه لم يفعل هذا دون خسائر، فلقد انكشفت شخصيته بسبب هذه العملية، وتحول إلى ما نسميه نحن (كارت محروق).. عمل المخابرات يعتمد على السرية في المقام الأول، وهذا ما خسره (إيجور)، لذا كان عليه أن يدفع الثمن.. فالمخابرات الروسية لا ترحم أحد حتى لو كان من رجالها..

- هل تقصد؟!

- نعم.. لقد أرسلت المخابرات الروسية وفدًا للتخلص منه في هدوء، لكن استطاع الهرب منهم، ثم بدأ في اصطيادهم واحدًا تلو الآخر..

وحين انتهى منهم، قرر (إيجور) أن يتحول إلى شبح..

رددت أنا خلفه باستغراب:

- شبح؟!

- لقد اختفى (إيجور) من على الساحة تمامًا، ولم يعد هناك من يعرف الطريق إليه، وظل على هذه الحالة لسنوات طويلة قبل أن يقرر الظهور مرة أخرى..

وشرد السيد (أنور) ببصره، كأنما يتخيل ما حدث، وهو يتابع:

- ولقد كان ظهوره مدويًا.. عشرات من رجال المخابرات ومن كل الجنسيات، سقطوا قتلى وهم يحملون في أفواههم تلك العملات المعدنية التي تميز (إيجور) عن سواه.. لقد تحول (إيجور) إلى أداة إعدام لا ترحم أحد، ولا تميز أحد، حتى إن أكثر ضحاياه، كانوا من رجال المخابرات الروسية ذاتهم، كأنما أراد لهم أن يدفعوا الثمن.. وفي كل مرة، كان ينفذ ضربته ويختفي كأنه شبح يستحيل الإيقاع به..

كانت عشرات الأسئلة تعتمل في أعماقي، لكني لذت بالصمت، ليواصل السيد (أنور):

- بالطبع كانت هناك عشرات المحاولات للإيقاع به وللتخلص منه.. وبالطبع باءت جميع هذه المحاولات بالفشل.. أن تقتل شبح فهي مهمة عسيرة، أما أن يقتلك الشبح، فهذا هو كان مصير كل من سعوا خلفه.. وهكذا تحول (إيجور فيودورف) إلى أسطورة في عالم المخابرات.. حتى اختفى الشبح وبلا رجعة مع أوائل التسعينيات..

- أعترف أن هذا غريب.. لكن ما علاقتنا نحن بهذا كله؟

سدد إليّ السيد (أنور) نظراته التي يبدو أنه يدرك كم هي نافذة مستفزة، وأجاب:

- لقد اتصل بنا السيد (إيجور) ليقدم لنا عرضًا. لم نستطع رفضه..

- ما هو هذا العرض؟!

- أن نساعده على الهرب من (فرنسا)، حيث يتواجد الآن، مقابل أن يمنحنا حقيبة كاملة من الأسرار التي يسيل لها لعاب أي جهاز مخابرات.. وهذه ستكون مهمتك كما ترى.

- أن أساعده على الهرب؟!.. ولكن كيف؟!.. أعني ما حاجته إلينا، مادام الكل قد عجز عن التخلص منه من قبل؟

- السبب بسيط وواضح.. الرجل لم يعد ذلك الشاب الفتيّ القادر على صنع المعجزات، إنه في الستينات الآن، ويريد أن يرتاح قليلاً قبل أن تحين ساعته، ويبدو أن المخابرات الروسية قد استطاعت تحديد موقعه، ولهذا أرسلت فريق اغتيالات خاص جدًا للتخلص منه..

- لست أدري.. لكن لم أكن أعرف أننا نقوم بمثل هذا النوع من المهام..

- ليس في المعتاد.. لكن حقيبة الأسرار هذه التي سيمنحنا إياها، تشتمل على قائمة بالجواسيس الذين يعملون في الشرق الأوسط، ومن مختلف الجنسيات، ومثل هذه القائمة يجب الحصول عليها أيًا كان الثمن..

ثم إنه ناولني صحيفة اليوم، مشيرًا إلى خبر في صفحة الحوادث، قائلاً:

- هل قرأت هذا الخبر؟

- رجل الأعمال (لوران فابوس) الذين عثروا على جثته في فندق (مونت رويال).. نعم قرأت هذا الخبر، لكنه لم يجذب انتباهي..

- (لوران فابوس) كان الصديق الوحيد لـ (إيجور)، ومعنى أنهم وصلوا إليه، أنه لم يعد أمامهم الكثير حتى يصلوا إلى (إيجور) نفسه.. لهذا علينا أن نتحرك بسرعة..

ولاذ بالصمت، ليترك لي الفرصة لاستيعاب هذا كله، ثم إنه قال بنوع من التردد:

- لماذا لا تجرب قدرتك هذه مع الخبر؟

أجبت بغيظ لم أستطع كتمه:

- كف عن التحدث عن (قدرتي هذه) كأنني حاو، أقدم استعراضًا في السيرك..

- لم أقصد هذا، لكن لاحظ أن هذه القدرات هي سبب انضمامك لنا، لذا من الطبيعي أن نطالبك بالاستفادة منها..

ابتلعت منطقه بصعوبة، فأخذت أمسك بالصحيفة المفتوحة على الخبر، وبدأت أركز قدر المستطاع..

أركز.. وأركز.. وأركز.. ثم وفي النهاية..

لا شيء..

هززت رأسي بمعنى إنني لم أصل إلى شيء، فهز هو رأسه متفهما، ليقول:

- لا بأس.. على كل حال، يجب أن نبدأ، وأول ما سنبدأ به هو أننا سنمنحك هوية تتناسب مع هذه المهمة..

- ما الذي سأكونه هذه المرة؟!

ابتسم السيد (أنور) ابتسامة خبيثة ليجيب:

- خمّن..

***

٤- ملاك حارس..

أخذت هذه الباريسية الحسناء - لم تكن خارقة الجمال، ولم أقع في هواها.. اطمئن! - تبتسم لي مشجعة، لكنني لم أكن في حال تسمح بعقد صداقات جديدة، فأخذت أتحاشى النظر إليها، وأخذت أراجع كل التفاصيل في ذهني للمرة الألف..

أنا الآن (رضوان دحماني).. جزائري الجنسية، وصاحب سلسلة من شركات المنتجات الغذائية، وأنا هنا لأقضي إجازتي التي اعتددت أن أقضيها كل عام (باريس)، ولا أريد أي إزعاج من أي أحد!

تظن أن الأمر سهل؟!... دعني أذكرك أننا في (فرنسا)، أي أن هناك عشرات وعشرات من الأوراق القانونية التي تم العبث فيها لصنع شخصية (رضوان دحماني)، ولتسجيل شركاتي الوهمية، ولصناعة تاريخ كامل عني، حتى إنهم دسوا إشاعات عني بين الخدم في الفندق هنا، مفادها أنني كنت متزوج، لكن زوجتي لقت مصرعها في حادث مؤسف، وهذا كما ترى جعل الجميع ينظرون إليّ بأسى، وقد باتوا على استعداد تقبل أي خطأ يبد عني لا يتناسب مع كوني (رضوان دحماني) المزعوم..

حين سألت السيد (أنور) عن أهمية هذه التفاصيل التي بدت لي بلا داع، أجاب:

- لأنك لست رجل مخابرات محترف، وستبدر عنك عشرات الأخطاء التي إن لم يلاحظها أي رجل عادي، ستكون أشبه بمصابيح مضيئة حولك بالنسبة لـ (إيجور فيودورف) الذي يسكن هذا الفندق..

- لكن موضوع الزوجة الراحلة هذا.. ألن يلفت إليّ الأنظار؟

- سيجعلك تبدو في صورة الثري الذي سلبه القدر حبه الوحيد، فأخذ يمضي لياليه في السفر وبين كؤوس الشراب..

- لكني لا أشرب!!

- أعرف.. أنا مسلم مثلك لو كنت لاحظت.. لكن (إيجور) يشرب كثيرًا، لذا فأمنيتك الوحيدة أن تلتقيه في مقهى الفندق، في الساعات المتأخرة من الليل حيث يخرج، ليتناول شرابه، قبل أن يعود للاختفاء في غرفته طيلة اليوم..

وهكذا تراني الآن أجلس في مقهى الفندق، وأنا أهز رأسي بأسى مصطنع بين الحين والآخر، وأتحاشى تبادل النظرات مع هذه الفاتنة - حسن.. إنها جميلة رغم كل شيء! - وهذا في حد ذاته يبعث على الأسى بحق!

لكن يبدو أن الحماس قد أخذ مبلغه منها، فرأيتها تقوم من على مقعدها لتتجه نحوي بابتسامة واسعة، ورائحة عطر الياسمين تفوح منها بقوة، وقبل أن أجد فرصة للهرب، كانت قد بلغتني لتقول بعذوبة:

- هل تمانع لو تحدثنا قليلاً؟

- الواقع.. أنه.. سوف..

- لاحظت أنك كنت تنظر إليّ طيلة الوقت، فقررت أن أوفر عليك العناء..

كان من المستحيل أن أحبطها بأن أذكر الحقيقة وهي أنني كنت شاردًا طيلة الوقت، لذا أجبت:

- إنك تشبهين صديقة كنت أعرفها..

ضحكت هي ضحكة تقطر رقة ودلال، فأخذت أفكر أن أطلب منها الزواج حالاً، لكنني قاومت بصعوبة، لتقول هي:

- لا تبدو فرنسيًا، لكنك تجيد الكذب مثلنا تمامًا.. ما الذي تفعله في (فرنسا) على كل حال؟

- إجازة..

- توقعت هذا.. أنا هنا لألتقي بأبي لذا لا تقلق، فلن أطيل عليك..

- لا مشكلة..

ثم مددت يدي لأصافحها، قائلاً:

- رضوان دحماني..

- (ناتاليا)..

- لكن اسمك ليس فرنسيًا؟

- أعرف.. فوالدي ليس فرنسيًا.. أمي فرنسية، لكن أبي..

وقطعت حديثها، لتنظر من فوق كتفي، إلى مدخل الفندق، لتقول:

- ها هو أبي.. أراك لاحقًا..

تابعتها وهي تتركني، لتذهب إلى ذلك العجوز الذي دخل المقهى، ليجول بنظراته الباردة في المكان، قبل أن يستقبل ابنته بابتسامة هادئة..

وحين جلسا في الركن البعيد للمقهى، تمكنت من إلقاء نظرة فاحصة على وجهه، لأتعرفه بصعوبة بالغة..

إنه هو..

(أيجور فيودورف)..

الشبح!

***

فيما بعد وحين انتهت هذه الأحداث، منحني السيد (أنور) نسخة من ملف (إيجور فيودورف) بناء على طلب مني، سأخبرك الآن ببعض التفاصيل التي وردت في هذا الملف، لتفهم وبوضوح - هذه مزية لم أتمتع أنا بها حينها - ما الذي نتعامل معه بالضبط..

هذا الرجل التحق بالمخابرات الروسية حين كان في الرابعة والعشرين من العمر، وهي سن مبكرة للالتحاق بالمخابرات، لكنه كان استثناء خاصًا، فنبوغ هذا الرجل كان يفوق عمره بمراحل.. وفي أعوامه الأولى في الجهاز أثبت أنه كان يستحق هذا الاستثناء بحق، فلقد كان يتأقلم مع هذا العالم الغامض القاسي، بسرعة غير مألوفة، كأنما خلق من أجله، حتى أنهم شكوا في أمره كثيرًا، مفترضين أن نبوغه المبكر هذا، نتيجة كونه جاسوس مدرب، اندس بينهم..

وبالطبع خضع (إيجور) للاستجواب مرات ومرات، وعرضوه لاختبارات طويلة، قبل أن يصلوا إلى حقيقة واضحة وصريحة..

هذا الرجل فلته لا يجب أن تضيع من أيديهم..

لكن عبقرية الرجل الحقيقية كانت تكمن في أكثر جوانب عالم المخابرات ظلاما وسرية..

القتل..

حين أرسلوه لينفذ أول عملية اغتيال له - وكانت الضحية أحد قادة الحزب الشيوعي - لم ينفذها فحسب، بل نفذها بأكثر الطرق حرفية ومهارة، وقد ترك في فم ضحيته عملة معدنية، العادة التي تحولت إلى بصمته الشهيرة فيما بعد..

حين سألوه عن سر استخدامه للعملة المعدنية، أجاب متفلسفًا:

- من أجل المال يعيش الإنسان.. أنا أمنحهم المال ليرحلوا في هدوء..!

وتوالت مهام الاغتيال على (إيجور)، وفي كل مرة كانت المهام تزداد صعوبة وتعقيدًا، وفي كل مرة كان يثبت أنه الأفضل في هذا المجال، حتى قرروا المخاطرة به ذات مرة، ليرسلوه للتخلص من شبكة مخابرات بريطانية كاملة في ألمانيا..

تلك المهمة التي لم تحسب كأول فشل له في تاريخه فحسب، بل كانت البداية الحقيقية للأسطورة التي درسها رجال المخابرات في جميع أنحاء العالم طويلاً..

أسطورة الشبح!

***

لم أستطع منع نفسي من تفحصه في تلك الليلة..

لو وجدت أنت نفسك أمام (عمر الشريف) فلن تتمالك نفسك.. فما بالك والذي أمامي هو حامل لقب (الشبح) الرسمي والوحيد؟!

كان لا يزال يحتفظ بوسامة الملامح رغم سنه، وإن كانت التجاعيد قد تكاثرت على وجهه، لتمنحه طابعًا يوحي بالإرهاق والمعاناة الطويلة..

هذا الرجل رأى الكثير في حياته، ولم يعد بإمكانه المواصلة طويلاً..

عيناه كانتا تعكسان هدوءً راسخًا، وقوة ملاحظة تليق بصقر، وقسوة هائلة، تليق برجل كانت يضع العمل المعدنية في أفواه العشرات من ضحاياه، وبهاتين العينين، رمقني بنظرة خاطفة بعد أن رآني أقف مع ابنته، قبل أن يصرف انتباهه عني، لينخرط في حديث هامس مع ابنته الوحيدة..

كيف لم يخبرني (أنور) بأمر هذه الابنة؟!

بل هل كان يعرف أصلاً؟!

على كل حال، وجود الرجل في المقهى يعني أن الوقت قد حان لي لأتحرك، لذا تركت المكان بخطى متثاقلة وملامح حزينة، كما أكدّ عليّ السيد (أنور)، لأتجه إلى المصعد..

غرفتي في نفس الممر الذي توجد فيه غرفة (إيجور)، هذا لم يأت من قبيل المصادفة، لذا أسرعت إلى غرفته، وأخذت أنظر حولي لأتأكد من خلو الممر، قبل أن أضع يدي على باب الغرفة، لأبدأ في التركيز..

من المؤكد أن (إيجور) رجل مخابرات محترف، ومن المؤكد أنه وضع عشرات الفِخاخ التي ستكشف له أي محاولة لاقتحام غرفته أثناء غيابه، لكن من المؤكد أنه لم يتوقع أن يأتي من يستطيع رؤية غرفته بمجرد لمس الباب..!

أركز.. أركز.. أركز..

يتصاعد الألم العنيف في رأسي، لكني أقاوم.. ثم تبدأ الصور في التوالي إلى رأسي بسرعة غير مسبوقة..

أرى الآن غرفة الفندق من الداخل، وأرى بعض الملابس المتناثرة هنا وهناك، مما يؤكد لي أن هذا الرجل لا يسمح بخدمة تنظيف الغرف، بالاقتراب من غرفته.. أرى حقيبة ضخمة جوار الفراش.. أرى.. أرى أن

الصور تتلاحق بسرعة أكبر... تتحول إلى شريط سينمائي..

أركز.. أركز.. أركز..

أنا الآن داخل الغرفة، أرى ما فيها بوضوح تام رغم الظلام، وقد بدأ الألم العنيف في رأسي يخفت تدريجيًا... وها هي قدرتي تتطور في الوقت المناسب تمامًا..

أنا الآن أتحرك داخل الغرفة بعقلي!

أركز.. أركز.. أركز..

صحيح أنني غير قادر على تحريك شيء، أو فتح تلك الحقيبة الضخمة جوار السرير لأرى ما فيها، لكني أستطيع التجول في المكان لأرى كيف تبدو غرفة الشبح..

كانت هناك زجاجات كثيرة خاوية قرب الفراش.. وفيما عدا ذلك لم يكن هناك أي شيء يثير الاهتمام، فأخذت أتحرك في المكان، متجهًا إلى دورة المياه الملحقة بالغرفة، وقد فقدت أي شعور بالعالم الخارجي..

يجب أن أسرع.. فقد يعود الشبح وأنا هنا في مكاني، وحينئذ ستثور شكوكه حولي..

أرى دورة المياه من الداخل، وأرى مجموعة لا بأس بها من العطور ومرطبات البشرة، تدل على أن هذا الرجل يجيد الاعتناء بنفسه حقًا.. أنظر في حوض الاستحمام، لأجد تلك اللفافة الضخمة. تملأ حوض الاستحمام، فأقترب أكثر لأرى..

أركز.. أركز.. أركز..

ورغم الظلام.. ورغم أنني كنت أشعر بإنهاك غير عادي.. رأيت ما في داخل تلك اللفافة البلاستيكية، لأشعر بهلع لا حد له..

كانت اللفافة البلاستيكية، تحوي جثة رجل، لم يظهر منه، سوى

نصف وجهه العلوي، وقد حدقت عيناه الشاخصتان، في السقف بثبات مخيف..

أركز.. أركز.. أركز..

ولكن لماذا؟!.. لماذا يحتفظ (إيجور فيودورف) بجثة في حوض استحمامه؟!

ومن هو هذا الرجل؟!

ومتى قتل؟!

وأي برود هذا الذي يمتلكه هذا الرجل، ليقيم مع جثة في غرفة فندق، ثم يتركها، ليلتقي بابنته، وليحتسي بعض الشراب؟!!

"مسيو... ما الذي تفعله؟!"

انتفضت بعنف، وقد عدت إلى عالم الواقع، لأجد ذلك الخادم يتجه نحوي، وقد حملت ملامحه الدهشة والقلق، وهو يسأل:

- هل أنت بخير يا مسيو؟!

- أنا.. أنا بخيـ..

لكني بترت جملتي، لأنتبه إلى السبب الذي جذب اهتمام هذا الخادم، إذ كانت الدماء تسيل من أنفي بغزارة لتغرق وجهي وملابسي، مما دفع الخادم لأن يناولني منديلاً، لأمسح به الدماء من على وجهي، وهو يكرر:

- هل أنت بخير؟!.. هل أستدعي لك طبيب الفندق؟!

- لا داعي.. إن ضغطي مرتفع فحسب..

- مسيو.. لا داع لأن تعذب نفسك بذكرى زوجتك.. حاول أن تنساها..

منحته نظرة طويلة أربكته، ثم هززت رأسي شاكرًا، قبل أن أجر

نفسي مبتعدًا عن المكان، لأتجه إلى غرفتي..

وفي رأسي كانت هناك فكرة واحدة..

يجب أن أتصل بالسيد (أنور) على الفور.. يجب..

***

كيف كان لي أن أعرف أن (إيجور) قد عاد إلى غرفته في تلك الليلة، ليجد قطرة دماء تكاد تجف عند عتبة غرفته؟!

صحيح أنه رجل مخابرات، وأن قوة الملاحظة هي جزء من حياتهم، لكن قطرة الدماء كانت أصغر من أن يلاحظها أي شخص سواء كان عاديًا أو محترفًا..

لكن الأمر معه مختلف.. إنه الشبح!

لقد رأى قطرة الدماء، وانحنى عليها ومد إصبعه إليها ليتذوقها باهتمام..

لقد تأكد من أنها دماء حقًا.. وهذا يعني بالنسبة له الكثير..

الكثير جدًا..

***

٥- هل أنت مستعد؟!

لكن الاتصال بالسيد (أنور) لم يكن بالسهولة التي توقعتها..

فالرجل - وببساطة - لم يمنحني أي وسيلة للاتصال به.. كل ما قاله هو أنني سأجده عند الحاجة، وهي كما ترى، جملة يرددها رجال المخابرات بحماس مفرط دون أن يلتزموا بها..

اتصلت بالسفارة، لأطلب من السيد (صلاح) أن يطلب من السيد (أنور) الاتصال بي، لكن السيد (صلاح) كان خارج السفارة طيلة اليوم، وحين عاد أخيرًا، أخبرني مستغربًا - كأنه لم ينتبه إلى هذه الحقيقة حتى الآن! - أنه لا يملك وسيلة للاتصال بالسيد (أنور) لكنه سيحاول..

وهكذا لكم أن تتخيلوا كيف كان يومي، وقد قضيت معظم النهار في غرفتي، أضرب أخماسًا في أسداسًا، وأنا أحاول العثور على تفسير منطقي لما يحدث من حولي، وفي النهاية كنت قد قررت أنه ما إن يتصل بي السيد (أنور) حتى سأطلب منه أن يعفيني من هذه المهمة، ومن العمل معهم من الأساس..

نعم.. ما أحتاجه هو هوية مسالمة، ومحاولة جديدة لأعيش بهدوء، بعد كل الذي رأيته وعانيته..

أنا لم أخلق لهذه الحياة.. ولم أطلب هذه القدرات.. ولم يعد بإمكاني الاستمرار.. واليوم سأضع حدًا لهذا كله!

لكن السيد (أنور) لم يتصل...!!

أخذ اليوم يمر عليّ ببطء قاتل، دون أن يتصل بي السيد (أنور)، ودون أن أجرؤ أنا على مغادرة الغرفة، فلم يكن لدي أي استعداد، لمقابلة (إيجور) ولومن باب المصادفة.. وهكذا لم يعد أمامي سوى مشاهدة برامج التلفاز الفرنسي المملة، لتمضية اليوم، محاولاً تخيل ما الذي يفعله الآن (إيجور فيودورف)...

ترى هل يشاهد التلفاز مثلي، أم أنه يتسلى بوضع العملات المعدنية في فم تلك الجثة في حوض استحمامه؟!

إنني حتى لا أفهم كيف أحرس مثل هذا الرجل، الذي يبدو كأنما هو يحرس الموت ذاته، دون مشقة أو عناء؟!

حين حلّ المساء، كان عليّ الاتجاه إلى مقهى الفندق، وفقًا لتعليمات السيد (أنور)، حيث يقضي (إيجور) لياليه، لأتأكد من أن كل شيء يسير على ما يرام، وهكذا بدلت ملابسي، واتجهت إلى المقهى، لأعود إلى تمثيلية الزوج البائس، الذي سلبه القدر، أعز ما يملك!

لم تكن (ناتاليا) هناك لحسن حظي، فلم أكن على استعداد للتحدث مع ابنة الشبح، بأي صورة من الصور، لكني قضيت الليلة كلها، في انتظار ظهوره، دون أن يحدث هذا..

لسبب ما لم يغادر (إيجور) غرفته هذه الليلة..

لم أكن أنوي أن أنتظر طيلة الليل، لذا عدت إلى غرفتي بعد منتصف الليل، وقد قررت أن أغادر الفندق في صباح اليوم التالي، وليكن ما يكون..

هذا ما انتويته، لكن ما حدث كان..

***

كنت نائمًا في فراشي في غرفة الفندق، وكانت الأحلام المضطربة تعبث برأسي، حين سمعت ذلك الصوت يقول ببطء:

- أنت.. استيقظ..

بالطبع اندمج الصوت مع الحلم، فأصدرت همهمة خافتة، ولم أستيقظ على الفور، فكرر صاحب الصوت:

- استيقظ يا هذا..

هنا فتحت عيناي بصعوبة، لأجد نفسي في غرفتي المظلمة، وعقارب الساعة اللامعة تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل، وقد جلس أحدهم على المقعد المواجه للفراش، والظلال تغطيه تمامًا، فظننت للحظة أنه السيد (أنور)، لكن اللكنة الروسية بدت واضحة، حين قال صاحب الصوت أخيرًا:

- ثقيلو النوم لا يصلحون لهذا العالم..

اعتدلت منتفضًا على فراشي، لأجد أنني في حضرة (إيجور فيودورف) الذي قال بهدوء بارد، وبصوت ذو رنين عجيب:

- هيا ارتدي ملابسك.. لقد حان الوقت..

- ولكن.. أنت..

- ألست من اختاروه ليعمل على نقلي من (فرنسا)؟

- نعم.. لكن.. كيف عرفت؟

بدا لي سؤالي غبيًا، إلى الحد الكافي ليتجاهله (إيجور) وليواصل:

- ما الذي تنتظره إذن؟!.. هيا ارتدي ملابسك، فالقطار سيتحرك في تمام الثالثة.

- قطار؟!.. أي قطار؟!

مال الشبح عليّ، ليدخل وجهه إلى دائرة الضوء، ولأجد نفسي في مواجه عينيه الباردتين، وهو يجيب:

- القطار المتجه إلى لندن.. هل أنت مستعد؟!

كنت أشعر بارتباك بالغ من الموقف كله، وقد استيقظت لأجد نفسي في حضرة الرجل الذي اعتبرته مخابرات أكثر من دولة، أسطورة مخيفة، يحكونها للضباط الجدد، لكني تمالكت نفسي بسرعة، لأقول:

- لكنهم لم يبلغوني أننا سنرحل الليلة..

- أنا أبلغك الآن..

- وماذا عن حقيبة المعلومات التي ستمنحنا إياها في المقابل؟

- ستحصل عليها حين أكون أنا في القطار.. والآن هيا..

وهكذا وجدت نفسي أبدل ملابسي لأتبعه، إلى خارج الفندق، وقد أخذ يسير هو أمامي محافظًا على مسافة بيننا، حاملاً حقيبته الضخمة في يده، وقد دس يديه في جيب معطفه، وقد بدا هادئًا، كأنما هو ذاهب إلى نزهة، لا إلى الهرب من وفد اغتيال كامل، يسعى في إثره، ليضعون نهاية لأسطورته..

حين وصلنا إلى سيارته، ألقى إليّ بالمفاتيح، ليقول:

- أنت ستقود..

أخذت المفاتيح، لأسأل بتوتر بالغ:

- إلى أين؟!

- إلى محطة الشمال (Gare du Nord).. حيث القطار السريع (أوروستار Eurostar) المتجه إلى لندن..

- ولكن..

- قلت لك أن القطار سيتحرك في تمام الثالثة.. هيا تحرك..

لم أجرؤ على مجادلته، لكني في الوقت ذاته، لم أفهم كيف لم يتصل بي السيد (أنور) ليبلغني بهذا كله.. على كل حال لم أكن أنوي أن أتركه يرحل وحيدًا، لذا قدت السيارة في صمت، متجهًا إلى المحطة، وطيلة الطريق إلى هناك، لم ينبث (إيجور) بحرف واحد..

من الغريب حقًا أن تجد نفسك تقود سيارة، وإلى جوارك هذا الرجل!!.. لقد كان ثابت الجنان، هادئ الملامح، كأنه لا يوجد ما يشغل باله في هذه الدنيا، حتى أنني أخذت أختلس النظر إليه عبر مرآة السيارة، محاولاً أن أستشف أي انفعال من ملامحه الجامدة، دون جدوى..

هذا الرجل قضى حياته كلها في قتل رجال المخابرات، ولم يعد ما يقلقه في هذه الدنيا، بل هو ذاهب الآن إلى حيث سيقضي إجازته الأخيرة، قبل أن يرحل عن دنيانا هذه بهدوء.. وفي المقابل سنحصل نحن على حقيبة من المعلومات يسيل لها لعاب أي رجل مخابرات، كما يقول السيد (أنور)..

بالطبع لم أسأله عن الجثة التي تركها في حوض الاستحمام في الفندق.. لم يكن ليجيبني على أية حال..

لكني لا أفهم.. الأمر يبدو أغرب من اللازم.. شيء ما خطأ يحدث، لكني لا أستطيع أن أحدد ما هو بالضبط؟!

وصلنا إلى المحطة بسرعة، وقد خلت شوارع (باريس) في هذا الوقت من الزحام الذي اشتهرت به، كأي عاصمة أخرى، ليخرج (إيجور) من السيارة، ليقول باقتضاب:

- اتبعني..

- إلى أين؟!

- اتبعني وستعرف..

دخلنا المحطة التي حملت إلينا عدد لا بأس به من المسافرين، يحملون وجوه ناعسة، حتى وصلنا إلى شباك التذاكر، ليقول (إيجور) للموظف الذي بدا عليه النعاس، في عينيه المحمرتين، ووجهه المنتفخ، ليقول:

- هناك تذكرتين باسم (شارل ليفييه). للقطار المتجه إلى لندن.. الدرجة الأولى..

راجع الموظف الكمبيوتر على يمينه، بإرهاق وكسل، ليتأكد من أن ما يسمعه صحيح، وأنه لا يحلم، قبل أن يناول (إيجور) التذكرتين، قائلا:

- هاك التذكرتان.. رحلة طيبة مسيو..

تناول منه (إيجور) التذكرتين، ثم التفت لأسأله أنا بدهشة:

- هل سترحل ابنتك معك؟

- ابنتي غادرت البلاد منذ الصباح.. أنت الذي ستأتي معي..

- ماذا؟!

- لن تحصل على حقيبة المعلومات حتى نبلغ لندن..

- لكن..

- الرحلة إلى هناك تستغرق ثلاث ساعات فحسب.. ستأتي معي، ثم ستعود مرة أخرى، أي أن الأمر لن يستغرق أكثر من ست ساعات، بعدها تكون الصفقة بيننا قد انتهت..

أين هذا الوغد القصير المسمى بالسيد (أنور)؟! وكيف يتركني لأواجه هذا كله بمفردي؟!!

كان (إيجور) يقف أمامي، مسددًا عينيه الباردتين إلىّ في ثبات، منتظرًا إجابتي، فلم أملك إلا أن أهز كتفي مستسلمًا، لأقول:

- كأنني أملك الخيار..

- عظيم.. لنسرع إذن..

تبعته صاغرًا إلى رصيف القطار، حيث انتظرنا فترة لا بأس بها، يلفحنا هواء (باريس) المثلج في مثله هذا الوقت، قبل أن يصل القطار أخيرًا، لنتأخذ مقاعدنا في الداخل، وليبدأ الثلج الذي غلفني في الذوبان..

بعد ثلاث ساعات بالضبط نكون في لندن... تبدو هذه معجزة بالمقاييس المعتادة، لكن هذا القطار، يسير بسرعة ثلاثمائة كيلومتر في الساعة، وهي سرعة منحته شهرة لا بأس بها في جميع أنحاء أوروبا..

لم أكن أنوي أن أقضي ساعات الرحلة، في هذا الصمت المقبض، لذا سألت (إيجور):

- أليس من الغريب أن تتجه إلى لندن، حيث انكشفت هويتك، وحيث جهاز المخابرات الذي لن ينسى صنيعك معه أبدًا؟..

لم يبد على (إيجور) أنه مرحب بهذه المحادثة، لكنه أجاب بهدوء:

- لن يتوقع أحد أنني ذاهب إلى هناك، خاصة من يبحثون عني..

- وماذا بعد أن تصل إلى هناك؟

- سأختفي..

وابتسم بركن فمه، لأول مرة منذ رأيته، ليردف:

- كشبح..

وعاد الصمت المقيت ليغلفنا، حتى تحرك القطار أخيرًا بعجلة تسارعية. وهو يطلق صفارته الشهيرة، وسرعان ما أصبحنا خارج حدود (باريس)، وقد بلغ القطار سرعته القصوى، فبدا الاسترخاء على (إيجور) حتى أنه التفت لي ليقول:

- لماذا لا تأتي لنا ببعض القهوة، فنحن لن ننام على كل حال؟

- من أين؟

- العربة الثانية.. لا تتأخر..

لم أحب دور خدمة الغرف هذا، لكني كنت أحتاج للقهوة فعلاً، فأنا لم أنم هذه الليلة، ويبدو أن أمامي وقت لا بأس به حتى أجد الفرصة لأنام، لذا غادرت الكابينة، واتجهت إلى العربة الثانية، حيث ينتظرني مشروب الكافيين المنعش..

سأكون رحيمًا بك، وسأتجاوز كل التفاصيل المملة منذ خروجي من الكابينة، وحتى عودتي إليها لأجد تلك المفاجأة في انتظاري..

لا بد أن بعضكم قد استنتجها، ولا بد أنكم تصفوني بالغباء الآن...

نعم.. حين عدت كان (إيجور فيودورف) قد اختفى...

كشبح!

***

٦- الشبح والقتلة..

الآن نحن نقدم بث مباشر من القطار حيث كنت أقف ذاهلاً في الكابينة التي خلت تمامًا من السيد (إيجور فيودورف)، حاملاً كوبي القهوة الفرنسية المنعشة، ووجهي يحمل تعبير دهشة مضحك، لشدة إرهاقي..

"أين ذهب؟!"

غمغمت بهذا السؤال لنفسي. لكني كنت أعرف الإجابة مسبقًا...

لقد هرب.. اختفى... تلاشى..

ولكن.. كيف؟!

ألقيت بكوبي القهوة على الفور، وبدأت أستعيد نفسي، لتبدأ رحلة بحثي عبر القطار، ورغم أنني كنت أعرف أنها مضيعة للوقت، لكني كنت أثق في شيء واحد.. إنه لم يغادر القطار..

بالتأكيد لم يفعل، إنه في الستين من عمره على الأقل، والقطار يسير بسرعة ثلاثمائة كيلومتر في الساعة، إذن.. هل لك يا قارئ الروايات البوليسية أن تخبرني. كيف يخرج من قطار يسير بهذه السرعة؟!

إنه داخل القطار إذن.. لكن أين؟!

وهكذا لك أن تتخيل، كيف قضيت الساعة الأولى في الرحلة، أجوب القطار كالمجنون، أبحث عن (إيجور) دون جدوى، حتى أنني بدأت أبحث في دورات المياه، وخلف كل ستارة، وفي وجوه كل المسافرين، لأعود أخيرًا إلى الكابينة. وقد أدركت أن الأمر انتهى فعلاً..

لقد هرب.. اختفى... تلاشى..

في الكابينة عثرت على حقيبته الضخمة، ففتحتها بلهفة، على أمل أن أجد حتى المقابل الذي وعدنا به، لكن الحقيبة الخاوية. أخذت تحدق فيّ بسخرية، لتعلن لي عن نهاية مهمتي الأولى بفشل لا جدال عليه..

حسن.. أنا لم أكن أصلح لهذا العالم على كل حال، وكنت أنوي أن أتركه بعد أن..

مهلاً.. لماذا لا أجرب (قدرتي هذه) كما يسميها السيد (أنور)؟!

إن لم تفيدني الآن فلا بد أنها عديمة الجدوى تمامًا.. لذا أمسكت بالحقيبة الخاوية– الشيء الوحيد الذي تركه الشبح لي – وبدأت أركز...

أركز.. أركز.. أركز..

وفي النهاية كانت النتيجة أغرب من أن أفهمها..

كانت رائحة الياسمين تملأ أنفي بثقة، فوجدتني أهمس:

- ناتاليا..

إن هذا يثير الخيال حقًا.. يمكنني الآن أن أبني تصوري لما حدث، لكني سأخبركم به فيما بعد..

المهم الآن أن أعود للفندق.. وبأسرع ما يمكن..

***

لكن القطار لن يتوقف من أجلي، لذا كان عليّ أن أواصل الرحلة، وأنا أسب وألعن في سري ذلك الذي اسمه السيد (أنور)، لتركه إياي وحدي في وسط هذا كله، كأني كنت أعمل معهم منذ سنوات، وأعرف ما عليّ فعله جيدًا..

بعد ساعتين بلغنا (لندن) حيث كان عليّ أن أنتظر لساعة إضافية، قبل أن يتحرك القطار الذي سيعود بي إلى (باريس)، ولم أكن قد نمت طيلة الرحلة، فخرجت إلى مقهى قريب لأظفر ببعض القهوة، ولأتصفح جريدة الحياة اللندنية من باب تمضية الوقت..

كانت الصحيفة تحمل ذات الأخبار المعتادة التي يمكنك أن تقرأها في أي صحيفة أخرى، بدءًا من المطالبة باستقالة رئيس الوزراء (توني بلير) جزاء كل الحماقات التي ارتكبها، باشتراكه في الحرب ضد العراق، والتي ثبت للعالم كله – أخيرًا- أنها كانت مهزلة مؤسفة لا أكثر، وانتهاء بأخبار الفن والسينما والرياضة، حيث الشائعات هي الطابع الأغلب على تلك الأخبار، كما هي عادة جميع الصحف..

لكن خبرًا واحدًا استوقفني، وكان يعني لي الكثير.. بل الكثير جدًا..

حريق مؤسف في فندق (الكونتيننتال) في (فرنسا)، يشب في أحد الغرف، ويؤدي إلى وفاة ساكن الغرفة (شارل ليفييه) ، ولقد سارعت قوات الإطفاء بالسيطرة على الحريق، وتجري الشرطة الآن تحقيقاتها للتأكد إن كان هذا الحريق نتيجة حادث، أم أنه يحمل شبهة جنائية..

لا أحتاج الآن قدراتي الخاصة، لأشم رائحة (إيجور) في هذا كله.. لهذا كان يحتفظ بتلك الجثة في غرفة الفندق.. هكذا يظن الجميع أنه هو، بينما هو الآن في لندن، وربما يهرب منها إلى حيث لا يعلم أحد إلا

الله.. لكنه لم يضعني في اعتباره، ولست ألومه على هذا..

فكيف له أن يعرف بتلك القدرات التي أمتلكها.. إنني مثله الآن.. مجهول...

وكمجهول عليّ أن أسرع الآن إلى (فرنسا)، فهناك الكثير أمامي لأفعله..

لماذا سأعود إلى (فرنسا)، وقد هرب (إيجور) بالفعل؟؟.. حسن.. لأنه سيعود..!!

فصحيح أنني شممت رائحة الياسمين حين أمسكت بحقيبته الخاوية في القطار، لأعرف أن لـ(ناتاليا) يد فيما يحدث، لكني سمعت وبوضوح صوت صراخها..

ربما تكون قدرتي قد تطورت أو ربما هو مجرد حدس أراهن عليه، كي لا تحمل مهمتي الوحيدة في هذا العالم فشلاً لن أنساه، لكني أعتقد أنه أيًا كان من أرسلوه للقضاء على (إيجور) قد وصل إلى (ناتاليا).. ولا بد أنهم سيمرحون معها طويلاً، ولابد أنها ستخبرهم بالكثير..

ولابد أن (إيجور) سيعود.. بالتأكيد سيفعل..

وسأكون في انتظاره..

***

هكذا يمكنني أن أختصر عليك المزيد من الوقت، بأن أخبركم أنني عدت إلى (باريس)، ومن محطة القطار أخذت سيارة (إيجور) التي كنت قد تركتها أمام المحطة، لأعود إلى الفندق، حيث كان بعض رجال الإطفاء قد أنهوا مهتهم، ليحين دور رجال الشرطة والمعمل الجنائي..

بالطبع كان مدير الفندق، هو أشد الموجودين هلعًا، فالموقف يحمل

له كارثة على أية حال.. فلو كانت هناك شبهة جنائية، فهذا يعني سوء النظام الأمني في المكان، ولو كان مجرد حادث، فهذا يعني أن الفندق لا يستحق نجمة من نجومه الخمس، لذا رأيته يتحرك طيلة الوقت خلف المحققين ورجال المعمل الجنائي، وهو يجفف عرقه بمنديل حريري، مرددًا بلا انقطاع:

- إنه شيء مؤسف حقًا..

كأن هذا سيحل المشكلة!

وحين رآني أعود إلى غرفتي، في نفس الطابق الذي شبّ فيه الحريق، هتف بي:

- مسيو(رضوان).. أرجوك تأكد من أن كل شيء على ما يرام في غرفتك، ولو شعرت بأي شك من أي شيء أبلغني على الفور..

كنت أعرف أنه لا يريد المزيد من المشاكل بأي صورة، لذا قلت لأطمئنه:

- أشكرك.. أرجو فقط أن ينتهي هذا كله سريعًا..

- آه.. ربما يرغب المحققون في توجيه بعض الأسئلة لك.. أرجو ألا يضايقك هذا..

- لا بأس، وإن كنت لا أملك ما أضيفه، فلقد قضيت ليلة أمس خارج الفندق..

- أعرف.. لكني فكرت أن أبلغك على كل حال..

وأخيرًا وجدتني في غرفتي الخاوية في الفندق، أصغي إلى الصخب في الخارج، أحاول مقاومة نعاسي بمجهود جبار، لأتصل بالسيد (صلاح)، الذي لم أكد أسمع صوته الوقور يجيبني، حتى قلت بغيظ حقيقي:

- سيد (صلاح).. أين (أنور) ؟!.. هناك الكثير من الأشياء التي

حدثت ليلة أمس والتي ينبغي أن يعرفها، أولها أن رجله (إيجور) اختفى..

- (سامي).. اهدأ قليلاً يا فتى.. هل أنت بخير؟

- نعم ولكن..

- هذا هو الذي يهمني.. والآن كل الذي أطلبه منك هو ألا تقدم على حماقة جديدة، حتى يتصل بك السيد (أنور)..

- متى سيتصل؟

- اليوم.. هو أخبرني بهذا، وطلب مني أن أبلغك ألا تقلق مهما حدث.. والآن اسمح لي، فعندي بعض الأعمال التي ينبغي عليّ أن أنهيها..

وأنهى الاتصال بهدوئه المعتاد، الذي أشعرني أنني الوحيد الذي لا يفهم ما الذي يحدث بالضبط، فلم أجد أمامي سوى أن أعمل بنصيحته، لألقي بجسدي المكدود على الفراش، ولأغيب في نوم عميق دام لساعات..

وحين استيقظت، كان الصخب في الخارج قد توقف، فخرجت من غرفتي لأجد أنهم وضعوا تلك الشرائط الصفراء على باب غرفته، ليسدوا الطريق أمام المتطفلين.. بالطبع لم يعد هناك شيء في الغرفة يصلح للفحص، فالنار التهمت كل شيء، وفريق المعمل الجنائي قضى على ما تبقى من الأدلة، وهكذا لم يعد هناك مبرر واحد للمخاطرة.. لكني أعرف ما لا يعرفون، وأعرف أنهم سيقضون أيامًا عصيبة في البحث عن طرف خيط، لن يوصلهم إلى شيء..

إنه الشبح أيها السادة.. فأي فرصة تملكونها معه؟!

تناولت طعامي في الاستراحة، وأخذت أضيع الوقت في التجول في أرجاء الفندق، منتظرًا اتصال السيد (أنور)، وحين أتاني أخيرًا، على

هاتفي المحمول، وجدته يتحدث بهدوئه المستفز:

- (سامي) أين أنت؟!

أجبت بلهفة:

- أنا في الفندق.. (إيجور) هرب و..

- عظيم.. (سامي) سيتم اختطافك بعد قليل.. أنصحك ألا تقاوم، واطمئن.. كل شيء تحت السيطرة..

أصابني مزيج من الهلع والدهشة، وأنا أسمع ما أسمعه، فقلت:

- ما الذي تقوله؟!

- قلت لك لا تقلق.. سأشرح لك كل شيء فيما بعد..

ثم أنهى الاتصال، ليغلق في وجهي باب الجدل. فأسرعت على الفور إلى الطابق السفلي، ومنه إلى مدخل الفندق حيث استوقفني موظف الأمن، قائلاً:

- مسيو (سامي).. هناك من سأل عليك هذا الصباح..

أجبته بلا اهتمام ، وأنا أواصل طريقي:

- فيما بعد.. فيما بعد..

لكنه قال بإصرار:

- لقد كانوا ثلاثة... ظننتهم من المحققين، لكن ملامحهم كانت أجنبية، وحين تحدث أحدهم، كانت لكنته روسية.. نعم روسية.. لقد سألني عمّا إذا كنت نزيلاً عندنا، ثم انصرف على الفور..

ثلاثة.. لكنة روسية.. الأمر لا يحتاج للمزيد من الفهم، لذا تجاهلت موظف الأمن، وأسرعت إلى سيارة (إيجور) في مرآب الفندق. ودخلتها على الفور لأدير المحرك، مستعدً للهرب بأقصى سرعة..

سيتم إخطافي؟!.. اطمئن؟!

لقد فقد هذا المدعو(أنور) عقله تمامًا..!!

إنه الفريق الذي أرسلوه للتخلص من (إيجور)، وها هو قد بدأ يسعى خلفي أنا.. لا بد أن (ناتاليا) قد حكت لهم عن كل ذكرياتها منذ الطفولة، ولا بد أنهم أقنعوها بهذا بطرقهم الخاصة..

يجب أن أبتعد.. يجب أن أهرب..

نصيحة مجانية جديدة..

لو أخبرك رجل مخابرات أن أحدهم سيختطفك، وأنه لا يجب أن تقلق، فلا تصدقه..

بل اهرب على الفور، كأن شياطين الجحيم تطاردك!

لكني لم أكد أتحرك بالسيارة، حتى فوجئت بمن يفتح باب السيارة المجاور، لي، ثم بيد تجذبني إلى الخارج بقسوة، لأتلقى أول ضربة من كعب المسدس على رأسي..

كانت الضربة عنيفة، ومفاجئة، لكني قاومت لأجد نفسي في مواجهة ثلاثة رجال، هتف أقصرهم بشيء ما بالروسية لم أفهمه، فانهالت الضربة الثانية على مؤخرة عنقي بقوة هائلة كأنها يد القدر، ليظلم العالم أمامي، دون أن أجد فرصة أفضل للمقاومة...

وهكذا سقطت على الأرض، ليحملوني إلى تلك السيارة السوداء، ولينطلقوا بي إلى حيث سأكون تحت رحمتهم..

وإلى حيث سنمرح سويًا..

بدون أي إزعاج!

***

٧- تحت رحمة روسي..

استيقظت لأجد نفسي في الموقف التالي..

كنت مقيدًا إلى مقعد خشبي عتيق، من تلك المقاعد التي يستحيل زحزحتها من مكانها، بمجهود رجل واحد مقيد إليها، ورائحة رطبة خانقة تفعم أنفي، وثمة عصابة على عيني تمنعني من رؤية أي شيء، بينما أخذت أذناي تنقلان إلى عقلي حديث هامس بالروسية، لم أفهم منه حرفًا، فظللت جامدًا في مكاني، دون أصدر أي حركة، تشي باستعادتي الوعي، لأقيّم الموقف الذي أصبحت فيه..

أنا الآن تحت رحمة وفد الاغتيال الروسي، الذي أرسلوه للتخلص من (إيجور)، وهذا يعني أنهم لن يترددوا في استخدام كل الطرق المتاحة لاستجوابي، قبل أن يتخلصوا مني، بلا أدنى شفقة أو رحمة.. والمشكلة أنني حتى لو قررت التعاون معهم، فلن أمنحهم ما يريدونه، لأنني لا أعرف أين (إيجور) الآن، وهذا ما لن يصدقونه، حتى لو كانوا واثقين من صدقي..

كل هذا يحدث لي، لأنني قبلت أن أنوّم مغناطيسيًا في أحد المرات، لذا هاك هذه النصيحة المجانية، فربما تكون الأخيرة..

لا تسمح لأحدهم بممارسة التنويم المغناطيسي عليك أيًا كان السبب!!

كيف سأتصرف الآن؟!.. كيف؟!

ألا أملك قدرة خاصة تمكنني من الخروج من هذا الموقف، لكني لم أكتشفها بعد؟!.. أعتقد أن هذا هو أنسب وقت لاكتشافها لو كانت موجودة..

لكن أحدهم جذب العصابة من على عيني فجأة، لأرى أننا في شقة قذرة شبه خاوية، وليقول هو بفرنسية ذات لكنة روسية:

- لقد استيقظ..

- عظيم..

وهكذا وجدتني في مواجهة ذلك القصير ذو الملامح الوسيمة، التي بدت لي مخيفة لسبب ما، وقد سدد إليّ عيناه الزرقاوتان بثبات عجيب، ليقول:

- والآن.. أمامك خيارين لا ثالث لهما.. أن تتحدث بالطريقة السهلة، أو بالطريقة الأصعب..

بالطبع بدت لي جملته سخيفة، فهو يتصرف كأنما يطلب مني أن أريح ضميره، قبل أن يبدأ في تعذيبي، لذا حافظت على صمتي، فابتسم هو بسعادة، ليقول:

- إذن فلقد اخترت الطريقة الأصعب..

إنه يهوى التأثير الدرامي إذن في الاستجواب.. ربما تجدي هذه الطريقة مع (ناتاليا)، لكن معي..

تحدثت ببطء لأقول:

- يجب أن تعرف أن سفارتي لن تقبل بهذا الذي يحدث.. ولو كنت مكانك لفكرت جيدًا فيما أفعله..

- لا بأس بهذه البداية.. كنت واثقًا من أن ملامحك عربية.. هه.. ما هي جنسيتك؟

- عربي.. هذا يكفي..

- وما علاقة عربي مثلك بـ(إيجور فيودورف)؟

- من هو(إيجور فيودورف) هذا؟!

هنا شعرت بمن يجذبني من شعري، ويضغط بنصل معدني حاد على عنقي، لأكتشف أن رفيقي القصير يقفان خلفي، وأن أحدهما قرر المساعدة، لكن القصير استوقفه قائلاً:

- لا داعي.. صديقنا العربي سيخبرنا بكل شيء..

تركني رفيقه بضيق، فمال القصير بوجهه عليّ، لأجد نفسي في مواجهة العينين الباردتين، ليردف:

- وإلا سأجعلك تتمنى لو تركته يذبحك..

أعترف لكم أنني شعرت ببعض الابتذال في طريقته، لكني كنت أعرف أنه صادق فيما يقول، لذا قلت على الفور:

- لكني لا أعرف عمّن تتحدث حقًا..

- عن الذي كنت تقود سيارته .. والآن، هل ستكف عن العبث، أم أنني سأضطر لإضاعة وقتي؟

يا لي من أحمق غبي!!.. كيف لم أنتبه إلى هذه النقطة؟!

لهذا أنا لا أصلح للعمل في المخابرات، ولهذا – لو خرجت من هنا حيًا – سأطلب من السيد (صلاح) أن يبعدني عن هذا كله، وأن يمنحني حياة تقليدية مملة..

المشكلة الآن هي أنني لا أملك أن أقول ما أعرفه.. فأنا لا أعرف شيء واحد ذو قيمة، ولا يمكنني أيضًا أن ألوذ بالصمت، وإلا بدأ القصير في تجربة وسائل الاستجواب الروسية الشهيرة عليّ، فما الحل إذن؟!

أين أنت أيها الوغد (أنور)؟؟!!

- "يبدو أنك قد اخترت بالفعل.."

قالها القصير، ثم اتجه إلى طاولة صغيرة عليها حقيبة مفتوحة، تحمل أدوات معدنية عجيبة الشكل، لكنها موحية بشدة.. أدوات تصلح لقلع الأظافر، ولتحطيم العظام، ولتمزيق الأعصاب، وكل هذه الأدوات ستكون من نصيبي أنا.. لكم أنا محظوظ!!

انتقى القصير أكثر هذه الأدوات إفزاعًا واتجه بها إليّ، ليقول مبتسمًا في جذل:

- أعدك أنك ستخبرني بكل ما تعرفه بعد قليل..

كنت أشعر بهلع لا حد له، لكني جاهدت كي أبدو متماسكًا.. لو كنت سألقى حتفي، فسألقاه بكرامة تليق بعربي.. ولو حدث هذا، فجلّ ما أرجوه أن تعود روحي إلى هذه الدنيا لأتسلى بتعذيب السيد (أنور) حتى يفقد عقله!!

أخذ القصير يقترب مني ببطء ليحافظ على التأثير الدرامي للأحداث، حاملاً أداته المخيفة، وهو يبتسم بثقة من يعرف استخدام هذه الأداة جيدًا...

إنه لا يمارس عمله فحسب، بل يستمتع به كذلك.. ولا يوجد شيء في هذه الدنيا قادر على إفساد متعته إلا.. إلا..

إلا أن يدوي ذلك الانفجار في الخارج. ليطير باب الشقة إلى الداخل، وليقتلع في طريقه أحد رفيقي القصير بدوي هائل، قبل أن يسقطا أرضًا..

والآن لا أجد طريقة مناسبة لوصف المعركة التي حدثت، ولا يمكنني أيضًا أن أكون مستفزًا ،لأتجاوزها إلى ما حدث بعد ذلك.. لذا عليّ أن أبحث عن طريقة فريدة ومبتكرة لأروي لك ما حدث...

نعم.. المزيد من الكوميكس!.. لنبدأ بسرعة..

الكادر الأول:

أنا ما زلت مقيدًا إلى المقعد، وتلاحظون نظرة المفاجأة في عيني القصير ورفيقه الأول، وهما يشهران أسلحتهما، بينما رفيقه الثاني يهب من على الأرض كدب هائج وهو يشهر مسدسه ويضغط على الزناد تجاه الباب المفتوح..

بالطبع سيكون الهامش العلوي من نصيبي لأقول فيه: (كانت المفاجأة غير متوقعة بالمرة..)

الكادر الثاني:

نرى الآن أن الثلاثة يتجاهلونني تمامًا، وقد بدأوا يطلقون النار على الباب المفتوح، دون أن يدخل عبره شيء، سوى تلك العلبة المعدنية التي أخذت تتدحرج تجاهي وقد بدت مستعدة تمامًا لأن تنفجر أسفل قدمي!!

تلاحظ أنني أحاول وبهستيريا أن أتخلص من قيودي، لكن.. لا جدوى..

يهتف القصير في بالونة ترتفع فوق رأسه:

- ابتعدا..!!

بينما أواصل أنا في الهامش العلوي: (وحين بلغت القنبلة أسفل قدمي.. أدركت أنها النهاية)

الكادر الثالث:

القنبلة تنفجر أسفل قدمي، ليخرج منها أطنان من الدخان – رسم الدخان هو كابوس أي رسام، لكنه ما حدث! – ليبدأ الجميع وأنا منهم في السعال الحاد، وقد أصبحت الرؤية شبه معدومة، بينما أخذ القصير في التراجع إلى الخلف، وهو يطلق رصاصاته عشوائيًا على الدخان..

الكادر الرابع:

يظهر الشبح... شبح ضخم لرجل يرتدي معطف أسود يتطاير خلفه كعباءة.. مرتديًا قبعة رعاة البقر الأمريكية، وقناع واقي من الدخان على وجهه يخفي ملامحه تمامًا، وهو يحمل مسدسين في كلتا يداه، يطلق منهما الرصاصات بدقة مبهرة، لتطير مسدسات رفيقي القصير، اللذين تحولا بفضل الدخان والسعال إلى كائنات بائسة لا حول لها ولا قوة..

في الهامش العلوي تقرأ: (وكان الهجوم ساحقًا..)

الكادر الخامس:

من وسط الدخان الذي يملأ الكادر ترى الشبح يحطم فك مرافق القصير الأول، بينما ساقه مغروزة في معدة المرافق الثاني.. لوكان هذا (إيجور) فأنا أحسده على اللياقة التي يتمتع بها في سنه هذه، ولو لم يكن (إيجور).. فمن هو منقذي هذا؟!

الكادر السادس:

من زاوية رأسية، نرى الشبح يختم قتاله مع رفيقي القصير بضربتين موفقتين من كعبي المسدس على رأسيهما، كانتا من القوة إلى الحد الذي تتناثر مع الدماء من رأسيهما، مصحوبة بكلمات (طق) و(طاااخ) الذين يكتبان على الكادر عوضًا عن الصوت، وتراني أنا أرمق هذه النهاية، وجسدي ينتفض لفرط السعال، كما تلاحظ أن القصير قد اختفى من المكان...

في الهامش العلوي تقرأ: (قلت أن الهجوم كان ساحقًا.. وناجحًا!)

الكادر السابع:

الآن يمكنك أن ترى هذا الشبح وهو يحل وثاقي، بينما تساقط رفيقي القصير على الأرض من خلفه، والدماء تنزف من رأسيهما.. ترى أن قنبلة الدخان أسفل قدمي تلفظ أنفاسها الأخيرة، ويمكنك أن تلاحظ رغم الأدخنة أن هذا الشبح هو(إيجور).. وها هو يتصرف كلقبه تمامًا..

مني تتصاعد بالونة ذات ذيل، أقول فيها أنفاس متقطعة من السعال:

- هنـ.. كح.. هناك ثالث.. كح كح.. إنه هنا..

ومن (إيجور) تتصاعد بالونة صغيرة يقول فيها باقتضاب:

- أعرف.. لا تقلق..

الكادر الثامن:

في هذا الكادر تراني أهب من على المقعد والسعال يمزق صدري، وعينياي محمرتان تغمرهما الدموع، بينما يسرع (إيجور) إلى أحد الغرف، شاهرًا مسدسيه أمامه، ومعطفه لا يزال يتطاير من خلفه، كأنه بطل قصة أسطورية.. كأنه ملاك الموت وقد جاء ليحصد أرواح الخطاة..!

في الهاش العلوي تقرأ (وبأسرع مما توقعت انتهت المعركة.. أ وكادت)

الكادر التاسع:

الدخان بدأ يقل تدريجيًا ليجعل الرؤية أوضح قليلاً.. تراني أقف بصعوبة وأنا أنتزع المسدس من أحد رفيقي القصير الفاقد الوعي، من باب الاحتياط والتأهب للأسوأ، وترى ذلك الوميض القادم من الغرفة مصحوبًا بالـ(رتاتاتاتاتاه..) المميز لكم الرصاصات التي يتم إطلاقها في الداخل الآن، والذي يؤكد أن مواجهة القصير، لم تكن بالسهولة المتوقعة.. لابد أن الجحيم ذاته يستعر داخل الغرفة، لكن لا خيار أمامي.. يجب أن أدخل!

الكادر العاشر:

كدت أبلغ باب الغرفة حين خرج القصير فجأة وقد غطت الدماء نصف وجهه، ليدفعني بيديه، والغضب باد في ملامحه، بينما أطلقت أنا رصاصة من مسدسي، طاشت مع هذه الدفعة الغير متوقعة..

القصير هرب.. ما الذي يعنيه هذا؟!

الكادر الحادي عشر:

أنا أهب من على الأرض، بينما ترى أن القصير قد اختفى من الكادر – لقد هرب – وعند باب الغرفة ترى (إيجور) يستند على الجدار، وهو يفتح أزار معطفه، لنرى سويًا تلك السترة الواقية من الرصاصات، وقد حملت عددًا لا بأس به من الثقوب، تدل على أنه لولا وجودها، لكان (إيجور) الآن مجرد ذكرى..

مني تتصاعد بالونة متحمسة، تقرأ فيها:

- لقد هرب.. يجب أن نلحق به..

ومن (إيجور) ذات البالونة المقتضبة:

- لا داعي لهذا..

الآن يمكننا أن نتوقف عن أسلوب الكوميكس، وأن نعود لأسلوب السرد العادي، ففي الوقت الذي أخذ (إيجور) فيه ينزع القناع الواقي عن وجهه، كنت أنا أهتف بعصبية:

- لكنه خطف ابنتك.. (ناتاليا)..

- مطاردته لن تجدي بشيء.. لقد اختفى فعليًا..

وهنا لدهشتي دخل السيد (أنور) المكان – أخيرًا ظهر ذلك القصير! – واضعًا كفيه في جيب معطفه كعادته، ليقول بهدوء شديد مستفز:

- إنه على حق.. لقد اختفى..

ثم ابتسم بارتياح، ليردف:

- وهذا يعني أننا نجحنا..

-!!!!!

***

٨- لنتبادل المعلومات..

طيلة الطريق إلى شقتي المؤجرة في (باريس)، أخذ السيد (لأنور) يقود السيارة، وهو صامت كتمثال، وشفتيه تحملان ابتسامة غامضة مثيرة للأعصاب، وإلى جواره جلس (إيجور) في حالة هدوء تامة، يرمق الطريق من زجاج النافذة، دون أن يبدو كأن شيئًا مما حدث حتى الآن يؤثر فيه على الإطلاق..

وحدي جلست في المقد الخلفي، أضرب أخماسًا في أسداسًا، عاجزًا عن فهم ما الذي يحدث من حولي، كما هي العادة منذ زمن، وأنا أتساءل عمّا حدث وسيحدث، وعن الخطوة التالية التي سنقوم بها، إن كان هناك خطوة تالية..

وصلنا أخيرًا، فخرجنا من السيارة، وانضممنا في المصعد الضيق، ليحملنا إلى الطابق الرابع، حيث الشقة التي منحوني إياها، حتى أنني لم أندهش، حين وجدت السيد (أنور) يخرج مفتاحًا ليفتح به الشقة، كأنه من يسكن هنا لا أنا..

وحين دخلنا سويًا إلى الشقة، كان هناك شخص رابع في انتظارنا، يولينا ظهره وهو يدخن بإفراط، وقد أمسك في كفه بكأس صغير يحتوي على الشراب..

وحين التفت ليواجهنا، لم أستطع كبح جماح دهشتي..
نعم.. لقد كان هو.. (إيجور فيودورف)..
الشبح!!

***

الآن ينزع شبيه (إيجور) القناع من على وجهه، ليظهر شاب مصري وسيم الملامح، ليجلس جوار (إيجور) الحقيقي، بينما السيد (أنور) يغلق الباب من خلفنا، قبل أن يجذبني من يدي لأجلس، لأتبعه محاولاً السيطرة على أعصابي..

وأخيرًا يقول السيد (أنور):

- أعرفك أولاً بالسيد (أمجد) الذي أنقذك متنكرًا في هيئة (إيجور)..

هزّ السيد (أمجد) رأسه دون أن ينطق بحرف، فتابع السيد (أنور) بالفرنسية موجهًا حديثه لي:

- والآن يا عزيزي.. هل تريدني أن أشرح، أم ستخبرنا أنت بما حدث؟!

- أعتقد أن لي تصور ما عمّا حدث..

- أخبرنا به إذن..

صمت لحظة لأستجمع أفكاري كلها في رأسي، ثم قلت:

- الواقع أنني لم أكن مستعدًا لما حدث.. المطلوب مني كان أن أحرس هذا الرجل سرًا، تمهيدًا لمساعدته على الهرب من البلاد. أما أن أكتشف أن له ابنة، وأنه يحتفظ بجثة في غرفة الفندق، فهذا ما لم أتوقعه.. لقد حاولت الاتصال بك حينها لأبلغك هذا، لكنك اختفيت دون

سبب لتتركني أواجه هذا كله وحدي، وحين ظهر (إيجور) في غرفتي، ليطالبني بالسفر معه، لم أعرف كيف أتصرف فتبعته وأنا أشعر بأن هناك خدعة ما تنتظرني.. وقد كان..

التقطت أنفاسي لأتمكن من المواصلة. ثم تابعت:

- لقد اختفى (إيجور) فجأة حين كنت في القطار تاركًا لي حقيبته الخاوية، فلم يعد أمامي سوى اللجوء لقدراتي لمحاولة فهم ما حدث، وباستخدام قدراتي مع كثير من المنطق، استطعت أن أبني التصور التالي.. (ناتاليا) كانت في الفندق. لتزود أباها بتلك الحقيبة التي تحوي على أدوات تنكر.. ولا بد أنه تنكر في هيئة شخص بدين، فهذا يتناسب مع حجم الحقيبة الضخم، والسهولة التي كان (إيجور) يحملها بها، رغم عمره المتقدم.. لكني تمكنت أيضًا من الشعور بأن ابنته أصبحت في خطر، وأنه سيضطر للعودة.. وما حدث بعد ذلك معروف، بما فيه اتصالك المستفز عمّن سيختطفونني، الشيء الوحيد الذي لم أفهمه هو كيف عرف (إيجور) أنه أنا من أراقبه بهذه السرعة؟! أعني أننا اتخذنا الاحتياطات اللازمة..

أجاب (إيجور) بلا اكتراث:

- قطرة الدم التي تركتها أمام باب غرفتي.. سألت الخدم فأخبروني من هو الأحمق الذي لم يجد سوى باب غرفتي لينزف أمامه. وكانت ابنتي أخبرتني أنك عربي، فلم يعد من الصعب استنتاج الباقي..

هنا تحدث السيد (أنور) وهو ينظر لي نظرة خاصة، مكملاً:

- لكن (إيجور) لم يعرف أن ابنته قد سقطت في تلك الليلة في أيدي وفد الاغتيال الذي أرسلوه للتخلص منه، وكنت أنا من أبلغه هذا الخبر، حين كان يقف حائرًا في مطار لندن ينتظر ظهورها، لأعود به إلى هنا

بينما كنت أتصل بك لأطلب منك ألا تقلق.. فلقد كنت أعرف ما الذي سيحدث بالضبط..

وصمت قليلاً، قبل أن يردف:

- بالطبع كنت أعرف موضوع الجثة التي يحتفظ (إيجور) بها لتلعب دوره حين يشعل الغرفة، ليظن الجميع أنه هومن احترق، كما كنت أعرف موضوع ابنته، وهذا هوكان بداية شكي.. لذا أعددت خطتي بحيث تشمل جميع الاحتمالات ومنها ما حدث فعلاً.. لذا فلم تكد أنت تسقط في أيدي رجال المخابرات الروسية، حتى كان الزميل (أمجد) قد تنكر بهيئة (إيجور) ليتبعك، ولينقذك.. على الأقل هذه المرة كنّا نعرف، عكس ما حدث لـ(ناتاليا) التي اختطفوها فجأة.

لم أتمالك نفسي من أن أسأل:

- لماذا تنكّر بهيئة (إيجور)؟!

- ظهور (إيجور) أمام وفد الاغتيال هذا وهزيمته لهم بهذه الصورة، ستجعلهم يندفعون كالحمقى إلى حيث يحتفظون بالكارت الأخير الذي قد يضمن لهم النصر في هذه المعركة.. إلى حيث يحتفظون بـ(ناتاليا).. وهكذا يستطيع فريق التتبع والمراقبة تحديد مكان (ناتاليا) على وجه الدقة..

هنا سأل (إيجور) بلهفة لم يستطع مدارتها :

- هل حددتم مكانها؟!

- ليس بعد.. لكن لا تتوقع أننا سنساعدك هذه المرة بدون مقابل..

- أنا مستعد لأي شيء.. أي شيء مقابل أن تنجو ابنتي..

وعلى الرغم مني وجدتني أنظر إلى (إيجور) بدهشة..

كان من العجيب حقًا أن أرى (إيجور) في حالة الضعف الإنساني

هذه التي أخذ يقاوم ظهورها عليه بضراوة..

هذا الرجل الذي ارتجفت المخابرات في جميع أنحاء العالم لمجرد ذكر اسمه، يبدو الآن كأنما فقد جزءً من رهبته، وهو يتحدث عن استعداده لفعل أي شيء.. أي شيء لينقذوا ابنته الوحيدة..

ألم أقل لكم هو رائع أن تحيا كمجهول؟!..

ها هو الشبح ذاته يدفع ثمن كونه (إيجور)..!

كنت أعرف أن السيد (أنور) سيساعده على كل حال، لكنها كانت فرصته ليجعله يدفع الثمن، فقال بقسوة:

- وما الذي يضمن لنا أنك لن تتلاعب بنا ثانية؟

لم يتردد (إيجور) لحظة، قبل أن يقول:

- قلت لكم أي شيء مقابل إنقاذ ابنتي.. أي ضمانات تريدها..

- عظيم.. لننتظر تقرير فريق المراقبة والتتبع إذن..

هنا سألت أنا أخيرًا:

- سيد (أنور).. ما دمت كنت تعرف، فلماذا لم تبلغني بهذا كله من قبل؟!

- هناك قاعدة في عالمنا تقول أن المعرفة على قدر الحاجة..

تماسكت كيلا أهشم عنقه، لأقول:

- أعتقد أن دوري انتهى إذن..

- ليس بعد.. انتظر قليلاً..

قالها السيد (أنور). فابتلعت ضيقي ولذت بالصمت الذي ساد على المكان، وقد انتظر الجميع اتصال فريق المراقبة والتتبع، وحين أتى الاتصال أخيرًا، كانت اللهفة المطلة من عيون الجميع تدل أن (إيجور) ليس وحده من يشعر بالقلق...

استغرق الاتصال دقائق معدودة، أخذ فيها السيد (أنور) يغمغم بكلمات غير مسموعة، وبالعربية ليضمن أن (إيجور) لن يفهم حرفًا مما يقوله، قبل أن ينهي الاتصال ليقول بتوتر بالغ:

- لقد حددنا الموقع.. لكن..

- لكن ماذا؟!

كانت هذه من (إيجور)، فأطرق السيد (أنور) لحظة – لوكان يريد تمزيق أعصابه، فلقد نجح في هذا تمامًا - قبل أن يجيب أخيرًا:

- إنها هناك.. في بيت العقارب..

لم تتحرك عضلة في وجه (إيجور)، لكن صوته عبّر عن الانفعال الذي يموج في أعماقه:

- ماذا تقول؟!

- هذا هو الموقف.. يجب أن نتصرف وبسرعة، فليس من الحكمة أن نتركها تحت رحمتهم..

سألت قبل أن يتجاهلني الكل كالمعتاد:

- ما هو بيت العقارب هذا؟!

فأجابني السيد (أنور):

- إنه مقر للمخابرات الروسية في (فرنسا).. ليس مجرد مقر، بل حصن في الواقع يستخدمونه للحفاظ على من حياته في خطر بالغ، أومن يريدون تعريض حياته لخطر بالغ دون أن يزعجهم أحد.. هذا هوما يمكنني أن أخبرك به..

هنا قال السيد (أمجد) باهتمام:

- أوافقك الرأي في أهمية التحرك سريعًا.. فذلك القصير الأشقر

الذي يقود وفد الاغتيال شرس للغاية، حتى أنني لا أنكر أنني نجوت منه بأعجوبة..

سأل (إيجور) بقلق يتزايد حتى بات من العسير مقاومته:

- قصير أشقر!.. هل يمكنك أن تصفه لي قليلاً؟!

- لا شيء مميز فيه سوى ندبة خفيفة أسفل عينه اليسرى..

خرج صوت (إيجور) هذه المرة، حاملاً مزيجًا عجيبًا من القسوة والخوف والغضب والمقت:

- إنه (أنطون).. لقد أرسلوا (أنطون)..

- من هو(أنطون) هذا؟!

- إنه ابن واحد من أعز أصدقائي .. أو من كان كذلك.. فلقد قتلته حين أرسلوه لاغتيالي ذات مرة..

- أي أنه يبغي الانتقام.. عظيم.. هذا ما كان ينقصنا..

ثم صمت السيد (أنور) ليغرق في تفكير عميق، فاحترمت صمته، وأخذت أرمق (إيجور) الذي بدا وكأنما تضاعف عمره مرات ومرات، وهو ينظر إلى السيد (أنور) الذي دام تفكيره لبضع دقائق قبل أن يقول:

- لا خيار أمامنا.. سنهجم على بيت العقارب..

- لكن.. ألا تعتقد أنه لا ينبغي لنا التورط مع المخابرات الروسية بصورة مباشرة؟

كانت هذه من السيد (أمجد)، لكن ابتسامة الغموض وجدت طريقها إلى شفتي (أنور) وه ويقول:

- لا تقلق فلدي خطة..

وبدأ في شرح خطته لنا بهدوء وثقة، وبأسلوب جعلني أندمج معه تمامًا، حتى أنني بدأت في تقديم الاقتراحات بعد أن انتهى، وبدأ الجميع يصغون إليّ، ثم انضم السيد (أمجد) ثم (إيجور) نفسه...

هل يعرف أحدكم (ورشة السيناريو) التي تنعقد قبل أي فيلم؟

حين يجلس أكثر من مؤلف، فيلقي أحدهم بفكرة ما ليتلقفها آخر، ويبدأ في إعادة صياغتها والإضافة عليها، ثم ينضم ثان وثالث، وكل منهم بأراءه وأفكاره، حتى تتبلور الفكرة تمامًا تحمل في أساسها فكرة الأول لكنها مغطاة بعصارة أفكار الجميع وخلاصة تجاربهم.. هذه هي الفكرة التي تصلح.. هذه هي الفكرة التي ستنفذ..

لقد كان الأمر أشبه بهذا، لكن بين ثلاث من رجال المخابرات ورابع – هو أنا – يحمل خبرات غير عادية، إضافة إلى خبراته كرجل شرطة سابق..

لا بد أن اجتماعنا هذا قد استغرق أربع ساعات على الأقل، لكننا في النهاية كنا ننظر برضا إلى المخطط النهائي الذي وصلنا له..

هذه هي الفكرة التي تصلح.. هذه هي الفكرة التي ستنفذ..

لننفذها إذن..

***

٩- إلى بيت العقارب..

وكان بيت العقارب هذا في (مونمارتر Monmartre)...

وقبل أن أحكي لك ما حدث، دعني أعرفك بالمكان قليلاً من باب الاندماج في جو المكان الذي يساعد على معايشة الحدث.. أعتقد أن هذا مهم وضروري.. فكيف لأحد سكان المغرب مثلاً أن يتعايش مع أحداث قصة تدور في الحسين، ما لم يتعرف على المسجد بأضوائه، وعلى المقاهي الساهرة ليل نهار، وعلى رائحة الشواء التي تفعم الشارع في ليالي رمضان، من عشرات المطاعم حيث وجبات السحور كفيلة بالقضاء على مرضى القلب، في ليالي رمضان طلبًا للبركة..؟!

مونمارتر هي قرية قائمة على هضبة، يسميها الفرنسيون تلة (لابوت La Buttee)، ولتصل إليها أمامك طريق من اثنين.. إما أن تأخذ باص مونمارتر (Monamartrobus) الذي سيوفر عليك مشقة السير، وسيمنحك جولة كاملة في القرية، وإما أن تبدأ من الصباح الباكر بأن تستقل المترو إلى (أبيسس Abbesses) ومن ثمّ المصعد الذي سيقودك إلى أعلى – ليس من الحكمة صعود الدرج الذي لا نهاية له – وستجد نفسك في مواجهة المدخل الجذاب لمبنى (Art Nouvaue) قرب كنيسة

القلب المقدس (Sacre' Coeur) التي تعد تحفة معمارية تستحق الزيارة، مالم تكن ذاهبًا لإنقاذ ابنة الشبح...

على كل حال لسنا هنا لنتمتع بجمال الطبيعة، كما أن مشهد الذروة لهذه القصة أوشك أو كاد، لذا سنترك هذا كله، وسنسلك شارع إيفون لوتاك (Rue Yvonne le Tac) لنتجه إلى محطة القطار، ثم سنتجه شرقًا إلى حيث تلك المباني الهادئة التي تحيطها الحدائق الفرنسية الغناء، التي لا تصلح إلا لقصص العشاق أو لتصوير الأفلام الفرنسية، ذات الصورة شديدة النقاء..

هل ترى معي هذا المنزل ذو الطابق الواحد ،الذي تحيط به حديقة كئيبة كثيفة الأشجار على نحو كفيل بإخفاء جيش من الحرس؟!.. هل ترى تلك النوافذ المكونة من مرايات نصف عاكسة تسمح لمن في الداخل برؤية من في الخارج، والعكس غير صحيح؟!

هذا هو بيت العقارب الروسي الشهير..

وها أنا الآن ألتقط نسائم الليل الباردة في صدري لأستعد للدخول..

فهل تجرؤ على مرافقتي؟!

هل تجرؤ؟

***

كانت الخطة جريئة حقًا وتليق بخطة وضعها ثلاث رجال مخابرات وضابط شرطة. إذ كانت تعتمد على المفاجأة والسرعة... وعلى كبش فداء قبلت أنا لعب دوره بصدر رحب، ليكون هذا هو الدور الوحيد الفعال في هذه القصة..

كنت أقف أمام المنزل الذي بدا خاويًا كما يفترض به أن يبدو.

وإلى جواري (إيجور فيودورف) الحامل الرسمي والوحيد للقب الشبح، ونسائم الليل الباردة تجمد رئتي، حين قال هو:

- هل أنت مستعد؟!

- كالعادة..

- هيا بنا..

وبأعصاب نحسد عليها حقًا. اتجهنا إلى بوابة المبنى المعدنية، حيث كابينة الحراسة بزجاجها النصف عاكس، والتي لم نكد نقترب منها، حتى خرج منها ثلاث حراس يحملون المدافع الآلية القصيرة، وهم ينظرون إلينا بذهول، كأنهم لا يصدقون ما يحدث أمامهم، حتى أن أولهم قال بالروسية – لم أفهم ما قاله. لكني استنتجته -في جهاز الاتصال في يده:

- إنهم هنا..

أتاه الصوت مصحوبًا بالشوشرة المتوقعة. بما معناه أن:

- فتشهما جيدًا ثم تعال بهما إلى الداخل..

وهكذا قام الحراس الثلاثة بتفتيشنا جيدًا. ليتأكدو أننا لا نحمل أي أسلحة، قبل أن يقودنا إلى الداخل وهم يسددون مدافعهم تجاهنا طيلة الوقت، وقد التصق تعبير عدم التصديق بوجوههم الباردة...

الشبح يسلم نفسه إليهم بهذه البساطة.. من يصدق هذا؟!

بالطبع لم نكن نتصرف بحماقة لوكنت ظننت هذا، فـ (إيجور) كان قد اتصل بهم قبل مجيئنا ليعرض عليهم الصفقة التالية...

سيأتي معي إليهم ليسلم نفسه إليهم، على أن يتركوا (ناتاليا) ترحل معي...

بالطبع لن يكون الأمر بالبساطة المتوقعة، فهم إن لم يتركوا (ناتاليا)

سيقوم أحد أصدقاء (إيجو) بإرسال نسخة من ملفات المخابرات الروسية إلى جميع أجهزة المخابرات في العالم، والضمان الوحيد لكي لا يتم هذا هو أن تبقى ابنته حية، حتى بعد وفاته هو... أي أنها صفقة قذرة، لكنها تضمن أن تخرج ابنته حية من هذا المكان على الأقل، بعد هذا فليحدث ما يحدث، وسيكون الرهان على أي المخططين أذكى.. مخططه أم مخططهم..

بالطبع سنحصل نحن على المقابل أيًا كانت النتيجة، فـ(إيجور) منحنا أسطوانة المعلومات المطلوبة، ولم يتبقى سوى حل الشفرة الذي كتبت به المعلومات داخل هذه الأسطوانة، وهذا ما سنحصل عليه في حالة خروج ابنته، ولن تعرف المخابرات الروسية شيئًا عن هذا، فكما أكد لي السيد (أنور) أن مثل هذه المعلومات تفقد قيمتها، لو تم اكتشاف سرقتها أو الحصول عليها..

وهكذا ترانا الآن ندخل بيت العقارب – مما يدل على أنهم وافقوا على عرضه، أو أنهم يعدون لنا مفاجأة في الداخل – وقد انضم المزيد من الحرس إلى الثلاثة الذين استقبلونا عند البوابة، وأصبح من العبث، محاولة إحصاء عدد المدافع التي تحيط بنا.. الأمر يبدو مبالغًا فيه، لكن (إيجور) يستحق..

أخذنا نسير عبر ممرات خالية متشابكة، ومضاءة بالنيون الهادئ، وقد مررنا على عشرات الأبواب المغلقة في المكان، مما يدل على أنهم بنوه خصيصًا، ليضل المرء فيه طريقه بسهولة، وفي النهاية بلغنا تلك الغرفة حيث كان القصير (أنطون) في انتظارنا، وقد بدا عليه أن يحاول السيطرة على أعصابه المضطربة...

لقد نجح فيما عجزت عنه جميع أجهزة المخابرات، وها هو الشبح

يسلم نفسه أمامه وفي عرينه.. أي نصر هذا..

وحين تحدث، كان صوته باردًا كالثلج:

- أخيرًا يا (إيجور).. بعد كل هذه السنوات..

لكن (إيجور) لم ينطق بحرف، وإن أخذت عيناه تتحركان في المكان بسرعة ودقة، بينما حاولت أنا أن أتخلص من رهبة المكان، لأقول:

- ها هو بين يديكم.. سآخذ الفتاة وأرحل..

- لن تذهب إلى أي مكان أيها العربي..

- ماذا تقصد؟!

- أقصد أن الاتفاق لاغ.. والآن يا (إيجور) ستخبرنا أين صديقك هذا الذي يملك الملفات، أو سنذبح ابنتك أمام عينيك..

وعلى عكس ما يتوقع تمامًا، ظل (إيجور) محافظًا على صمته، على نحو أثار أعصاب (أنطون) الذي صرخ بعصبية:

- ألا تفهم؟!.. لقد خسرت.. لن تخرج من هنا حيًا، وهذا ما سيحدث لابنتك لو لم تتكلم..

لكن (إيجور) حافظ على صمته المستفز، فتراجعت أنا بظهري قليلاً لأستند على الحائط، لألصق كفي به، ولأبدأ في التركيز بصعوبة، بينما يصرخ (أنطون):

- أمامك دقيقة واحدة لتمنحنا ردك، وإلا...

دقيقة واحدة للتركيز.. لا يبدو هذا الوقت كافيًا، لكني سأحاول على كل حال..

أغمض عيني مستغلاً أن (إيجور) هو محور اهتمام الجميع، وأركز..

أركز.. أركز.. أركز..

الألم العنيف يتصاعد في رأسي، لكني اعتدت عليه.. ثم الصور تتوالى في رأسي بسرعة متزايدة...

ومع تزايد الألم تتزايد سرعة الصور..

أركز.. أركز.. أركز..

الصور تتحول إلى شريط سينمائي. وها أنا أرى ما خلف الجدار..

أرى ذلك المكتب الذي يجلس عليه مجموعة من السادة الروس يتناقشون في شيء ما لا أفهمه، لكني أرغم نفسي على الحركة...

أركز.. أركز.. أركز..

وكأنني أقف معهم في هذه الحجرة، أبدأ في التحرك.. ببطء أولاً، ثم تزداد سرعتي تدريجيًا..

وصوت (أنطون) يبدو كأنما هو قادم من بعيد.. بعيييييد..

أنا الآن أغادر تلك الغرفة لأعبر بابها المفتوح إلى الممر في الخارج، وأبدأ في التجول في الممر...

أركز.. أركز.. أركز..

الأم وصل إلى حد لا يطاق، لكني أقاوم.. يجب أن أقاوم..

أتحرك في الممر، ثم أبدأ في البحث عنها.. عن (ناتاليا)..إنها خلف أحد هذه الأبواب، لكن أي باب بالضبط؟!

أركز.. أركز.. أركز..

الآن تتحول حركتي إلى شيء أشبه بتلك بحركة كاميرا المخرج (ديفيد فينشر) في فيلمه (Panic Room).. من رأى الفيلم منكم، فلا بد أنه رأى كيف تجول عبر المنزل كله بأن أخذت الكاميرا تتحرك كالأفعى، لتعبر من أسفل الأبواب، وعبر ثقوب الأسلاك، ومن خلال الزجاج.. من رأى منكم الفيلم يستطيع أن يتخيل الآن ما الذي أفعله..

أتحرك بعقلي ككاميرا أفعوانية في المكان!

أركز.. أركز.. أركز..

المزيد من الغرف والمزيد من السادة الروس، ولا أثر لـ(ناتاليا)..

أنكون قد تسرعنا، وتكون (ناتاليا) في مكان آخر؟!.. لوكان هذا صحيحًا، فهذا يعني أننا هالكون لا محالة.. وأننا – وهذا هو الأسوأ – قد فشلنا...

أين أنت يا (ناتاليا)؟! أين؟!

أركز.. أركز.. أركز..

أتحرك بعقلي بسرعة أكبر.. أجتاز الغرف والأبواب والنوافذ والممرات، وفي النهاية أصل إلى تلك الغرفة في نهاية الممر الشرقي للمكان، لأجدها..

كانت موثوقة إلى أحد المقاعد، في حراسة ثلاثة ضخام الجسد يحملون مدافعهم بتأهب، وقد حمل وجهها آثار الاستجواب الذي مارسوه عليها..

الأوغاد!.. يضربون امرأة!!

الآن يمكنني التوقف عن التركيز، لأعود إلى الغرفة حيث أقف، لأرى نظرة الاستغراب التي ظهرت في عيني (أنطون) ورجاله، وهم يرمقون الدماء التي أخذت تسيل من أنفي بغزارة، وقد تجسد الإعياء في ملامحي كأبلغ ما يكون..

وبتوتر يسأل أحد الحراس:

- ما الذي أصابه؟!

هنا يلتفت لي (إيجور) ليمنحني نظرة من يريد التأكد من شيء ما، فأهز رأسي بضعف موافقًا، ليصرخ (أنطون) في ثورة:

- دقيقتك انتهت يا (إيجور)..

وهنا يتحدث (إيجور) بصوت لا يحمل ذرة انفعال، ليجيب:

- أحمق أنت كوالدك يا (أنطون) ..

وفي اللحظة التي ارتسم فيها الاستنكار جليًا على ملامح (أنطون)، تصاعد صوت أحد الحرس عبر جهاز الاتصال اللاسلكي، يهتف بالذي كنا ننتظره:

- سيدي.. لن تصدق.. (إيجور فيودورف) هنا في الخارج و.. وبتر دوي تلك الرصاصة عبارته..

وكانت هذه الرصاصة بمثابة إشارة البدء لـ(إيجور)، فلم يتردد لحظة واحدة..

والآن عرفت لماذا كان يلقبون (إيجور) بالشبح..

لقد رأيت بنفسي..

رأيته ينتزع المدفع من يد أحد الحراس، ليحركه بسرعة غير عادية، ولتنطلق الرصاصات من المدفع الكاتم للصوت تجاه الجميع الذين أربكتهم المفاجآت المتوالية..

ثم رأيت الجميع يتساقطون بسرعة لا توصف، إلا (أنطون) الذي عقدت المفاجأة لسانه، فأخذ يحدق ذاهلاً في (إيجور) الذي بدا كأنه يمارس عمله بسرعة وهدوء.. عملاً اعتاد عليه منذ سنوات ولم يعد هناك من ينافسه فيه...

وحين انتهى سدد مدفعه إلى (أنطون) ليقول:

- ألم أقل لك إنك أحمق؟!

خرجت الكلمات من بين شفتي (أنطون) كالحشرجة:

- ولكن.. كيف؟؟!

- خمّن..

بالطبع لم يخبره (إيجور) أن من في الخارج هو رجلنا (أمجد) الذي استطاع بتنكره هذا، جذب الأنظار إليه بعيدًا عنا، مسببًا حالة لا توصف من الارتباك للجميع..

لقد ظنوا أنهم قبضوا على الشبح ليجدوا أنفسهم في مواجهة آخر..!

الجزء الثالث من الخطة كان يعتمد على مجموعة من القنابل الزمنية التي وزّعها السيد (أنو) في أسوار الحديقة التي تحيط بالمبنى، لم يكد أولها ينفجر بدوي هائل، حتى كانت حالة البلبلة والفوضى في المكان قد وصلت إلى ذروتها، حتى أن (أنطون) صرخ غير مصدق:

- ما الذي يحدث هنا؟!

لم نعره أدنى اهتمام، بل نظر إلي (إيجور) وهو يسدد مدفعه إلى (أنطون) طيلة الوقت، ليقول:

- هل حددت موقعها بدقة؟

- أعتقد هذا..

- انطلق أنت إذن..

وهكذا تناولت أنا أحد المدافع من الأرض، لأطلق رصاصاتي على فتحة التهوية في السقف لأسقطها، ثم وقفت على المقعد الوحيد في المكان، لأدفع بجسدي في ممرات التهوية، بينما صرخ (أنطون) بثورة:

- لن يمكنك إنقاذها..

أجابه (إيجور) ببرود مقتضب:

- سنرى.. والآن هيا لتساعدني على الخروج من هنا..

بالطبع لم أسمع ما الذي حدث بعد ذلك بينهما، بل أخذت أزحف عبر ممرات التهوية متجهًا إلى حيث يحتجزون (ناتاليا)، وقد تحول

المبنى من أسفلي إلى جحيم تنطلق فيه الرصاصات بلا توقف، والكل يجري في حالة تخبط واضحة، محاولين السيطرة على هذا الهجوم المفاجئ الذي أتاهم من أكثر من جهة..

لم يكن الزحف عبر الممر سهلاً لو كنت تظن هذا، فهو أضيق من أن يسمح لك بحرية الحركة، كما أنني كنت أمسك بالمدفع طيلة الوقت، مما جعل حركتي في الممر أصعب، لكني كنت أتقدم بسرعة نسبية عبر شبكة الممرات المعقدة، متجهًا إلى الغرفة التي رأيت فيها (ناتاليا) والحراس الثلاث.. دعك بالطبع من ذلك الدوار الذي أخذ يعبث برأسي، بعد كل ذلك المجهود العقلي الذي بذلته، والدماء التي فقدتها..

رهاني الوحيد الآن هو أنهم لن يقتلوا (ناتاليا) قبل أن أصل إليها..

حالة الارتباك التي أصابتهم، ستمنعهم من اتخاذ قرار جذري كهذا، وستجعل الحراس الثلاثة متأهبين تمامًا لأي هجوم يتعرضون له.. لكنهم لن يتوقعوا أن يأتي هذا الهجوم من أعلى، وإن كان السيد (أنور) يؤكد أنهم رجال مخابرات محترفين، وأنهم سيتجاوزون المفاجأة في خمس ثوان لا أكثر، هي كل الوقت الذي أملكه من لحظة هبوطي على رأسهم، وحتى أتخلص منهم جميعًا..

دوي الرصاصات في الأسفل يتزايد ليمتزج بدوي الانفجارات، ويبدو أن المعركة قد أصبحت على أشدها..

المشكلة هي أنني هنا في الأعلى، لا يمكنني أن أعرف ما آلت إليه المعركة حتى الآن..

من يدري؟!

ربما أهبط لأجد أنهم استعادوا السيطرة على الموقف، وأن (إيجور) والسيد (أمجد) قد سقطوا أسرى أو قتلى، وهذا لن يعني إلا أنه سيكون

عليّ التصرف وحدي، وأنا – ببساطة – لا أعرف ما الذي يجب عليّ فعله في موقف كهذا..

هذه المواقف صنعت لأبطال القصص البوليسية التي أكرهها منذ صغري، أما أنا فلا أملك سوى حقيقة أنها أول مهمة لي بالفعل وأنني لا أعرف كيف سأتصرف حينها..

كيف سأتصرف حينها؟!

لنترك هذ لوقته..

أزحف.. وأزحف.. وأزحف.. وعبر فتحات التهوية التي أمرّ عليها أطمئن أن كل شيء على ما يرام، وأن المعركة لم تتوقف بعد..

لا يزال أحدهم حيًا على الأقل...

وأخيرًا أصل إلى فتحة التهوية المطلوبة، لأجد نفسي أحدق عبرها إلى (ناتاليا) المقيدة، والحراس الثلاثة الذين بدوا في حالة من التوتر، وأحدهم يسدد مدفعه إلى (ناتاليا) مستعدًا لضغط الزناد كما أمروه أن يفعل، في حالات الطوارئ القصوى.. إذا لم نحصل على الأسير، فلا أحد سوانا سيحصل عليه.. هذه هي القاعدة..

الآن عليّ أن أحطم فتحة التهوية هذه لأهبط عليهم كالصقر، ولأطيح بالثلاثة فيما لا يزيد عن خمس ثوان، لأحرر (ناتاليا) ولأخرج بها من هنا..

المخطط يبدو أنيقًا حقًا، لكن.. لكن كيف سأهشم فتحة التهوية هذه إذا كنت عاجزًا عن الاعتدال في هذا الممر الضيق الذي يكفي بالكاد للزحف فيه أفقيًا..

هيا يا قارئ الروايات البوليسية.. أين الحلول العبقرية؟!

أين؟!

***

١٠ - الهروب من بيت العقارب..

أنا سأخبرك كيف تتصرف، فلا يوجد سواي على كل حال..

ما ستفعله هو أنك ستمسك بالمدفع بحيث تكون فوهته لأعلى، وكعبه على فتحة التهوية بيد اليسرى.. تذكر.. يدك اليسرى.. والآن إدفع بجسدك إلى الأمام قليلاً إلى الحد الذي يتيح لك رفع صدرك عن أرضية الممر، ثم انهال بمرفقك الأيمن على فتحة التهوية، في اللحظة التي ستضغط فيها بيدك اليسرى على زناد المدفع، ليندفع بفعل قاعدة (لكل فعل رد فعل يساويه في القوة ويضاده في الاتجاه) إلى الأسفل حيث فتحة التهوية و.. وها هي فتحة التهوية تهوي على الأرض بدوي معدني مؤلم، بينما أنزلق أنا بجسدي لأهبط على الثلاثة كالصقر..

خمس ثوان هي كل ما أملكه، وخمس ثوان هي كل ما استغرقته..

وها هي ثاني مرة أستخدم فيها قدراتي القتالية الجديدة التي اكتسبتها من تجربة (مجدي) العجيبة - المرة الأولى كانت حين واجهت (مجدي) في مقره في مصر.. ألم أقل لك إنه لا توجد ضرورة لقراءة الأعداد السابقة؟! - لأجد أن مهاراتي الجديدة تفوق قدرات ثلاثة من رجال المخابرات الروسية المحترفين.. وبمراحل..

لا أجيد وصف المعارك كما هو واضح، لكن لي أن أفخر بالإنجاز الذي حققته هنا وقد تساقط الثلاثة فاقدي الوعي، والدماء تنزف من وجوههم، لأتفرغ أنا إلى (ناتاليا)...

الأوغاد.. كيف يجرؤون على فعل ما فعلوه مع هذه الفتاة البائسة؟!

حين رأيت (ناتاليا) أول مرة، كانت فاتنة تكفي ابتسامة منها لتلهيك عن نفسك، أما الآن والكدمات تفترش وجهها مع الدماء الجافة ودموع الهلع والألم، فلم أشعر تجاهها سوى بالإشفاق، وأنا أحلّ قيودها محاولاً تهدئتها، بينما أصوات المعركة في الخارج مازالت مستمرة، قائلاً:

- أنا هنا لإنقاذك.. تماسكي..

- أبي.. أين أبي؟!

- سيكون على ما يرام.. والآن لنخرج من هنا..

- كيف؟!

هنا أخرجت تلك العلبتان البلاستيكيتان من كعبي حذائي، ومجموعة من الأسلاك الرفيعة من داخل الحزام، واتجهت إلى الجدار الذي يفصلنا عن الحديقة في الخارج، وأنا أجيب:

- لقد منحوني وسيلة الهرب، لكن لنأمل أن تصلح..

كانت هذه هي أغرب قنبلة رأيتها في حياتي، وحين منحني إياها السيد (أنور)، شعرت أنه يمزح، لكن شرح لي أنه كل ما عليّ فعله هو أن ألصقهما بالجدار، وأن أوصل الأسلاك بينهما بنسق خاص، ثم أن أضغط على الزر الأحمر في العلبة الأولى، قبل أن أتخذ أقرب ساتر لي..

وهكذا ألصقت العلبتين في الجدار.. ثم الأسلاك بالنسق المطلوب.. ثم ضغطت الزر الأحمر، لأجذب (ناتاليا) إلى ركن الغرفة، والمقعد

المعدني من أمامنا ليتلقى هو موجة الانفجار ثم أخذنا ننتظر...

هل توقعت ما حدث؟!

نعم.. لم تنفجر القنبلة..

للأسف!

***

كانت (ناتاليا) هي من سألت في هلع:

- لماذا لم تنفجر القنبلة؟

- لأنني سيء الحظ يا عزيزتي.. حاولي أن تعتادي هذا..

- وما الذي سنفعله الآن؟!

هنا لم أجبها، بل أخذت أفكر في حل للموقف الذي أصبحنا فيه..

لا يمكننا الخروج من الغرفة بالطبع، لنواجه كل من في الخارج.. إن من يلقي بنفسه في هذه المعركة هو أحمق بالتأكيد، خاصةّ لو كان يجر معه فتاة شبه مهشمة، لذا كان عليّ التفكير في حل بديل..

المشكلة أنني لا أفهم كيف تعمل هذه القنبلة بالضبط.. لو خرجت من هنا حيًا، سأحاول أن أتعلم كل شيء عن القنابل وعن اللغة الروسية.. أما الآن، فأمامي فرصة وحيدة للتجربة، ولنأمل أن تنجح..

أعدت (ناتاليا) إلى مكانها في ركن الغرفة خلف المقعد، والتقطت المدفع الآلي لأصوب على القنبلة الملتصقة بالحائط، وأنا أقول:

- المفترض أنها قنبلة رغم كل شيء، وهذا يعني..

ثم أطلقت رصاصاتي على العلبتين الملتصقتين بالحائط، فظل كل شيء على حاله للحظة ثم دوي الانفجار أخيرًا بدوي مخيف، غابت فيه صرخة (ناتاليا)، ليهوي الحائط مثيرًا عاصفة من الغبار، وليتلقى

المقعد أمامنا موجة الانفجار والشظايا بدلاً منّا..

لا بدّ أن دوي الانفجار سيجذب الانتباه إلينا، لذا هببت على الفور، وجذبت (ناتاليا) من معصمها قائلاً:

- هيا بسرعة..

وعبرنا الجدار المتهدم إلى الحديقة في الخارج، التي غلفها الظلام تمامًا، إلا من وميض الطلقات النارية، لنشق طريقنا عبرها إلى النقطة المتفق عليها..

بالطبع لم يكن الأمر سهلاً، وكنت أحمل مدفعي طيلة الوقت أمامي، لأزيح أي شخص يعترض طريقي، دون لحظة تردد واحدة.. حين تواجه رجل مخابرات مسلح في طريقك للهرب من وكره، فكل ما تملكه هو نصف ثانية لتطلق رصاصاتك، قبل أن يمطرك هو برصاصاته، وهذا يعني أن المعادلة - وببساطة - حياتك أو حياتهم، لذا يمكنني أن أقول بضمير مستريح، أنني لم أكن أملك الخيار..

وكدنا نصل إلى النقطة المتفق عليها عند سور الحديقة، حين ظهر ثلاثة من الحراس، ليقطعوا الطريق علينا، وهم يصرخون بلغتهم الروسية الثقيلة، وبدا أنها النهاية، لولا أن انطلقت تلك الرصاصات من نقطة خلف سور الحديقة، لتحصد الثلاثة بسرعة ودقة، وليرتفع صوت السيد (أنور):

- من هنا.. أسرع..

فأسرعت إليه ومن خلفي (ناتاليا) التي كانت في حالة من الإجهاد، لم تسمح لها بممارسة الهستيريا المعتادة، التي تصيب كل الإناث في مثل هذه المواقف لحسن الحظ، فساعدتها على تجاوز السور، لنجد السيد (أنور) في سيارة معدّة للانطلاق، والذي لم يكد يرانا حتى هتف:

- هيا بسرعة، قبل أن ينطلقوا في إثرنا..

- لكن.. أبي؟!

كانت هذه من (ناتاليا). لكن الموقف لم يكن يسمح الشرح. فدفعتها إلى المقعد الخلفي، واتخذت مكاني جوارها، لينطلق بنا السيد (أنور) على الفور، وبأقصى سرعة..

لقد نجحنا.. هربنا من بيت العقارب..

وكررت (ناتاليا) بقلق لا حد له:

- أبي.. أين هو؟!

فأجاب السيد (أنور)، وهو يواصل طريقه:

- لا تقلقي.. سيكون كل شيء على ما يرام..

لقد انتهى دورنا نحن في هذا المخطط الانتحاري. ونجحنا في إنقاذ الفتاة، والخروج من بيت العقارب على قيد الحياة..

وكعادتي سأتجاوز كل التفاصيل المعتادة، وسأخبرك أنه بعد ساعة كاملة، وصلنا إلى ذلك المنزل الآمن في (باريس)، بعد أن تأكد السيد (أنور) بكل الطرق الممكنة، أنه لا يوجد من يطارده أو يتتبعه، ليبدأ انتظارنا...

دورنا في المخطط انتهى، لكن ماذا عن (إيجور) والسيد (أمجد)؟! هل نجحا هما أيضًا، أم..؟؟

لم يطل انتظارنا، إذ لم تكد نصف ساعة تمرّ علينا في المنزل الآمن، حتى وجدنا (إيجور) يدخل علينا، وقد بدا في حالة رثّة وأثار المعركة واضحة عليه، فكادت (ناتاليا) تلقي بنفسها بين ذراعيه، لولا أنه نزع قناعه، لنجد أنه السيد (أمجد) الذي نظر إلينا بدهشة قبل أن يقول:

- (إيجور).. أين هو؟!

- كنّا على وشك أن نسألك ذات السؤال..

- لقد انسحبت بعد تأدية دوري كما هو المخطط، وكنت أتوقع أن أجده هنا حين أعود..

وهنا تبادلنا النظرات الصامتة التي تحمل ألف معنى ومعنى، بينما انهمرت دموع القلق من عيني (ناتاليا)، ليبقى هذا السؤال معلقًا تلك الليلة، بلا إجابة...

ترى.. ما الذي حدث لـ(إيجور فيودورف)؟!

أين هو الشبح؟؟!!

***

اا– أريد الرحيل.. ولكن..

نحن الآن نقف في مطار (شارل ديغول) أو كما يسميه الفرنسيون (رواسّي Roissy) كعادتهم في تغيير أسماء الأماكن التي تحمل أسماء الرؤساء أو الزعماء في (فرنسا)، فهم يمقتون تلك العادة في أن يحمل كل مبنى في البلاد اسم رئيس أو زعيم أو أحد القادة الذين لا نهاية لهم...

أقف الآن جوار السيد (أنور) بقامته القصيرة ونظراته النافذة، و(ناتاليا) التي ارتدت نظارة سوداء ضخمة، لتخفي كدمات وجهها، وقد صبغت شعرها باللون الأسود، لتحيط الباقي من وجهها بوشاح صوفي سميك، وهذا بات من المستحيل أن تتعرف عليها..

كانت تنظر إلى ساعتها كل عشر ثوان، على نحو دفع السيد (أنور) لأن يزجرها همسًا:

- ستلفتين الأنظار إلينا بقلقك هذا..
- أعتذر.. لكني أشعر بالقلق حقًا..
- حاولي التماسك إذن..

نرى (أمجد) يتقدم نحونا ببطء، فلا يتخذ أحدنا أي ردة فعل، حتى يصل إلينا، ليسألنا بهدوء، ودون أن يبدو عليه أن يعرفنا:

- هل يعرف أحدكم الطريق للبوابة التاسعة؟

- من هذا الاتجاه.. اتبع هؤلاء المسافرون..

- أشكرك يا سيدي..

هكذا نعرف أن المطار آمن، وأنه لن يهجم علينا أحد فجأة، لنعود إلى الانتظار..

وأخيرًا يظهر ذلك البدين برأسه الصلعاء مستندًا على عكاز معدني رخيص الثمن، حاملاً حقيبة صغيرة، ليتجه نحونا بخطوات بطيئة هادئة.. وحين يبلغنا يتحدث، فيخرج منه صوت مألوف:

- كيف حالك يا (ناتاليا)؟

يتهدج صوت ابنته وهي تجيب، محاولة السيطرة على نفسها بصعوبة:

- أبي.. أنت بخير..

- نعم.. لا تقلقي.. بعد قليل سينتهي هذا كله..

ثم إنه ناول السيد (أنور) الحقيبة الصغيرة التي يحملها، ففتحها السيد (أنور) ليلقي عليها نظرة سريعة قبل أن يقول باقتضاب:

- عظيم..

- الصفقة تنتهي عند هذا الحد..

- بالتأكيد..

ويلتفت لي (إيجور) ليرمقني بنظرة طويلة، قبل أن يقول:

- أشكرك على إنقاذ ابنتي..

ودون أن ينتظر ردي، يجذب (ناتاليا) من يدها، ليبتعدا عننا..

وبعد لحظات كانا قد ذابا في زحام المطار، لنتجه أنا والسيد (أنور) إلى باب الخروج..

لقد انتهت الصفقة..

وفي التلفاز الضخم المعلق في المطار، تسمع المذيعة الأنيقة تقول:

- وهذا وقد شهدت قرية (مونمارتر) مذبحة مروعة ليلة أمس، راح ضحيتها عشرون من الأجانب، الأغلب أنهم يحملون الجنسية الروسية.. وبينما تتصاعد الشائعات بأن هذه المذبحة هي نتيجة حرب عصابات منظمة، إلا أن الشيء الغريب الذي يواجه رجال المعمل الجنائي، هو أنهم كانوا يحملون عملات معدنية في أفواههم، الأمر الذي يشبه بعض الطوائف و..

***

بالطبع نجا (إيجور) في هذه الليلة، لكنه لم يغفر لهم ما فعلوه في ابنته، فلم يبق على أحد منهم..

وهكذا وبعد أن أوشكت المخابرات الروسية على القضاء عليه، ها هي تتلقى صفعة قاسية منه، أغلب الظن أنها ستقنعهم بتركه في حاله إلى الأبد..

صحيح أن (باريس) استيقظت لتجد هذه المذبحة التي تبقت من ليلة أمس.. وصحيح أن رجال التحقيقات والمعمل الجنائي سيبذلون جهدًا عظيمًا في محاولة البحث عن تفسير مقنع لما حدث، وربما ربطوا بين هذه المذبحة وبين الجثة التي عثروا عليها مشتعلة في الفندق - وإن كنت أشك في هذا - لكن أيًا كان ما سيصلون له، هو أن لديهم عشرون جثة لروس، وأنهم جميعًا يحملون تلك العملات المعدنية في أفواههم..

بالتأكيد ستبدو هذه النقطة بالذات غريبة للغاية، وبالتأكيد أنها ستحيرهم طويلاً، وأنهم سيجربون خبراء من التخصصات المعروفة للبحث عن تفسير لهذه النقطة، لكنهم لن يعرفوا الحقيقة أبدًا..

فقط أجهزة المخابرات هي من تلقت الرسالة كاملة..

لقد كانت هذه الضربة تحمل إمضاء الشبح الشهير، وهذا يعني أن هناك من أخرجه من حالة الثبات الاختيارية التي كان فيها، وأنه دفع ثمن هذا غاليًا..

بالطبع ستبقى المخابرات الروسية صامتة، عاجزة عن تصديق ما أصابها، وبالتأكيد ستحاول معرفة كيف استطاع رجل في الستين من عمره في التسبب في هذا كله..!

حتى لو حاولوا العثور عليه، فلن يستطيعوا.. صحيح أننا نعرف أنه أخذ الطائرة المتجهة إلى إيطاليا، لكن من قال أنه سيظل هناك؟!

إنه سيفعل ما اعتاد أن يفعله طيلة حياته... سيختفي...

كالشبح...

***

في المقهى الذي التقينا فيه أول مرة، جلست مع السيد (أنور) لأشرح له قراري..

أنا لن أستطيع العمل معهم.. هذه الحياة تبدو صاخبة أكثر من اللازم، وأنا لم أعد أتحمل المزيد.. صحيح أنني من اخترت في أول الأمر، لكن ما حدث فاق كل الحدود التي توقعتها..

إذا كانت هذه هي مهمتي الأولى معهم، فما الذي سيحدث لو واصلت؟!

استمع إليّ السيد (أنور) طويلاً، قبل أن يقول بهدوئه الذي لا يتزحزح:

- (سامي).. إنه قرارك رغم كل شيء، لكني دعني أخبرك بشيء واحد.. إنها مهمتك الأولى ولقد أبديت فيها مهارات لم نكن نتوقعها منك على الإطلاق.. ربما يزعجك أننا نتعامل معك على أساس قدراتك، لكن لماذا لا تفكر بالأمر بهذه الطريقة؟.. أنت قادر على منحنا شيء لا يملكه الأعداء.. شيء تجيد استخدامه، ونحن في حاجة إليه..

- لكني أشعر بالإرهاق حقًا..

- أمر طبيعي.. عالمنا مرهق، لكن لا تنكر أنه ممتع كذلك.. هل كنت تتصور أن تخوض هذا كله بمفردك؟

- هذا ما لم أعد أطيقه.. حتى لو كان ممتعًا، فهو خطر ومرهق أكثر من قدرتي على الاحتمال..

- ومن قال إن كل مهامنا بهذه الصورة؟!.. هذه مزية عالمنا الوحيدة.. التنوع الذي لا نهاية له.. هناك ما هو أفضل وهناك ما هو أسوأ..

ثم إنه صمت قليلاً قبل أن يقول:

- صدقني يا (سامي).. لو لم أشعر أنك ستحقق نجاحًا في عالمنا هذا، لما طلبت منك أن تستمر.. لاحظ أنك مررت بمهمتك الأولى دون أي استعداد أو تعليم مسبق، وهذا ما يجب أن تحصل عليه، لو قررت الاستمرار، وستشعر بفارق كبير بعدها..

ونهض من على مقعده ليترك الصحيفة التي يحملها أمامي، وهوي قول:

- سأتركك حتى تتخذ قرارك، وإن كنت أرجو ألا تطيل عليّ في

الرد.. بالمناسبة، اقرأ الصفحة السابعة، وستعرف المقابل الذي يدفعنا للاستمرار والتحمل..

وغادر المكان بخطوات سريعة، ليتركني وسط عاصفة لا ترحم من الأفكار..

وحين فتحت الصفحة السابعة كان هذا الخبر في انتظاري.. وكان عنوانه..

(القبض على أكبر شبكة تجسس في الشرق الأوسط) ..

هذا هو المقابل إذن..

هذا هو المقابل..

***

قضيت الأيام التالية وأنا في حالة حيرة شديدة عاجزًا عن اتخاذ قراري النهائي، وكنت قد بدأت أميل إلى فكرة المواصلة.. صحيح أننا نتعذب في هذا العالم، لكنه عذاب يستحق..

على كل حال، لم أكن قد وصلت إلى قراري النهائي، حين زارني السيد (أنور) بعد لقائي الأخير معه بيومين، في شقتي، ليخبرني أن هناك شيء طارئ لا يقبل التأجيل..

كان يحمل معه شريط فيديو، عرضه عليّ وهو يقول:

- أرجو أن تكون قد اتخذت قرارك.. فما يحويه هذا الشريط سيثير اهتمامك حقًا..

- ما الذي يحويه هذا الشريط؟!

- انظر بنفسك..

وهكذا شغلت الشريط، وجلست إلى جواره أمام التلفاز لأفهم ما

الذي كان يتحدث عنه..

فعلى الشاشة أمامي ظهر وجه مألوف.. وجه لم أتخيل أنني سأراه بهذه السرعة.. وجه (مجدي)!!

وبابتسامة شيطانية قال (مجدي) في التلفاز، ليدوي صوته في أرجاء الشقة:

- مرحبًا بكم.. وصول هذا الشريط لكم يعني أنني قد متّ، لكنه لا يعني أن كل شيء قد انتهى.. صدقوني أيها السادة.. أمامنا الكثير من المرح في الفترة القادمة..

والواقع أنه كان على حق..

ففي انتظارنا الكثير من المرح حقًا..

والكثير من الهلع..

لكن لنترك هذا للقائنا القادم..

- تمت بحمد الله -